فريدريش دورينمات

السقوط

ثلاث قصص من روائع دورنمات النثرية

ترجمة سمير جريس

السقوط

ثلاث قصص من روائع دورنمات النثرية

تأليف
فريدريش دورينمات

ترجمة
سمير جريس

هنـــداوي

السقوط

فريدريش دورينمات

Meistererzaehlungen

Friedrich Dürrenmatt

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٢ ٣٢٥٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٩٢.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير جريس.

المحتويات

الخسوف	٧
السقوط	٣٩
حربُ التيبت الشَّتوية	٧٣
تعقيب	١٢٣

الخسوف[1]

في عزِّ الشتاء، وقبل بداية العام الجديد بأيام، كانت سيارة كاديلاك فارهةٌ تشقُّ طريقها بصعوبة في الشوارع المغطَّاة بالثلوج في قريةِ فلوتنجن الواقعة على أطراف وادي فلوتنباخ، ثم توقفتْ أمام ورشة سيارات. بجهدٍ بالغٍ حاوَلَ فالت لوتشر — وهو عملاق يبلغ المترين تقريبًا، شَحَنَ نَفْسه مع سيارته بالطائرة من كندا إلى كلوتن — أن يخرج من السيارة. لوتشر ضخمُ البدن، مفتولُ العضلات، في الخامسة والستين، شَعره رَماديٌّ مجعَّد، ولحيته المنفوشة شيباءُ تتخلَّلها خصلاتٌ سوداء. كان يرتدي مِعطفًا من الفرو وحذاءً برَقَبة من الفرو أيضًا. «سلاسل للسير على الجليد»، أمر لوتشر صاحبَ الورشة، ثم سأله بلهجةِ أهل المنطقة عمَّا إذا كان ابن فيلو جرابر. إنَّه أصغر أبنائه، أجاب صاحب الورشة مبهوتًا لأنَّ المسافر يتحدث لغةَ منطقة بيرن، ليس هذا فحسب، بل أيضًا لهجةَ أهل فلوتنباخ، ثم أضاف أن جرابر تُوفِّي منذ ما يزيد على 30 سنة. هل كان يعرف والده؟ «عرفتُه أيام كان تاجرَ درَّاجات»، أجاب لوتشر. تطلَّع إليه صاحبُ الورشة مستريبًا، ثم سأله في النهاية: «على فين العزم؟»

– «إلى أعلى الوادي»، أجاب لوتشر. «لن تستطيع السيارة الصعود إلى أعلى، حتى إذا استخدمت السلاسل»، قال صاحب الورشة مزمجرًا، «الصيادون واللصوص الذين يعيشون

---

[1] هذه القصة معالجةٌ نثرية لأشهر مسرحيات دورنمات: «زيارة السيدة العجوز» التي كتبها عام ١٩٥٦م. وقد نُشرت القصة لأول مرة عام ١٩٨١م، ثم ظهرتْ في طبعةٍ أخرى منقَّحة عام ١٩٩٠م. وتعتمد هذه الترجمة على القصة المطبوعة ضمن المختارات القَصصية لدورنمات التي صدرتْ عن دار ديوجنيس في عام ١٩٩٢م. (المترجِم)

هناك يمانعون في شراء كاسحة جليد، حتى سيارة البريد لا تصعد إليهم». «رغم ذلك، ركِّب السلاسل على الإطارات»، قال لوتشر وهو يخبط قدمَيه فوق الجليد، بينما انصرف صاحب الورشة إلى تنفيذ ما طُلب منه. بعد أن دفَعَ لوتشر الأجر، ركبَ السيارة وقادها صاعدًا إلى الوادي مارًّا بأطفالٍ يلهون بزحَّافات الجليد، ثم انزلقت السيارة بسرعة، وترَكَ لوتشر آخر بيوت الفلَّاحين خلفه. كلما انبسط الطريق أمامه، زاد السرعة، إلى أن اصطدم من الجانب بعمود تليفونات انكسر على الفور، غير أن الكاديلاك عادتْ مرةً أخرى إلى الطريق الصاعد مُخترِقةً غابة، إلا أنَّها انزلقتْ في أحد المنحنيات رغم السلاسل؛ فهبطتْ على التلِّ المُنحدِر، وانغرزت وسط الثلوج المتراكِمة أمتارًا عاجزةً عن مواصلةِ السَّير. بذَلَ لوتشر جهدًا كبيرًا للخروج من السيارة وسط الثلوج التي عاقتْه عن فتْحِ الباب. وقَفَ بين الثلوج التي وصلتْ إلى كرشه، وشقَّ طريقه للوصول إلى الشارع، لكنَّه انزلَقَ ثانيةً، فحاول أن يجِدَ طريقه مرةً أخرى، إلى أن وقَفَ في الشارع ينفض ثيابه؛ فتساقَطَ الثلج من فروه. واصَلَ الخوض في الثلوج. في بعض الأحيان لا يمكن التَّعرف على الشارع. أشجارُ التَّنُّوب البيضاءُ ذاتُ الأغصان الثقيلة المائلة تكوِّن معًا كتلةً جليديةً لا هيئة لها. غاص المسافر في الثلوج وكأنه في مجرًى جليدي. السماء فوقه ذاتُ لونٍ فضِّي مُبهِر.

تعثَّر لوتشر في شيءٍ، وقَعَ، ونهَضَ، ثم نزَعَ ما تعثرتْ فيه قدمَاه، فأمسَكَ بين قبضتَيه بجثَّة، هزَّها، فحملق فيه؛ رجلٌ طاعِنٌ في السنِّ ذو لحيةٍ نابتةٍ شيباءَ وسطَ الوجه المغطَّى بالثلوج. ترَكَ الجثَّة تهوي، ثم واصَلَ شقَّ طريقه، إلى أن وصَلَ إلى منطقةٍ تخلو من الأشجار. على هامات أشجار التَّنُّوب البعيدة سطَعَ ضوءٌ دموي، الشمس تغرب خلف أحد الجبال السوداء، ولكن ما زالت السماء تُبهِر البَصَر، بين أشجار التَّنُّوب فقط يلاحِظ المرءُ أن لونها أزرقُ داكن. قطعتْ غزالةٌ الطريقَ، وحتى هي وجدتْ صعوبةً وسط الثلوج، ثم ظهرتْ غزالةٌ أخرى، نظرتْ له بعيونٍ مِلؤها الخوف المميت. لوتشر قريبٌ منها للغاية، لكنها سرعان ما عادت للغابةِ مرةً أخرى.

اعترضت الغصون التي أثقَلَها الثلجُ طريقَهُ، غير أن لوتشر أجبَرَ نَفْسه على المرور من تحتها، ثم وقَفَ مثل عملاقٍ من الجليد، نافِضًا الكُتَل الثلجية التي انهمرتْ عليه. غطَّى الغَبَش كلَّ شيء؛ الثلوج على التَّنُّوب. كانت السماء مُبهِرةً زجاجية، والآن أظلمتْ بسرعة، انزلقتْ قدمَا لوتشر، فوجَدَ نَفْسه يهبط أحدَ المنحدرات، ثم اصطدم بشجرةٍ مُحدِثًا فرقعةً، فعاوَدَ الثَّلجُ هطولَهُ فوق رأسه. احتاج إلى أكثرَ من نصف ساعة حتى وصَلَ إلى الطريق

من جديد. تمطَّى لوتشر شاعرًا بأنفاسه تتحوَّل إلى بخار، الظُّلمة الآن دامسة، شقَّ طريقه وسط الثلوج التي لم يعُدْ يراها، وفجأةً شعَرَ بالتحرُّر. تباعدتْ أشجار التَّنُّوب، ولمعتْ في السماء نجوم. في كبِدِ السماء تقريبًا كان النَّجم كابيلا يسطع، أمَّا الجوزاء فهو شِبه متوارٍ خلْفَ حافةٍ مدبَّبة. لوتشر خبيرٌ بالنجوم. نهضتْ أمامه صخرةٌ هائلةٌ غيرُ واضحة المعالم، كأنها منزل، راح يتحسَّس طريقَهُ بحذرٍ حولها، إلى أن وصَلَ إلى الطريق مرةً أخرى، ظهرتْ أضواءٌ: عمودُ نورٍ، ثلاث أو أربعُ نوافذ مُضاءة.

فجأةً خلا الشارع من الثلوج، وتناثرتْ فوقه حبَّات المِلح. دخَلَ لوتشر فندق وحانة «الدب»، سار عبْرَ الممرِّ الضيِّق، وفتَحَ الباب الذي حمَلَ لافتة «مطعم»، ثم وقَفَ على العتبة مُتلفِّتًا حوله، على المائدة بجوار صفِّ النوافذ الصغيرة جلَسَ فلَّاحو القرية الجبليَّة وشُرطيٌّ بدينٌ وصاحبُ «الدب»، وفي نهايةِ المائدة تحت صورةِ الجنرال جلَسَ أربعة. دون أن يخلع مِعطفه الفَرو جلَسَ لوتشر إلى المائدة بجانبِ الساعة الكبيرة التي ترتكز على الأرض، ثم قال: إنَّ ميتًا ملقًى وسطَ الثلوج على الطريق في غابة فلوتنباخ. «إنَّه العجوزُ إيبجر»، قال صاحب «الدب» مُشعِلًا لنَفْسه سيجارًا. طلَبَ لوتشر لترًا من البِتسي. أرسلت الفتاة التي تقوم على خدمة الزبائن نظرةً متسائلة إلى المائدة الطويلة. نهَضَ صاحبُ «الدب»، وهو رجلٌ بدين يميل إلى القِصَر، قميصه بدون ياقة، وصدريته مفتوحة. سار إلى لوتشر قائلًا: «لا نقدِّم هنا لترًا من البِتسي، عندنا تسفاير فقط». سدَّد لوتشر ناحيته نظرةً متأمِّلة. «سيبو شلاج إنهاوفن هو صاحب الفندق الجديد إذن. وبالتأكيد عُمدة البلد أيضًا، هه؟» فأجاب صاحبُ «الدب»: «أعتقد ذلك. هل تعرفني؟» «فكِّر قليلًا!» جاوَبَه لوتشر. «يا إلهي!» يتذكر صاحب «الدب» فجأةً، «ألستَ فاوتي لوخر؟» «كنتَ دائمًا بطِيءَ الفَهم»، يقول لوتشر، «هل ستُحضر الآن لترًا من البِتسي أم لا؟» بإشارةٍ من صاحب الفندق أحضرت الساقية ما طلَبَه، وصبَّتْ له كأسًا. أفرغ لوتشر — لا يزال يرتدي مِعطفه الفرو المبلل والمغطَّى بالثلوج — كأسَ الشنابس[٢] في جوفه، ثم صبَّ لنَفْسه كأسًا ثانية. «اللعنة، من أين أتيتَ إذن؟» سأله صاحبُ «الدب». «من كندا»، أجاب لوتشر صابًّا لنَفْسه كأسًا، ثم كأسًا أخرى.

[٢] تُطلَق كلمة «الشنابس» Schnaps على جميع المشروبات الروحية المقطَّرة ذات النسبة العالية من الكحول (نحو ٤٠٪)، وهو يشبه العَرَق، لكنَّه لا يُصنع من اليانسون والعنب (كما في بلاد الشام) أو من البَلَح (كما في مصر والسودان)، بل في المعتاد من الفواكه المختلفة، كالتفاح والبرقوق والكُمَّثْرى. (المترجِم)

أشعَلَ صاحبُ «الدب» سيجارًا قائلًا: «ستتعجب كلاري عندما تعرف ذلك». «كلاري مَن؟» سأله لوتشر. «كلاري تسوربروجن»، أجابَهُ صاحبُ الفندق، «التي أخَذَها منك دوفو ماني». «آه»، قال لوتشر صابًّا لنَفْسه مرةً أخرى، «كلاري تسوربروجن الآن زوجة دوفو ماني. لقد نسيتُ ذلك تمامًا». «رغم أن كلاري كانت حاملًا منك آنذاك، فإنَّها أصبحتْ زوجةَ ماني». اعترتْ لوتشر الدهشةُ للحظةٍ، ثم واصَلَ الشرب. «وماذا ولدتْ؟» سأل بعد بُرهة. «صبي. الآن في الأربعين من عمره. إنَّه يجلس هناك تحت صورة الجنرال غيسان». لم يوجِّه لوتشر حتى نظرةً إلى ذلك الاتجاه. «وماذا أصبحتَ في كندا؟» سأله صاحبُ «الدب» وهو يُنفص دخانَ سيجاره. «أصبحتُ فالت لوتشر». تعجَّبَ صاحبُ «الدب» وصاح بلهجةِ أهل المنطقة: «فولت لاتشر؟ اسمٌ غريب».

– «هكذا ينطقون اسم لوخر هناك.»

– «ولماذا عُدتَ؟» سأله صاحبُ «الدب» مستريبًا فجأةً في أمره، دونَ أن يعرف السبب.

– «حالتُكم هنا كما كانت: زفت»، قال لوتشر مبتسِمًا. ورغم أنَّه كان يحتسي «البِتسي» كالماء فإنَّه لم يعْرَق في مِعطف الفرو الذي يرتديه. أجابه صاحبُ الفندق بأنَّ هذا هو الحال في منطقة كهذه لا تعرف إلا الأمطار والثلوج. لقد فات الوادي اللَّحاق بقطار العصر الحديث، لقد نزَلَ معظم السُّكان ليعيشوا في السهل، ولم يبقَ في الحقيقة إلا الأغبياء الذين لا يهمُّهم أن يظلُّوا في فقر مُدقِع. حالتُه أيضًا لم تتحسن كثيرًا. ناهيك عن أنَّه ليس ممَّا يشرِّف أن يكون عُمدةً لأكثرِ القُرى بُؤسًا في المنطقة. إضافةً إلى ذلك فقَدْ واجَهَه سوءُ الحظِّ. زوجته الأولى، إيمي أوكسنبلوت، ظلَّت سنواتٍ وسنوات لا تُنجب، إلى أن ساعدها طبيبٌ عبقريٌّ في أبينتسل، فولدت سيمو، ولكنها على ما يبدو كانت تقدَّمتْ في العمر جدًّا، ولذلك ماتت بعد الوضع مباشرة. بعدها بعامٍ تزوَّجَ امرأةً شابَّة من فلوتجن، ولدتْ له إيني، لقد تناولتْ قبل فترةٍ قصيرة الأسرارَ المقدَّسة لأول مرة، غيرَ أنَّ أمَّها لم تتجاوز الثانية والثلاثين، وهو قد شاخ مقارنةً بامرأةٍ رائعةٍ فاتنة مثلها، عليه أن يأخذ حذره ليلَ نهار. في تلك الأثناء كان لوتشر يحتسي الشنابس دون أن تبدو على وجهه علامةٌ تُشير إلى اكتراثه أو عدم اكتراثه بثرثرةِ صاحب «الدب». «في كندا»، قال بلهجةٍ حيادية، «أملكُ منطقةً أكبر من مرتفعات بيرن كلِّها. يورانيوم، بترول، حديد». ثم سأل صاحب الفندق: «كم عائلةً ما زالتْ تعيش هنا في الجبل؟» «١٦ عائلة. البقيَّة كلُّها هاجرتْ». فسأله لوتشر: «ومن أين يأتي المعلِّم والشرطيُّ؟» «المعلِّمة من العاصمة، والشرطيُّ من كونيجن. إنَّه أيضًا يحرس الغابات». «لا يجب أن نحسب المعلِّمة والشرطي»، قال لوتشر، «إذن، ١٤ عائلةً.

إنني أهبُكم ١٤ مليونًا». «١٤ مليونًا؟» ردَّد صاحب الفندق مندهشًا، ثم ضحِكَ قائلًا: «ولكنك لا تملك هذا المبلغ». فأجابه لوتشر: «إنني أملك أكثرَ بكثير». انتاب صاحبُ «الدب» شعورٌ غيرُ مريح، فسأله: «١٤ مليونًا؟ هكذا ببساطة؟» فأجاب الآخر: «لا. عليكم أن تقتلوا دوفو ماني». «دوفو ماني؟» لم يصدِّق صاحبُ الفندق أذنَيه. كرَّر لوتشر: «دوفو ماني». فسأله صاحبُ الفندق: «قَتْل؟ ذلك الرَّجُل؟» ثم لم يعرف بمَ يُجيب. «لا تنظُر ببلاهة هكذا» قال لوتشر. «لقد أقسمتُ فيما مضى أن آخذ بثأري. لقد تذكَّرتُ ذلك الآن فجأةً، وأنا ألتزم بقَسَمي». حملَقَ صاحبُ الفندق في لوتشر: «أنت تخرف.»

– «لماذا؟» تساءل لوتشر.

– «لقد شربتَ أكثرَ من اللازم»، أجابه صاحبُ الفندق الذي شعَرَ فجأةً بالبرد.

– «أنا لا أشربُ أبدًا أكثر من اللازم»، قال لوتشر صابًّا لنَفْسه كأسًا أخرى من البِتسي.

– «كلاري ماني امرأةٌ عجوز»، قال صاحبُ الفندق متأمِّلًا.

– «القَسَم قَسَم.»

– «أنت مجنون، يا فوت لاتشر»، قال صاحبُ الفندق، ثم أحضَرَ لنَفْسه أيضًا كأسًا من «البِتسي»، وجلس. «أنت مخبول.»

– «حتى الخبل أستطيع أن أسمح لنَفْسي به.»

– «ومِمَّن تريد أن تأخذ بثأرك؟» تساءل صاحبُ الفندق الذي أشرق عليه ببطءٍ الإدراكُ بأن الآخر جادٌّ فيما يقول، «من كلاري أم من دوفو؟»

تمعَّنَ لوتشر في السؤال، ثم قال أخيرًا: «نسيتُ. لكنني لم أنسَ أن عليَّ الثأر لأنني أقسمتُ على ذلك.»

– «جنون! هذا ببساطة جنون!» قال صاحبُ «الدب» هازًّا رأسه.

– «ممكن»، جاوبه لوتشر. لزمَ صاحبُ «الدب» الصمت، واحتسى من كأسه. ثم اقترح عليه مترددًا: «٣٠ مليونًا.»

– «١٤»، أصرَّ لوتشر وواصَلَ الشرب. «لن تعرفوا على أية حالٍ ماذا تفعلون بها.»

– «متى؟»

– «بعد عشرة أيام.»

– «سأدعو غدًا إلى اجتماع عامٍّ للقرية»، قال صاحبُ الفندق مقترِحًا، «بدون الشرطي.»

– «افعل ذلك.»

– «سيرفضون»، ادَّعى صاحبُ «الدب».

فضحك لوتشر ثم قال: «سيقبلون. حتى دوفو ماني، إنني أعرف هذا الخنزير». ونهض قائلًا: «أحضرْ لي الزجاجة إلى الغرفة.»

– «فريدا، أعدِّي الغرفة رقم ١٤»، قال صاحبُ «الدب» آمرًا.

أسرعت الفتاة صاعدةً الدَّرَج، وتبعها لوتشر ببصره. فقال صاحبُ الفندق: «خادمةٌ جيدة، أكبرُ بنات بينجو كوبلر»؛ فردَّ لوتشر مرتقيًا الدَّرَج: «أهمُّ شيءٍ أنها فارعةُ القَوام». تبعه صاحبُ الفندق، وسأله: «أليس معك حقائب؟» «في السيارة»، أجاب لوتشر، «المغروزة وسط الثلوج بالقرب من فلوتجن على حافة الغابة، في الأسفل عند المنحدَر. وبداخلها ١٤ مليونًا. رِزَم من فئة الألف». دخلا الغرفة، فيما فريدا منهمِكة في إعداد الفِراش. رمى لوتشر بالمِعطف في أحد الأركان، وفتَحَ أحدَ الشُّباكَين، فهبَّ الثلج داخل الغرفة، وقَفَ في الغرفة مرتديًا بدلةً رياضيةً زرقاءَ داكنة وبشريطَين من اللون الأصفر، ثم خلَعَ «البوت». في إطار الباب ظهَرَ شابٌّ طويلُ القامة، لكنه بدينٌ قياسًا إلى سِنِّه. قال صاحبُ الفندق مقدِّمًا إيَّاه: «هذا ابني سيمو، ٢٨ سنة». خلَعَ لوتشر البدلة الرياضية الزرقاء، التي كان يَلبَس تحتها بدلةً حمراءَ بشريطَين من اللون الأبيض، وخلَعَ البدلة الحمراء أيضًا، ثم سار عاريًا إلى الطاولة الصغيرة بجانب السرير وعليها زجاجة الشنابس. أدار غطاءها، وشرِبَ، هبَّت الثلوج مرةً أخرى ودخلت الغرفة. لوتشر عملاقٌ، بدون سِمنة، بشرته داكنةٌ من الشمس، غير أنَّ الشَّعر الأشيب ينمو بكثافةٍ في كلِّ مكانٍ من جسمه. في إطار الباب وقَفَ صاحبُ «الدب»، بينما راح سيمو يُحملِق في الزائر، وبرأسٍ منكَّسٍ أخذتْ فريدا ترفع غطاءَ السرير المفروش بمُلاءاتٍ جديدة. «فريدا، اخلعي ملابسكِ»، أمرها لوتشر، «أنا لا أنامُ أبدًا بدون امرأة»، فاعترض سيمو قائلًا: «لكن ...»

– «امشِ اطلعْ برَّه!» صرخ في وجهه صاحبُ الفندق وأغلق الباب. «تعالَ!» أصدَرَ ضجيجًا في أثناء نزوله الدَّرَج. «يا غبي!» قال لابنه. «اربط الزحَّافات في الحصانَين، وقلْ لمكسو أوكسنبلوت أن يأتي بحصانَيه أيضًا. علينا أن نجرَّ سيارة فاوتي لوخر. أنت لا تعلم أيَّ فرصةٍ ستضيع منا لو لم نفعل! ستندم إلى الأبد لو لم تَدَعه ينَمْ مع صديقتك فريدا». بالأحصنة الأربعة نجحا في جرِّ السيارة، صحيح أن حصانًا من أحصنة أوكسنبلوت انزلَقَ كالريح محدِثًا ضجةً عظيمة في أحد شِعاب فلوتنباخ، ولكنْ في الصباح كانت الكاديلاك تقف في فِناء فندق «الدب». سماءٌ زرقاء، شمسٌ لاسعة. وفي المطبخ جلستْ زوجة صاحب «الدب» مع ابنتها إيني، كما جلستْ فريدا إلى المائدة شاحبةً من السهر وقلة النوم. صبَّ صاحب «الدب» لنَفْسه فنجانًا، وراحوا يشربون جميعًا القهوة بالحليب. على واحدةٍ أن

تصعد إليه، قالت فريدا وهي تدهن شريحةَ خبزٍ بالزبدة. إنَّها اليوم في إجازة، قال صاحب «الدب» يمكن لزوجته أن تقوم على خدمته. ولكنه يريد واحدةً جديدة، قالت فريدا بإصرارٍ وهي تقضم شريحة الخبز. رشف صاحبُ «الدب» رشفةً من القهوة بالحليب، ثم عقَّب: على فكرة، لوخر اسمه الآن لاتشر، فوت لاتشر. لاذت النساء بالصمت. ما الحكاية؟ سألت زوجته. لقد جاءت الفرصة، الفرصة الهائلة، صاح صاحبُ الفندق، ثم نهض صاعدًا الدَّرَج في ضجةٍ، وفتَحَ الباب. الشُّباك مغلق، وفي الفِراش كان لوتشر يتناول بيضًا مقليًّا مع جامبون، ويشرب من فنجانٍ كبير قهوةً بالحليب. زجاجةُ الشنابس فارغة. لقد جرُّوا السيارة إلى هنا»، قال صاحبُ الفندق. وماذا فعلوا بالميِّت؟ تساءل لوتشر. لقد أحضروه أيضًا، إنَّه إيبجر العجوز، قال صاحبُ «الدب»، ولكن لماذا يُهتم بأمر الميت إلى هذا الحد؟ المرءُ لا يعرف أبدًا ما يخبئ له المستقبل، أجاب لوتشر، هل ما زال مفتاحُ التشغيل في السيارة؟ مجموعةٌ كاملة من المفاتيح، أجاب صاحبُ الفندق. مفتاح التشغيل يفتح أيضًا حقيبة السيارة، قال لوتشر، عليه أن يُحضر الحقيبة إليه، كما أن صاحبَ الفندق يعرف ما عليه أن يُحضره أيضًا. قفَزَ صاحبُ «الدب» في الغرفة، ثم هبط الدَّرَج كالعاصفة، مُسرِعًا إلى السيارة، وبعد لحظاتٍ عاد بحقيبةٍ قديمةٍ كبيرة، صعد الدَّرَج كالعاصفة، ووضَعَ الحقيبةَ أمام لوتشر على المائدة تحت الشُّباك الصغير في مواجهةِ الفِراش، فتَحَها، ثم حملَقَ في رِزَم الأوراق النقدية من فئة الألف. كم في الحقيبة؟ تساءل لاهثًا. ١٤ مليونًا بالتمام والكمال، قال لوتشر.

يعني كان يعلم أحوالهم في القرية، قال صاحبُ «الدب» وقد أشرَقَ عليه نورُ الفهم. إنَّه يعرف دائمًا آخرَ الأخبار، ردَّ لوتشر. فتَحَ صاحبُ الفندق الباب، وصاح: «إيني، إيني»، ربما عَشْر مرَّات. ظهرتْ إيني في الطابق الأرضي أمام الباب بعيونٍ متَّسعة؛ ماذا يريد؟ عليها أن تصعد. وفورَ صعودها دفَعَ بها إلى غرفةِ لوتشر. «هناك، هناك»، صرَخَ مشيرًا إلى الأوراق من فئة الألف، هذه هي الفرصة، عليها أن تخلع ملابسها وتضطجع بجانب «لاتشر». احتجَّتْ إيني: لقد تناولت قبل فترةٍ قصيرة الأسرار المقدَّسة لأول مرة. «يعني؟» ومرَّ بيده على فمها قائلًا إنها نامتْ مع شريجو هنترشراخن، كما أنَّ أمَّها كانت تنام مع الرجال قبل تناولها الأسرارَ المقدَّسة. خلعتْ إيني ملابسها، ثم شرع صاحبُ «الدب» — مُعطيًا ظَهْره للفِراش — في عدِّ الأوراق النقدية من فئة الألف. خلْفَه تصاعدتْ صرخاتُ إيني.

أَخَذَ صاحبُ «الدب» يعدُّ ويعدُّ، كلُّ الرِّزَم حوتْ أوراقًا من فئة الألف، سطَعَت الشمس عبر النافذة على وجهه تمامًا، يعدُّ ويعدُّ، وخلْفَه تلهث إيني. في الجزء السفلي من زجاج النافذة — الذي كان كالمرآةِ بسبب سقْفِ منزل الجار — رأى ظهْرَ إيني العاريَ يرقص صاعدًا هابطًا. واصَلَ العدَّ، حتى الآن أحصى خمسمائة ألفٍ، يريد أن يعرف على وجه الدِّقة، الآن يتكوَّر خلْفَه الجسَدُ العملاق، يدفع نَفْسه إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وكأنَّه قاطرةٌ بخارية من اللحم تضبط مكانها قبل الوقوف. إنه يعدُّ ويعدُّ. إيني تصرخ. هو يعدُّ، أخيرًا وصل إلى المليون، ما زال أمامه ١٣ مليونًا، لا بدَّ أن يرى كلَّ ورقةٍ من فئة الألف. أمَرَ لوتشر قائلًا إنَّه يريد فريدا الآن. قالت إيني لاهثةً إنَّها لم تشبع بعدُ. فضحك لوتشر: إذن سأُريكِ. يتأرجح السرير يمينًا ويسارًا. يقف الآن مائلًا في الغرفة، صاحبُ «الدب» يعدُّ ويعدُّ، اختفت الشمس من النافذة، الألواح الزجاجية تُمسي شيئًا فشيئًا كالمرايا، مليونان. لا تستطيع أكثر من ذلك، صرخت إيني. أحضروا فريدا، يأمر صاحبُ «الدب»، وعلى إيني أن تأتي بـ «إويسي أوكسنبلوت». كما أنه يريد الحصول على عرقٍ مرةً أخرى، قال لوتشر مشتكيًا، بينما راح صاحب «الدب» يعدُّ ويعدُّ، ثم بدأ الأمر من خَلْفه مرةً أخرى، في البداية ببطءٍ، ثم بسرعةٍ متزايدة، ليست فريدا فقط على الفِراش، إيني أيضًا.

هل ستأتي أويسي أوكسنبلوت، سأل صاحبُ «الدب» وهو يعدُّ ورقةً من فئة الألف تلوَ الأخرى. ستُحضرها الأم، قالت إيني لاهثةً، متقطِّعةَ الأنفاس، متأوِّهة. وعلى الأم أن تُحضر أيضًا تسوزي هاكر، وأخذ يعدُّ ويعدُّ، ورعشةُ أصابعه تزداد شيئًا فشيئًا، وعندما كان يظنُّ أنَّه أخطأ العدَّ؛ يُحصي الرِّزمة من أوَّلها. مرَّتْ ساعاتٌ، وأظلمت السماءُ، فأضاء النور حتى يستطيع العدَّ بشكلٍ أفضل، منذ ساعاتٍ والهدوءُ يعمُّ خلْفَه، لا لهاثَ، لا طقطقة، لا تأرجُح يمينًا ويسارًا، ولا رقص صاعدًا هابطًا، وهو يعدُّ ويعدُّ. وفجأةً يعاودُ ظَهرٌ عارٍ الرقص الصاعد الهابط على اللوح الزجاجي، أويسي أوكسنبلوت أو تسوزي هاكر، وهو يعدُّ ويعدُّ، هبَطَ الليل في الخارج، ومن خَلْفه تتصاعد وتتزايد التأوُّهات واللهاث والحشرجات والصرخات. وفجأةً انتفض صاحبُ «الدب»، «١٤ مليونًا بالتمام والكمال»، ثم صرخ، «بالتمام والكمال»، وعدا من الغرفة هابطًا الدَّرَج.

في الحانة كان الفلَّاحون يجلسون مُجتمِعين، صاحبُ «الدب» عائم في عَرَقه، يلهث، يكاد يتعثَّر في ثلاثةِ أشخاصٍ جلسوا على آخر درجتَين في السُّلَّم. اتَّجهَ إلى المائدة الطويلة، وجلَسَ بجانب هيجو هنتركراخن، كاتب البَلَدية. جلَسَ الفلَّاحون في كلِّ مكان، وإلى كلِّ الموائد. هل عليه أن يبدأ تسجيلَ وقائع الجلسة، سأل هيجو. هل جُن؟ قال صاحب «الدب»

ثائرًا، ليس هناك ما يُكتب هنا، ثم سأل ابنه — الذي جلس إلى المائدة الطويلة مع يوجو ماني وماكسو أوكسنبلوت وميجو هاكر — تمامًا مثل الليلة السابقة: هل انتهى من موضوع الشرطي؟ أجاب سيمو: أعطيتُه سلَّة من «الأحمر»، وهو الآن سكران طينة وفي سابع نومة. هل يمكن أن ندخل في الموضوع؟ سأل هيرمنلي تسوربروجن؛ فالأمر يتعلق بغراب البين، زوج أخته، دوفو ماني، لقد كان دومًا ضدَّ هذه الزِّيجة، أحسن شيء لو ضربناه حتى الموت خلف «الدب»، ثم ندفنه في مدافن فلوتنباخ، ١٤ مليونًا يعني ١٤ مليونًا. والآن على أحدهم أن يذهب إلى المعلِّمة حتى لا تظهر مصادفةً لزيارة زوجة صاحب الفندق، فليذهب مثلًا يوجو ماني، فهي تحبُّه، وعلى يوجو أن يطلب منها أن تقرأ له شيئًا منظومًا، فهي دائمًا تنظم. وأين هي المعلمة؟ سأل صاحب «الدب». تعزف على الأرغن في الكنيسة، وهو أمرٌ يستغرق على الأقل ساعتَين، قال روفو أوكسنبلوت، شقيق ماكسو أوكسنبلوت. جميل، إذن نستطيع أن نبدأ، ثم فكَّر صاحبُ «الدب» وقال إنه يعتقد أنَّ دوفو ماني بالذات له الحقُّ في الكلام، فهُمْ يحكمون وفقًا لقواعد الديمقراطية. ليس لديه ما يقوله على الإطلاق، قال ماني، وهو فلَّاحٌ نحيلٌ مقوَّس الظَّهر قليلًا، بل حتى عندما وقَفَ كان مائلَ القامة، إنَّه — مثل كل سكان القرية — بحاجةٍ إلى المال، ليس غبيًّا حتى لا يُدرك ذلك، حتى إذا كلَّفه الأمر حياته، وعلى كلٍّ فالحياةُ لم تعُدْ تعرف طَعْم الفرحة منذ زمنٍ طويل، عليهم بتنفيذ الأمر، أفضلُ شيءٍ أن ينفِّذوا اقتراح هيرمنلي تسوربروجن، الآن، على الفور. ثم جلس ماني.

واصَلَ الفلَّاحون احتساءَ «الأحمر» ولزموا الصمت. إنه يسحب ما قاله عن غراب البين، قال تسوربروجن، لقد تصرَّف ماني حسب الأصول، حسب الأصول تمامًا، والآن عليهم أن يختاروا مَن منهم يقتله بالمِعول خلف «الدب». عندئذٍ ارتفع صوتُ فتاةٍ عند الدَّرَج قائلةً إن فولت لاتشر يخبرهم أن عليهم أن يفعلوا ذلك في ليلة اكتمال القمر. إنها ماريانلي هنتركراخن، تقف على الدَّرَج كما ولدتْها أُمُّها، الجالسون أمامها يلتفتون مبهوتِين، ولكنها سرعان ما تختفي في الغرفة العُلوية. إنَّ لديه ابنةً مكتملةَ القَوام أيضًا، قال ميجو هاكر لكاتب القرية، ثم خلط أوراق اللعب. اخرس، ردَّ عليه كاتب القرية وهو يُشعل سيجارة «بريساجو»، ثم أضاف: إن ابنة ميجو كانت كذلك في الغرفة العلوية. راح سيمو يرتِّب أوراق اللعب في يديه قائلًا إن عروسه لم تعُدْ تريد مُطلقًا مغادرةَ غرفة فاوتي لوخر، هذا هو اسمه الحقيقي، وليس لاتشر. ثم أضاف أن ما يحدث في القرية أصبح فجأةً يشبه قصص المجلات الألمانية التي يشتريها المرء من الأكشاك، ثم أضاف متمعِّنًا في ورق اللعب: بستوني. لا يمكن تنفيذ ذلك قبل اكتمال القمر. أمعَنَ صاحبُ «الدب» في التأمُّل والتفكير برويَّة،

وإلا سيكون لديهم ميتٌ، ولا يدفع لوخر فرنكًا واحدًا. يومٌ أسودُ هذا، أعليهم الانتظار حتى يُمسي القمرُ بدرًا؟ تساءل فلَّاحٌ عجوزٌ طاعنٌ في العمر، ضئيلُ البدن، خصلاتُ شَعْره شيباءُ، بلا لحيةٍ، ملامحُ وجهه حائرةٌ مضطربة، وكأنه تعدَّى المائة. لا يعرف، ردَّ صاحبُ «الدب». في البداية قال لوخر بعد عشرة أيام، والآن يقول عندما يكتمل القمر، غريب؛ البدر سيطلع يوم الأحد، وتحديدًا الأحد بعد التالي، بعد عشرة أيام بالضبط، قال الفلَّاح محتسيًا من شرابه «الأحمر»، إنهم يقامرون بأرواحهم. فاوتي لوخر يعرف متى سيطلع البدر، ليس هذا فحسب، بل أول بدر في العام الجديد؛ ولكنه هو أيضًا يعرف ذلك، ولن ينجح فاوتي في خداعه. ارتقى هيرمنلي تسوربروجن الدَّرَج بسرعة. إنه يعرف كذلك أن نوبي جايسجرازر «أبو العريف»، وأنَّه يظنُّ أنَّ الشيطان وحماته وراء كلِّ شيء، ولكنَّ كلَّ ذلك لا يعنيه مطلقًا. لن يأخذ فرنكًا من المال، أجاب العجوز، ولا فرنكًا واحدًا. «أحسن يا أبي»، صرَخَ لودي جايسجرازر — ابنه الذي شارف السبعين — في وجه الأب، عندئذٍ سيأخذ كلَّ شيء، وليذهب هو إلى الجحيم كما كان يتمنى أن يحدُث له، لابنه، ولحفيده. ومن المائدة التي جلَسَ إليها أعضاء العائلة الثمانية تصاعدتْ أصواتُهم كأنَّهم في كورال: سيأخذون كلَّ شيء. صمتٌ. ثم ردَّ العجوز على ابنه قائلًا إن عليه أولًا أن يلاحظ شيئًا. فما كان من الابن سوى الضحك، ثم قال إنه لن يلاحظ أيَّ شيء، بل على الوالد أن يخرس تمامًا، وإلا سيذهب إلى الحاكم في أوبرلوتيكوفن ويحكي له مَن هو أبُ الطفلَين غير الشرعيَّين المصابَين بالبله، اللذَين أنجبتْهما أخته، ومَن الذي أحبل ابنته الصغرى بابي؛ إذا كان هناك مذنبٌ عريقٌ في الذنب فهو نوبي، الفحل العجوز. بينما هم، إذا قتلوا ماني فإنهم يفعلون ذلك فقط لأنهم في أمسِّ الحاجة إلى المليون. هل يريد أحد أن يضيف شيئًا؟ تساءل صاحب «الدب» ماسحًا عرقه. «إذن»، قال ماني سائرًا إلى الباب وهو يشقُّ طريقه بين الفلَّاحين، «إذن، وداعًا». ثم خرج. صمتٌ. لا بد أن يقوم أحدٌ بحراسة ماني حتى لا يهرب، والأفضل أن يفعل ذلك اثنان يتبادلان الحراسة، قال ماكسو أوكسنبلوت. عليهم تنظيم ذلك، قال كاتب القرية.

ساد الصمت مرةً أخرى. على الدَّرَج العلوي تظهر فريدا عاريةً مثل ماريانلي، وتطلُب بأنفاسٍ متقطِّعة زجاجةَ عرق. على سيمو أن يُحضر بِتسي، يأمُر صاحب «الدب» ويجلس راضيًا أسفل الخِزانة الزجاجية التي تضمُّ الكأس الفضيَّ من نادي المصارعة الذي هجَرَ القرية منذ فترةٍ طويلة، ولذلك يُصارع آخرُ مصارعٍ في القرية، روفو أوكسنبلوت، في نادي المصارعة في فلوتنجن. غمغَمَ بينجو كوبلر وهو يحملق في فريدا: أليست هذه ابنته؟! ولكن سرعان ما ارتفع تصفيق الجميع عندما أعطى سيمو خطيبته العارية تمامًا زجاجة

الشنابس منحنيًا أمامها في تهذب. إن ما فعله سيمو هو للصالح العام. سارتْ فريدا متأرجِحةً إلى فوق. لم يصدُر صوتٌ عن أيِّ شخص، إلا من رس شتيرير — فلَّاح بدين بشاربٍ أحمرَ ويدَي جزَّار — الذي أعلَنَ فجأةً كاسرًا الصمت الذي عمَّ مرةً أخرى؛ أن الأمر لا بد أن يبدو كحادث. على ماني أن يجلس تحت شجرة تَنُّوب، ثم يُسقطوا الشجرة. «تحت شجرةِ زان»، قال كاتب القرية مقترِحًا، ثم أضاف بموضوعية، حسب الأصول. والأفضل أن يحدث ذلك تحت زانةِ بلوتلي. لقد وعدوا القسَّ منذ فترةٍ طويلة بعروقٍ خشبيةٍ للسَّقف. إذن لا بد أن يقوم أحدٌ بعملٍ تمهيديٍّ ويبدأ في نشْرِ زانةِ بلوتلي، وإلا انتظروا طويلًا قبل أن تسقط. عرَضَ روفو أوكسنبلوت أن يفعل ذلك مع أخيه ماكسو. ومَن الذي سينهالُ بالفأس على الشجرة؟ تساءل كوبلر. الكلُّ، أجاب صاحبُ «الدب»، ثم سأل عمَّن يؤيد اقتراحه، فرفعوا جميعهم الأيدي باستثناء جايسجرازر الأب. إذا ذهب نوبي إلى الشرطة، ولم يكُن صاحب «الدب» بحاجةٍ إلى مواصلة كلامه. إنَّه لا يمنع أحدًا من الذهاب إلى الجحيم، أجاب الفلَّاح العجوز. عندئذٍ أضاف صاحبُ «الدب»: لقد كاد ينسى أن يقول إنَّ عليهم ألَّا يدفنوا العجوز إيبجر قبل أن ينتهوا من الأمر، فالناس ينجذبون إلى الجنازات كما ينجذب الذباب إلى الزبالة الطازجة، وإيبجر له أقارب عديدون في فلوتنجن وأماكن أخرى. لا مشكلة، إنَّ الجثة متجمِّدة تمامًا، وداخل صندوقٍ مُغلَق بالمسامير حتى لا تهاجمها الذئاب، قال فريدو إيبجر. أعلَنَ صاحب «الدب» رغبته في إنهاء الجلسة، وعندئذٍ رأوا، لدهشتهم، ماني، الضحية، يقف على باب المطعم، لقد فكَّر في الأمر مرةً أخرى، قال وهو يتمخَّط في منديلٍ كبير مخطَّط بالأحمر. حملقُوا فيه جميعًا مرعوبين، إنَّ عليهم أن يقتلوه حالًا، فكَّر صاحبُ «الدب» كالمشلول. طوى ماني المنديل بعناية، ووقَفَ مائلًا في إطار الباب، نحيفًا ومحني الظَّهر قليلًا. البدر سيطلع الأحد بعد القادم، هكذا قال نوبي، وفي اليوم الذي يسبقه، يوم السبت، سيقام المعرض الزراعي في لوتيكوفن العليا، يريد أن يذهب إليه، وهناك ربما ينصح ابنَيه، يوجو وألكس، بما يستطيعان شراءه عندما يحصلان على المال الوفير، كان دائمًا يفكر أن حياته ستختلف تمامًا لو كان بنى زريبةً جديدة واشترى جرَّارًا جديدًا. ثم اعتصم ماني بالصمت محرجًا. ضحِكَ جايسجرازر الابن ضحكةً صبيانيةً عصبية، بينما أفرغَ هيرمنلي تسوربروجن كأس الشنابس، لا يدري، لا يدري، قال مغمغِمًا، غير أن كاتب القرية وصاحب «الدب» أفرغا كأسَيهما أيضًا، وقال الأخير مقرِّرًا: «فلنذهب جميعًا يوم السبت إلى لوتيكوفن العليا، قبل طلوع البدر يوم الأحد.»

وذهبوا. في غبش الفَجر كانوا يشقُّون طريقهم عبْرَ الثلوج هابطين الشارع في اتجاه قريةِ فلوتنجن عند نهاية الوادي. ماني دوفو بين صاحب «الدب»، سيبو شلاج إنهاوفن، وروفو أوكسنبلوت الذي احتلَّ المركز الثالث في ذيل قائمة المتصارِعين في آخر مسابقةٍ أُقيمت في برينتس، ثم استقلُّوا القطار المتَّجه إلى لوتيكوفن العليا. ماني ما زال محاصَرًا، لن يَدَعوه يهرب، فغدًا يكتمل القمر. خلال قاعاتِ المعرض الزراعي قَادَهم رجلٌ قصير بشاربٍ صغير وصلعةٍ ورديَّة اللون، يرتدي بدلةً اسكتلندية، «بنو فون لافريجن» قال معرِّفًا بنَفْسه، بألمانيةٍ فصيحة، وبكعبَين مضمومَين، «سويسري، أعيش خارج البلاد». قادهم لافريجن في البداية عبْرَ المروج، حيث رأَوا بقرةً من البلاستيك تقف على قاعدةٍ مرمرية من البلاستيك، وأمامها كانت فرقةٌ ريفية تعزف، ثم قادهم إلى الحظائر النموذجية التي ترعى فيها أبقارٌ حقيقية. أشار فون لافريجن لأهالي فلوتنباخ كي يتحلَّقوا حوله. قال شارحًا إنَّ الحظائر الحديثة تضمُّ أنواعًا مختلفة لتربيةِ العجول. هناك حظائر تُربط فيها العجول، وأخرى تتمتع فيها العجول بحريَّةِ الحركة، وثالثة في الهواء الطَّلق. عند بناء الحظائر الجديدة ينبغي مراعاة إمكانية استخدامها لأنواعٍ أخرى من المواشي أيضًا دون إجراء تغييراتٍ مكلِّفة في البناء. «هذا الرَّجُل، لافريجن، يصيب بالصداع»، قال هيرمنلي تسوربروجن. وبذلك — قال فون لافريجن مواصِلًا شرْحَه ومعدِّلًا من وضْعِ ربطة عنقه — يستطيع المُزارع أن يتكيَّف مع حالة السوق وصناعة اللحوم. الحظائر التي تُربط فيها المواشي هي الأكثر شيوعًا في أوروبا. في تلك الحظائر تقف المواشي المربوطة في صفٍّ واحد أو في عِدَّة صفوفٍ رأسية بجانب بعضها البعض، وكي تُلائِم تلك الحظائر الغرَضَ؛ تكون متَّسعةً ورحْبَة حتى يُمكن للمُزارِع أن يقود سيارته خلالها لإفراغ العلف الجافِّ أو الأخضر في أجران العلف. «إفراغ»، قال ماني متحمِّسًا، «لا بد أن نشتري سيارةً مثل هذه أيضًا». بصوتٍ أقرب للفحيح طلَبَ منه ابنه يوجو الواقف خلفه أن يلزم الهدوء. إزالةُ الروث يمكن أن تتمَّ يدويًّا أو آليًّا، أضاف فون لافريجن شارحًا. أمَّا الحظائر التي تمشي فيها البهائم بحريَّة فتكاليف بنائها أقلُّ. في تلك الحظائر تقِفُ الماشية بدون أن تُربط في حظيرةٍ كبيرة أو أكثر. إذا أَخرجتْ إحدى الأبقار شيئًا فإن هذا السويسري التافه الذي يعيش في الخارج سيُدفن تحت روثها، عقَّب ميجو هاكر. السِّباخ يتم جمعه آليًّا في الربيع أو الخريف، قال فون لافريجن مؤكِّدًا، ثم راح يتمخَّط في منديلٍ حريريٍّ أبيض؛ العمل اليومي قليلٌ جدًّا كما ترون، ليس على المُربِّي سوى الرش، أمَّا الحَلْب فيتمُّ في مكانٍ

آخر مخصَّص لذلك، وهناك تحصل الأبقار الحلوب حسب احتياجاتها على العلف المقوِّي المناسب.

«العلف المقوِّي، يا ألكس»، قال ماني، «لا بد أن تشتروا هذا العلف أيضًا»، قال ماني وهو يسير ببطءٍ خلف السويسري المقيم في الخارج، محشورًا بين صاحب «الدب» وروفو أوكسنبلوت.

في أغلب الأحيان تُستخدم تلك الحظائر لتسمين المواشي، قال فون لافريجن وهم يدخلون حظيرةً جديدة. تصاعَدَ خُوار بقرةٍ. ثم سمِعُوا خريرًا خافتًا لشيءٍ يتساقط. أكثرُ أنواع الحظائر سهولةً هي الحظائر المُقامَة في الهواء الطَّلق، وهي حظيرةٌ تنفتح ناحية الجانب الأكثر مناسبةً للمناخ، وهو ما يُتيح للمواشي حرية الحركة بصورةٍ دائمة. يسمعون مرةً ثانية خُوارًا وخريرًا. في الناحية الأخرى كانت هناك حظيرةٌ مُغلَقة. قُسِمت المساحة التي تقِفُ فيها المواشي إلى مساحةٍ طوليةٍ أمامية، ثم مساحةٍ في المنتصف، ومساحةٍ قصيرة في الخلف. «اتبعوني من فضلكم». مرةً أخرى سمِعُوا خُوارًا وخريرًا. «في كلِّ مرةٍ ينفذ بجلده»، قال ماكسو أوكسنبلوت. يتواصل الشرح في حظيرةٍ جديدة. ولأن عملية إزالة الرَّوث أصبحت ميكانيكية، يُفضَّل في الحظائر الجديدة تخصيص مساحاتٍ صغيرةٍ للمواشي، المساحة هنا أقلُّ من طول الماشية بعشرة إلى عشرين سنتيمترًا، وهناك مجرًى للرَّوث ملحَقٌ بأماكن الوقوف، هذا المجرى منخفضٌ قليلًا، ويُنظَّف باستخدام مجاريف تُحرَّك بواسطة رافعة أو جرَّارٍ صغير. «رائع»، هتَفَ ماني مندهِشًا. عند إفراغ الرَّوث باستخدام المجاريف، واصَلَ فون لافريجن شارحًا، فإنَّ الرَّوث المخلوط، أي المختلِط بالتبن وبقايا العلف، ينتقل على دفعاتٍ إلى سلسلةٍ متحرِّكةٍ تنقل السِّباخ إلى كومة السِّماد. في السنوات الأخيرة اكتسبتْ طريقةُ إفراغِ الروث بالتعويم أهميةً متزايدة لأنها تتطلَّب جهدًا أقل. بهذه الطريقة يتمُّ الاستغناء كليةً عن نثر التبن في الحظائر، وتُركَّب شبكةٌ حديدية في أماكن تسمين الماشية، «اقتربُوا من فضلكم»، وتحت الشبكة هناك مجرًى للرَّوث ينحدر انحدارًا خفيفًا، ويصبُّ في خزَّانٍ يُفرَغ في حفرة السِّباخ خارج الحظيرة. لقد آنَ الأوان لكي نُلقي بهذا الثرثار في حفرة السِّباخ، يقترح هيرمنلي تسوربروجن بلهجته الجبلية، إلا أنَّ فون لافريجن لا يفهمه. ينساب خليطُ البراز والبول ويصبُّ في حفرة السباخ، يُضيف شارحًا، وبالتالي فإنَّ البهائم لا ترقد فوق التبن، بل على الأرضيَّة الجيدةِ العزل التي تكون إمَّا من مادة اصطناعيةٍ أو من الخشب، ومن الممكن أن تكون من الحَجَر أيضًا. وبذلك تُصبح المحافظة على نظافة الحظائر أمرًا غايةً في السهولة، كما تسهُل مكافحةُ مسبِّبات

الأمراض. البهائم تقِفُ في مكانٍ أكثر نظافة، وبالتالي فإنَّ الحَلْب يتمُّ في ظروفٍ أكثرَ صحيَّة. إنَّه يثرثر على الدوام عن البقر، رغم أنه لا يستطيع التفرقة بين العنزة والعجل، يقول هيجو هنتركراخن مشعِلًا سيجارًا. وبجانب ميكنة الحظيرة، يواصل فون لافريجن إلقاءَ محاضراته، يحتلُّ نقْلُ السِّماد من الحظيرة أهميةً قُصوى؛ لأن إفراغ الرَّوث باليد عمليةٌ شاقَّة جدًّا، وليس هناك فلَّاح يرغب في القيام بها. السِّباخ الذي يسيل في الحفرة بطريقةٍ ذاتية، يختلط في الخزَّان اختلاطًا قويًّا، فتهبط الأجزاء الثقيلة إلى أسفل، بينما تسبح الأشياء الخفيفة على السطح، مكوِّنةً ما يُسمَّى بالغِطاء العائم، ولذلك لا بد من خلْطِ السِّباخ آليًّا، إمَّا باستخدام الهواء المضغوط أو هيدروليكيًّا.

«كلُّ هذا جميلٌ ورائع»، يقول ماني المحشور بين صاحب «الدب» وأوكسنبلوت، ولكنه يريد الآن أن يرى الجرَّارات الزراعية، هذا هو أهمُّ شيء، حِلْم حياته، فلن يستطيع أن يقرِّر ما إذا كانوا سيحتاجون إلى زريبةٍ جديدة إلا إذا امتلكوا جرَّارًا. «تفضَّلوا معي إذن»، قال لافريجن، ثم سار بهم إلى قاعةِ عرْضِ الماكينات الزراعية مرورًا بالبقرة البلاستيكية والجوقة الموسيقية. من مكانٍ ما تصاعدتْ أصواتُ كورال الرجال. الجرَّار أهمُّ ماكينةٍ في المزارع الحديثة، بدأ فون لافريجن محاضرةً جديدة، ماسحًا عرَقَ جبينه، فبجانب وظيفته كآلةِ سحْبٍ، يُستخدم الجرَّار كمصدرِ طاقةٍ للآلات الموصولة به. لو كنتُ أستطيع أن أفهَمَ اللغة الفصحى أفضل من ذلك، قال رس شتيرر متذمِّرًا. لماذا أرسلوا لهم هذا الأزعرَ الأجنبي؟ إنَّه لم يسمع أبدًا عن سويسري اسمه «فون لافريجن»، زعَقَ لودي جايسجرازر زعيقًا عاليًا وبلا حَرَج، بينما راح جايسجرازر الأب — الذي أتى معهم — يشكو من الانحدار الذي تعيشه سويسرا. غير أنَّ فون لافريجن واصَلَ شرْحَه قائلًا إنَّ الجرَّار به ما يُسمَّى بموجات المنبع، ومنها يتمُّ الحصول على الطاقة، والجرَّار الحديث، أضاف فون لافريجن، به ثلاثةُ مصادر للطاقة: اثنان في نهاية صندوق التُّروس أسفلَ ذراعِ التوصيل، وباستخدام عمود الكردان يمكن سحب الطاقة من الجرَّار إلى ماكينةٍ موصولةٍ به، أمَّا المنبع الثالث فيبرز أمام صندوق التروس، وهو مخصَّص لتشغيل ماكينات الحشِّ والحصد. يريد أن يرى ماكينةً مثل هذه، يطلب ماني، فيما روفو وصاحبُ «الدب» يُحكمان الحصار عليه وقد تملَّكهما الخوف، ثم يتفرجون جميعًا على الماكينات الزراعية التي يمكن توصيلها بالجرَّار، كي يتمَّ سحْبُ الروافع والمحاريث وكلِّ الآلات الزراعية الأخرى التي تستخدم في المُنحدَرات. لا بد أن يشتروا شيئًا كهذا، يقول ماني لولدَيه يوجو وألكس، وعندئذٍ يتركون فون لافريجن ويغادرون المعرض. وهم في طريقهم إلى محطة قطارات لوتيكوفن العليا، مرُّوا بحانة «الراهب» حيث

كانت جمعية الأزياء الشعبية تحتفل بمرور مائةِ عامٍ على تأسيسها. واصَلُوا السَّير مارِّين بـ «الاتحاد»، ثم «الأسد»، ثم «أيجر»، و«العذراء»، و«بلومليسالب»، و«الدوَّامة المجنونة»، ثم إلى «الرَّجُل المتوحِّش». كلُّ الحانات مكتظَّة، لذا تابعوا طريقهم إلى المحطة، ثم وصلوا مرةً أخرى إلى «الراهب». كانت زوجةُ رئيس الجمعية، كريستينا إبليج، تقف مستقيمةَ القامة في الشُّرفة، فأخذتْ تنادي عليهم تجاه «شارع المحطة».

ها هو رس شتيرر يأتي، ولم تمرَّ لحظاتٌ حتى كانوا في القاعة الكبيرة يشاركون في الرقص. أخَذَ سيمو وميجو هاكر وهيرمنلي تسوربروجن يتقافزون كالحيوانات البريَّة، وأيضًا رس شتيرر. أمَّا ماني — الذي جلَسَ محشورًا خلْفَ إحدى الموائد بين صاحب «الدب» وروفو، متكئًا معهم إلى حائطٍ خشبي — فلَمْ يكُن بمقدوره أن يتزحزح من مكانه. أمامه على المائدة لترٌ من «الأحمر». سيطَرَ التعجُّب على ماني لأنَّ شتيرر البدين ما زال قادرًا على الرقص بهذا الشكل. وعندما اقتربت كريستينا من الثلاثة سائلةً عمَّا يجعلهم يجلسون متخشِّبين هكذا بجوار الحائط، قال صاحب «الدب» إنَّ حالة ماني ليست على ما يُرام، هذا هو كلُّ ما في الأمر، وهُمْ جميعًا أصدقاء، «في صِحَّتك يا دوفو»، قال شاربًا نخْبَه. كيف حال كلاري؟ سألتْ كريستينا؛ فأجاب ماني أنَّ حالتها طيِّبة. في تلك اللحظات جاء من الـ «أيجر» بعض الأشخاص الذين يعيشون في فلوتنجن السُّفلى، ومعهم ابن إيمي هنتركراخن غير الشرعي الذي يعيش في لوتيكوفن الوسطى، ثم انضمُّوا إليهم في «الراهب». كانوا في حالةِ سُكرٍ بَيِّن، هناك شِجار دمويٌّ وتقتيلٌ في جمعية أزياء لوتيكوفن العليا، ثم اقتربت جماعةٌ من لوتيكوفن العليا قادمين من «بلومليسالب»، وازداد الصِّراع ضراوةً. قذَفَ أحدهم برميلَ بيرة على رأس روفو أوكسنبلوت، لكنَّه لم يحرِّك ساكنًا، بل لم يمسح حتى الدمَ المُنساب من جَبينه. المهمُّ ألَّا تجيء الشُّرطة، قال في سِرِّه، المهمُّ ألَّا تجيء الشرطة. ولكن ما حدَثَ كان أسوأ. من القاعة العلوية، حيث تناولوا طعامهم، اقترَبَ ناحيتهم إتي، مستشار البلدية الذي يتحدَّر من لوتيكوفن العليا، واسمه بالكامل إتي هيردو. في صحبته كان مستشارُ الحكومة شافروت ورئيس البلدية إميل موترلي. تخشَّبَ أهالي مناطق لوتيكوفن السفلى والوسطى والعليا، ما أعظمَ الشرفَ الذي نالوه! عليهم مواصلة التضارُب والتقاتُل، يقول مستشار البلدية. ضحكات. «إتي السوبرمان»، صرَخَ أحدهم، وفي أعقاب ذلك جلَسَ الجميع، واستمرَّ احتفال الأزياء الشعبية. لم يختَرْ مستشارُ البلدية ومستشار الحكومة ورئيس البلدية مكانًا إلا أمام صاحب «الدب» وروفو وبينهما ماني. قام صاحب «الراهب» على خدمة الزبائن بنَفْسه، فطلَبَ ضيوفُ الشرف الثلاثة زجاجةَ «ديزاليه»، ثم توجَّه مستشار البلدية — وهو

فلَّاحٌ ضخمُ البنية لم يبلغ، كما قد يعتقد المرء، الأربعين بعدُ، إلا أنَّه في الحقيقة من أنجحِ المحامين في البلاد، كما أنَّه أمهر السياسيين في المقاطعة — إلى الثلاثة المتَّكئين إلى الحائط سائلًا إياهم مِن أين هم، فهُمْ بالتأكيد ليسوا من لوتيكوفن العليا. هذا هو صاحب «الدب» من وادي فلوتنباخ، يردُّ موتيرلي مشيرًا إلى شلاج إنهاوفن، ولأول مرةٍ يراه مُغلقَ الفم، فهو عادةَ يتحدث بملء فمه.

هكذا إذن، الرجال من وادي فلوتنباخ، أووووه، لقد سمِعَ مَن يقول في إدارته إنَّ سكَّان الوادي لا يريدون أن ينظِّفوا الطريق من الجليد، عيني يا عيني، منذ مُدةٍ طويلة وهو لم يسمع عن موقفٍ عنيدٍ كهذا. ليس الذنْبُ ذنبه، أجاب صاحب «الدب» في النهاية وقد سيطَرَ عليه الخوفُ من أن يتحدَّث ماني. إنهم ليسوا بهذا الغباء، سيارة البريد تتبع هيئة البريد، ولذلك على السيد مستشار الحكومة أن يدفع تكاليف كاسحةِ الجليد. ولكنَّ الطريقَ لا تحتاجه إداراتُه فحسب، بل البلدية والقرية كلُّها، ردَّ المستشار. إنَّ الأمر سيَّان لديهم، يقول صاحب «الدب»، فقهقَهَ المستشار قائلًا: إذن، عليهم أن يبقَوا طويلًا مغروزين في الثلوج؛ فهو لن ينظِّف الطريق من الجليد على حساب المقاطَعة من أجل جمال عيونهم. ثم فجأةً تملَّكه الغضب فقال: ولكنه سيأمر بكسْحِ الجليد، وسيرسل إليهم الفاتورة ومعها الغرامة المالية. ضحِكَ مستشار البلدية إتي، وصبَّ الخمر في كئُوس الرجال الثلاثة من فلوتنباخ، طالبًا زجاجةَ «ديزاليه» أخرى. لو كان في مكان شافروت، فإنَّه لن يدخل — وهو الاشتراكي — مع الفلَّاحين في نِزاع، إذا كانوا لا يريدون كاسحةَ جليد، فلْيَدَعهم في حالهم. وفي الحقيقة، لماذا سيحتاج أهالي فلوتنباخ إلى كاسحة؟ إنهم فلَّاحون أُصلاء من الجبال، ما زال واديهم كما كان سابقًا، والحمد لله، بينما عربات التِّلِفريك هنا في لوتيكوفن العليا تنقل الناس من تلٍّ إلى آخر، بل إنَّ إميل موترلي، الذي يجلس بجانبه، يريد أن يفرض رأيه، ويُركِّب مِصعَدًا في أودهورن للوصول إلى ذِروة الجبل؛ لأنَّ حالتهم زفت، ليس هذا مستغرَبًا، وهو يدَّعي أنَّ آلاف السُّياح سيصعدون إلى الجبل برُفقة المرشِدين السِّياحيِّين، وسيسقط بالعشرات أولئك الذين يحاولون الصعود بمفردهم، فاعتلاء قمَّة جبل أودهورن أصبحَ مُوضة. لماذا أضحى هردو إتي فجأةً معارِضًا للتقدُّم؟ تساءَلَ رئيسُ البلدية موترلي مستغرِبًا. لستُ معارِضًا، قال مستشار البلدية، ولكنه بدأ يشمئز من كَونِ الناس لم يعُدْ في رُءُوسهم سوى المال، وأنَّ الإدارة الفيدرالية لا تفكِّر إلا في المال والترف والإجازات والأشياء القذِرة. إنَّ ما تكسبه المُومِس شيءٌ لا يصدِّقه عقل، أكثرُ من راتبِ مدرِّس ثانوي؛ ولكن إذا أراد فلَّاحون بُسطاء من الجبال — كهؤلاء الثلاثة — ألَّا يشاركوا في الطَّواف حول العِجل

الذهبي والمحافظة على عاداتهم البسيطة النظيفة وعلى جمال الوادي — وهل هناك ما هو أكثر جلالًا وسموًّا من قريةٍ تغطِّيها الثلوج؟ — عندئذٍ تأتي الحكومة بسرعةٍ وتقمَعُهم. ولكنْ، عليهم الآن الذهاب إلى أهالي لوتيكوفن السفلى، وإلا سالَ الدمُ أنهارًا. ينهض الثلاثة ويودِّعون الجالسين؛ فيشعُر صاحبُ «الدب» بانزياحِ الهمِّ من صدره، لدرجةِ أنَّه يطلُب زجاجة «ديزليه» أخرى، ثم زجاجتَين، ثم قهوةً وشنابس، قائلًا إنَّ الطلبات كلَّها على حسابه.

عندما عادوا بقطار الفَجر من لوتيكوفن العليا إلى قريتهم، كان الصُّبح قد نشَرَ ضياءه. وبينما هم يمرُّون على الكنيسة ومقرِّ القسِّ، صاعدين الشارعَ الوحيد الذي يخلو من الجليد في القرية، فُوجِئوا بالقسِّ يقِفُ في مواجهتهم. أهكذا إذن، أيها المتهرِّبون، قال القسُّ لأنَّهم كانوا يتملَّصون من دفْعِ نصيبهم في تكاليف كسْحِ الجليد، والآن عليه أن يسير على قدمَيه إليهم حتى يُلقي عِظَته الشهرية. فأجاب صاحبُ «الدب»، ولكنَّهم — في المقابل — سيقطعون الليلة شجرةَ الزَّان في بلوتلي لاستخدام خشبها في سقف الكنيسة. أخيرًا يقومون بعملٍ مسيحي، قال القسُّ متهلِّل الأسارير، وهو ينوي أن يردَّ لهم جميلهم، إنَّه ينوي اليوم أن ينهض بأعبائه الرعوية على خير وجه، ولهذا سيزور كلَّ عائلة، يريد أن يستمع إلى همومهم وشكاواهم، كما أنَّه يريد أن يرى أحوال الفتيات اللائي تناولن الأسرار المقدَّسة على يدَيه لأول مرة، إنيلي شلاج إنهاوفن وإيزلي أوكسنبلوت وتسوزلي هاكر وماريانلي هنتركراخن، تلك الفتيات كنَّ فيما مضى يتميَّزنَ بالبهجة والورع، كما أنَّه يريد أن يتناوَلَ طعامًا جيدًا في مطعم «الدب»، صحن «بيرن»، وفي المساء بيضًا مقليًّا وبطاطس «روستي»، لديه وقت، فاليوم بدر، وهو سعيدٌ بأنَّه سيتجوَّل مرةً أخرى تحت أشعته الرقيقة هابطًا الوادي.

حاد الفلَّاحون المتحلِّقون حول القسِّ من «شارع القرية» إلى طريق «وادي فلوتنباخ» الذي ما زالت الثلوج الكثيفة تغطِّيه. بجانب صاحبِ «الدب» كان القسُّ يجرُّ قدمَيه في الثلوج، وبين صاحب «الدب» وأوكسنبلوت سار ماني منطويًا على نَفْسه وغارقًا في أفكاره كأنَّه مُعتقَل. إنَّه، في الحقيقة، لا يفهم سرَّ ارتياب الجميع في أمره، إنَّه موافق؛ أمَّا القسُّ فرَاحَ يفكِّر في حُسْن حظِّه هذا الصباح؛ لأنَّ هذه القرى تكون في المعتاد صليبًا ثقيلًا على كاهل القسِّ، مثل جبل الجلجثة بالنسبة للمسيح، إنَّ هؤلاء الناس بدائيون للغاية، ولكن الآن، من الممكن اكتساب بعض الشعبية، للأسف الشديد ما زال المُنظِّر اللاهوتي فوندربورن يفتخر بأنَّه كان يومًا قسًّا محبوبًا في أوميسفيل. في أوميسفيل، في هذه القرية

النائية المتزمِّتة تحديدًا، والآن يعِظُ فوندربورن داعيًا إلى علم لاهُوتٍ بدون إله. ولكنْ على القسِّ الذي يَخلُفه أن يتمتَّع بالشعبية، ومن الأفضل أن يكون راعيَ كنيسةٍ في قريةٍ جبلية، هذا هو الشرط الأساسي. يقتربون الآن من الغابة، بينما راح صاحبُ «الدب» يفكِّر فيما ينبغي فِعْله مع القسِّ، هذه العِظَة الملعونة، ثم الزيارات المنزلية، إذا فتَحَ أحدُهُم فمَهُ بكلمةٍ ضاعت الملايين، دون رَجْعة، بينما كان ميجو هاكر يفكِّر في أن يتخلَّص من القسِّ بإلقائه ببساطةٍ في الترعة؛ ترعة فلوتن، عندئذٍ سيخرس الآخرون.

كانت أشعَّة الشمس تنفذ عبْرَ غصون أشجار التَّنُّوب المغطَّاة بالثلوج، وكان شعورٌ طاغٍ بالسعادة يملأ جوانح القسِّ. كتابه «البهجة كأساس» ظهَرَ حديثًا في أربعة أجزاء، وهو بالفعل «خبطة» موفَّقة في علم الإلهيات، هكذا أدرَكَ الآن، إنَّ الألفية الثالثة على الأبواب، كما كتَبَ نيدرهاور في صحيفة «روندشاو»، تحيَّة احترامٍ لنيدرهاور، ولكنَّ المشكلة، كما يقول بارث، في كتابه عن بلوخ، وكلاهما — إذا أخذنا في الاعتبار أعمال سوله سولترمان وجلويبريش — تتغذَّى روافدهما من هيجل. إن المشكلة هي آخرُ المهام التي يواجهها علمُ اللاهُوت في القرن العشرين، وهو — قس الكنيسة الجبلية الصغيرة في فلوتنجن — قام بحلِّ هذه المشكلة، من المستحيل أن يتجاوَزَه الآن فوندربورن. هل هناك، أصلًا، إلهٌ مُحبٌّ؟ تساءَلَ ماني فجأةً وظلَّ واقفًا. توقَّف روفو أوكسنبلوت، وتوقَّف القسُّ. صاحب «الدب» وحده واصَلَ سَيْره؛ لأنَّه كان مستغرِقًا في التفكير — وكأنَّه كان يعلم أفكار ميجو هاكر — ماذا يحدُث لو ألقَوا بالقسِّ من عَلٍ، بإمكانهم أن يقولوا عندئذٍ إنَّ قدَمَه انزلقتْ؛ غير أنَّ نظرةً إلى الخلف — إذ إنه وجد نَفْسه فجأةً يغوص بقدمَيه في الثلوج — أوضحتْ له أن القسَّ، وقد هاله أن يرى ذلك، يقِفُ بجانب ماني بعد أن زلزله السؤال: إنَّ نجمَ القرن العشرين يوشك على الأفول وما زال الفلَّاحون لا يفقهون شيئًا في اللاهُوت على الإطلاق، بمرارةٍ يكتشف ذلك، وهو الذي يريد أن يكتسب شعبيةً عند أهالي هذه المنطقة! يقترب الفلَّاحون ويتلاصقون حول القسِّ، سيتكلم ماني، هكذا يشعُرون جميعًا بالغريزة، وحتى إذا كانوا بحاجةٍ إلى حوالي ساعة حتى يصِلُوا قريتهم، لا بد من قطْعِ الطريق الآن على القسِّ، حتى لا يعرف المزيد. تبرُق عيونهم. غير أنَّ القسَّ يبدأ في الكلام، أكثر غضبًا ممَّا يريد: «أيها الفلَّاح»، يقول القسُّ — سواءٌ أكان اسمه لوخر أو أوكسنبلوت أو أيَّ اسمٍ آخر — ومَن يستطيع أن يحفظ هذه الأسماء التي تشبه أبطال الروايات الروسية؟! — هل يوجِّه له بجدٍّ هذا السؤال الغبي؟ «الرب» — هذه الكلمة لم يعُد القسُّ يستطيع سماعها. هل عليه أن يردِّد الأسطورة التي تقول إن رجلًا عجوزًا بلحيةٍ بيضاءَ يجلس على ذروة

جبلٍ «أيجر» أو «فترهورن» أو «بلومليسالب»، على قمَّة «فينسترارهورن» أو «أودهورن»، ومِن هناك يحكم العالم؟ المهمُّ هو البهجة، أيها الفلَّاح، إذا كان الإنسان يشعُر بها؛ فهو ليس بحاجةٍ إلى أن يسأل كما يسأل الأطفال. إنهم جاءُوا من المحطة، فرحين، سعداء، بعد أن رقصوا في لوتيكوفن العليا، هذا شيءٌ واضح، وقبلها زارُوا المعرض الزراعي وكلُّهم بهجةٌ وإعجاب، ولكنهم ما كادوا يرون قسيسهم حتى ضاعتْ منهم بهجتُهم؛ لأنه يذكِّرهم بأسئلةٍ معيَّنة، مثلًا: إذا كان هناك إله، وإذا كان المسيح حقًّا هو ابن الله، وهل قام من الأموات؟ وهل سيقومون هم من الأموات؟ هذه الأسئلة تثير اكتئابَ المرء، ولكن عندما يرى الإنسان شيئًا جميلًا بسيطًا، عِجلًا صغيرًا وُلِد لتوِّه، فتاةً حسناء، أو هذه الغابة الرائعة أو البدر في تمامه، عندئذ سيشعرون بالبهجة من جديد، وهكذا هو الحال بالنسبة للمسيحية، إنَّها البهجة ذاتها، ولأنَّها البهجة نَفْسها، فإنَّ كلَّ تلك الأسئلة المطروحة للنِّقاش تختفي ولا تُطرح مرةً أخرى، هذه الأسئلة تفقد معناها أمام البهجة.

وبينما راح القسُّ يواصل حديثه هذا عن البهجة كأساسٍ متين، يشعُر صاحب «الدب» بالبهجة؛ إذ خطرتْ على باله فجأةً فكرةٌ، فيظل واقفًا، إلى أن يمرَّ به الآخرون ويصِلَ ميجو هاكر الذي لا يزال عاقدًا النيَّة على إلقاء القسِّ في الترعة. «ميجو»، يناديه صاحبُ «الدب»، «القسُّ يثرثر ويثرثر»، وهكذا — لحُسنِ الحظِّ — لن تتاح لماني الفرصة كي يبوح بشيء، على ميجو أن يجري إلى القرية ويُخلي الكنيسة ولا يَدَع أحدًا يدخُلُها. انطلَقَ ميجو بمجردِ سماعه تلك الكلمات، فمرَقَ بجوار الفلَّاحين صاعدًا الوادي، أمَّا القسُّ — الذي ما زال مهمومًا بالبهجة — فلَمْ يلحظْ ذلك إطلاقًا. عندما وصلوا مشارفَ القرية يشكُر ماني القسَّ على شرحه، ثم يسير إلى داره بجوار مخزنِ غِلال أوكسنبلوت. تفرِّق الطُّرق بين الفلَّاحين الآخرين أيضًا، ويقف القسُّ وحده مع صاحب «الدب» أمام «الدب». لقد حان وقت الذهاب إلى الكنيسة، يقول القس، النساء والآنسات في انتظاره. إنه يتفهم عدم مجيء الرجال اليوم، غير أنَّه يتعجَّب من مرور إحدى الفتيات بسرعةٍ أمامهما داخلةً «الدب» دون أن تُلقي التحيَّة. أليستْ هذه تسوزلي هاكر؛ طفلته العزيزة التي ناولها الأسرار المقدَّسة؟ يتساءل القسُّ، متعجِّبًا غايةَ التعجُّب من أنَّها دخلت «الدب» بدلًا من أن تكون في الكنيسة. ولكن الآن، لقد حان وقتُ العِظَة، وهو يتشوَّق من الآن — بعد أن يقوم بالزيارات المنزلية الأولى — لتناوُلِ صحن «بيرن» عنده.

وهكذا يتوجَّه إلى الكنيسة الصغيرة التي تقع بين «الدب» ومزرعة شتيرر، وحيدةً على المنحدَر، إلا أنَّه يقِفُ مندهِشًا فورَ دخوله، الكنيسةُ خاوية، ليس إلا الآنسة كلاودينه تسبفل،

المعلمة، تجلس على الأرغن فوق المدخل، وهي أيضًا في غاية الاضطراب. ماذا حدَثَ؟ ولماذا لم يأتِ أحدٌ؟ يتساءَلُ القسُّ مُتلعثِمًا، ولماذا لم يدقَّ أحدٌ جرَسَ الكنيسة؟ (لم يلتفت إلى ذلك إلا الآن). طيب، إذن ... إذا كان يريد أن يعرف، قال صاحبُ «الدب» الواقف خلْفَ القسِّ بعد أن تبِعَه إلى الكنيسة، إنَّ الكنيسةَ خاليةٌ لأنَّ المصلِّين يئسوا منه. نعم، عندما صعدوا الوادي معًا، سأله ماني إذا كان هناك إله. وهو، السيد القس، أجاب قائلًا: ليس ذلك مُهمًّا، كلُّ ما عليه أن يفعله هو أن يفرح، ولكنَّ السكَّان هنا لا يريدون أن يسمعوا ما يعِظُ به السيد القسُّ منذ أن جاء إلى قريتهم، كلامه لا ينفعهم، إنَّهم يريدون ثانيةً ربَّهم، إلهَهُم الحبيب، المخلِص، يريدون القيامة. ثم أضاف صاحبُ «الدب»: ماذا عليه أن يفكِّر عندما تَحين ساعته الأخيرة؟ أو ماني، إذا قضى نحبه تحت شجرة تَنُّوب أثناء إسقاطها، أو تحت شجرةِ زان؟ إنَّهم، باختصار، يُطالِبون بعِظاتٍ أخرى، عِظات كلُّها تقْوَى، وإلا فإنَّهم سيتحوَّلون إلى الكاثوليكية، لأنَّ السيد القسَّ عاجزٌ عن إلقاء تلك العِظات، ولأنه لا يعتقد حتى في وجود الإله الحبيب. إنَّهم لا يريدونه قسًّا لكنيستهم هنا. الكنيسة — لهذه الأسباب — خاويةٌ. وهو ذاته، عمدة البلد، سيكتُب رسالةً بهذا المضمون إلى مجلس الكنائس.

أدار صاحب «الدب» ظَهْره للقسِّ وسار تجاه بوَّابة الكنيسة خارجًا إلى الثلوج. لوهلةٍ اعتقَدَ القسُّ أنَّه سيسقط مغشيًّا عليه، بسبب فودربورن، إنَّه يريد أن يتولَّى منصبه في الجامعة، وهو لن يحصل على كرسيِّه إلا إذا نال الشعبية كقسٍّ، مثلما فعَلَ فودربورن في أوميسفيل. للحظةٍ ظلَّ يتأرجح، ثم سأل كلاودينه تسبفل إذا كان من الممكن أن تساعده في ارتداء الزيِّ الكهنوتي، لأنَّ زيجريست — كما يبدو — ليستْ موجودة، وبعد أن ساعدتْه كلاودينه تسبفل وبعد أن ربطتْ حول عنقه الوشاح، صرَفَها القسُّ صاعدًا إلى المنبر، وفتَحَ الكتاب المقدَّس، ثم قلَّبَ في صفحاته، وبدأ عِظَته بصوتٍ أضحى فجأةً مبحوحًا: «سأقرأ من أعمال الرُّسل، الإصحاح الثالث والعشرين، آية ٢٦: كلوديوس ليسياس يهدي سلامًا إلى العزيز فيلكس الوالي. أيتها المقاعد العزيزة، أيتها المعمودية العزيزة، أيها الأرغن العزيز، أيتها النافذة العزيزة، أيتها الأسوار العزيزة، أيتها العروق الخشبية العزيزة، أيها السقف العزيز، أيتها الكنيسة العزيزة الخاوية. إن كلمات الكتاب المقدَّس التي استمعتم إليها، هي بداية رسالة. المرسِل هو كلوديوس ليسياس، وفيلكس الوالي هو مستلم الرسالة، والسلام والبهجة هي التحية. إذا شرحت لكِ الآن من هو كلوديوس ليسياس، ومَن فيلكس الوالي، فإنَّ كلوديوس ليسياس هذا، وفيلكس الوالي، أو حتى الرَّجُل الذي كُتبت الرسالة من أجله، أي الرسول بولس، كلُّ هذه الأسماء لا تعني لكِ — وبحقٍّ — أيَّ شيء؛ إذ كيف للخشب

والأسوار أن تُدرك مَن هم هؤلاء الأشخاص، ولكن — وكما يحدُث عادةً في الأحد الأخير من كلِّ شهر — إذا كان الفلَّاحون والفلَّاحات يجلسون عليكِ، أيتها المقاعد العزيزة، كَم سيتملَّكهم الفضول، لأنهم منذ الأزل، لا يهتمُّون في قُراهم الجبلية إلا بالأشياء الثانوية. ولكنَّ أهمَّ الأشياء، أهم من كلِّ ما هو زائل، ما يعيش في الماضي والحاضر وإلى أبد الآبِدين، ما لا يشعُر به الفلَّاحون والفلَّاحات، جوهر الجوهر؛ هذا ما تشعُرين به الآن أيتها الكنيسة الخاوية: السلام والبهجة. إنكِ تختبرين الآن هذه البهجة، البهجة الأزليَّة، تختبرينها بشكلٍ ملموس. لن تمتلئي اليوم بما يتصاعد من أولئك الفلَّاحين والفلَّاحات من إفرازاتٍ، وهو ما يحدُث عادةً، كما لن تشعُري أيتها المقاعد بثقلِ أبدانهم، ولن تُردِّدي أيتها الجدران شخيرَهم وترتيلَهم البائس الذي تجِدُ نَفْسكَ، أيها الأرغن، مجبَرًا على مصاحبته. لقد تحررتِ، أيتها الكنيسة الخالية، ولأنكِ متحرِّرة، تُدركين أيضًا — وأنتِ بخشبكِ وحجارتكِ ومعدنكِ وزجاجكِ لستِ إلا ترابًا — تُدركين كُنْه كاتب الرسالة، كلوديوس ليسياس، وسبب كتابته الرسالة، أعني بولس الرسول، والوالي مستلم الرسالة، إنَّهم كلَّهم أصبحوا ترابًا، وأنا أيضًا سأصبح في يومٍ ما ترابًا، مثلما سيغدو الفلَّاحون والفلَّاحات، بل إنَّهم الآن ترابٌ دون أن يعلموا. ولكن، لأنَّ الترابَ يفهم التراب، فإننا نتعرَّف كلُّنا على بعضنا البعض، مرآة في مرآة، ونعترف: السلام والبهجة إلى الوالي، والأمر سواءٌ، مَن هو الوالي المقصود أو ما اسمه، سواءٌ إذا كان اسمه فيلكس، كما يذكُر سِفر أعمال الرسل، أو الله، أو الكون، المهمُّ أنَّ التراب والخشب والحَجَر والدود والدواب والإنسان والأرض والشمس ونظام درب التَّبَّانة، المهمُّ أنَّها كلَّها تهلِّل فرحًا نحو اللاشيء: السلام والبهجة! ولهذا — أيتها الكنيسة الخالية — لأننا تراب، ترابٌ من تراب، وذرَّةُ ترابٍ خُلقتْ من ذرةِ ترابٍ لتعيش زمنًا محدودًا، عِدَّة سنوات، عدة شهور، عدة ساعات، بل عدة ثوانٍ أو حتى عدة جزيئات من واحدٍ على المليون من الذرَّة، بضع جزيئات من الثانية لا غير، حتى هذه الجزيئات تهلِّل فرحًا وابتهاجًا! ليس هناك أساسٌ لكلِّ هذه وتلك إلا أساسٌ واحد: البهجة؛ لأنَّ البهجة وحدها لا تُسأل، البهجة لا تحمل الهمَّ، والبهجة وحدها لا تمنح عزاءً؛ لأنَّ وحدها البهجة ليست بحاجةٍ إلى عزاء؛ فهي السابقة، البهجة تسبق كلَّ شيء. آمين.»

بهذه الكلمات أغلق قسُّ فلوتنجن الكتاب المقدَّس الضخم الثقيل محدِثًا دويًّا، وهبَطَ بجلالٍ من المنبر متوجِّهًا إلى غرفة الكهنة، وهناك فكَّ الوشاح، وخلَعَ الزيَّ الكهنوتي، ثم طواه، وعندما أراد الخروج من الغرفة وجَدَ نَفْسه يقِفُ أمام كلاودينه تسبقل. تقِفُ المعلمة وهي تتألَّق بعيونٍ متَّسعة، إنَّ القسَّ كان عظيمًا، قالت متلعثِمة، لقد استمعتُ إلى العِظة

كلها. حملَقَ القسُّ في كلاودينه تسبفل، وتملَّكه غضبٌ هائل وحنَقٌ عظيم تجاه العالَم كلِّه، تجاه فودربورن، وتجاه زوجته من عائلة رامس أير التي لا تفعل شيئًا يزيد من شعبيته، ومَن الذي يهتمُّ بالدورات التي تُقيمها للمتزوِّجين؟ يجتذب كلاودينه تسبفل إلى حِضنه، «سلامًا وبهجة»، ثم ينهال عليها تقبيلًا، بعد غدٍ ستكون زوجته في كونيجن مع دورتها للمتزوِّجين، يزأرُ بصوتٍ هائل، حتى إنَّ الصدى يتردَّد في الوادي: لقد أعطيتُهم ما يستحقُّون! ثم يعدو القسُّ، تاركًا خلفه كلاودينه تسبفل وهي تشعُر بسعادةٍ غامرة بعد أن قبَّلها، يمرُق أمام «الدب» هابطًا الوادي، دون أن يلتفتَ وراءه سوى مرةٍ واحدة عندما وصَلَ إلى غابة فلوتنباخ، فردَّد وهو يهزُّ قبضته: «سلامًا وبهجة». يبتسم صاحبُ «الدب» ابتسامةَ نصر، لقد تخلَّصوا من القسِّ، وعندما عاد إلى الحانة سأل سيمو عن الفتاة الموجودة الآن عند لوخر. فريدا مرةً أخرى، قال سيمو حانقًا. وماذا في ذلك؟ بصفتها ابنةَ كوبلر سترث الآن مبلغًا محترمًا، عليه ألَّا يكون غبيًّا، إيني أيضًا، وكلُّ النساء يضاجعن فاوتي. ثم أعطى سيمو زجاجةَ «بِتسي» قائلًا: «خُذ، اصعد بها إليه»، وعليه أيضًا أن يُحضر للشرطي أربع زجاجات «جزائري»، حتى لا يسبِّب لهم إزعاجًا هذه الليلة عندما يكتمل القمر، عندئذٍ سيمرُّ كلُّ شيء سريعًا، إنَّه يعتقد أنَّ الآخرين يفكِّرون تفكيرًا مشابِهًا، ولهذا فقط ظلُّوا في مزارعهم، بدلًا من الجلوس في حانته لتناول الطعام. إنَّهم كلَّهم مضطرِبون بعضَ الشيء.

أخيرًا انتصَفَ النهار، ثم اقترب العصر الذي لا يريد أن ينتهي. بدت السماء مثلَ جداريةٍ ضخمةٍ داكنة الزُّرقة، لا نسمة هواء، لا حركة، ليس إلا البرودة القارسة. ذات مرةٍ سمِعُوا جعجعةَ الرَّعد الآتية من أرض الجورجلين، حممٌ بركانية، ثم حوالي الخامسة أتى ماني من نواحي غابة فيلش، يرتدي ما يرتديه دومًا من ثياب، دون كُوفيةٍ أو طاقية، وعلى بُعد أمتارٍ يتبعه رس شتيرر وابنه شتوفو. أمام منزله وضَعَ ماني العصا مُستنِدةً على إطار الباب، ثم سار عبْرَ المطبخ إلى غرفة الجلوس حيث جلَسَ إلى المائدة يوجو وألكس، وبجوار النافذة وقفتْ زوجة ماني متطلِّعةً إلى الخارج تجاه غابة مانيرين، بينما جلَسَ شتيرر الأب في الخارج على دكَّة، أمَّا الابن فراح يتمشَّى خلْفَ المنزل. لقد تمشَّى قبل قليل، قال ماني، إلى شلَّال المياه، إنَّه متجمِّد تمامًا، وقبل دقائقَ غربت الشمس خلْفَ جبل تسولنجرات. «كبيرة جدًّا وحمراء». بعد يومٍ أو يومَين سيهطل الثلج ثانيةً، قال ألكس، بينما رأى يوجو أن السيد ماني كان عليه أن يرتدي مِعطفًا في هذا البرد، وإلا سيصاب ببردٍ مرةً أخرى. لماذا يناديه فجأةً بـ «السيد ماني»؟ يسأله الفلَّاح. لأنَّ فاوتي لوخر أبوه، أجاب يوجو. أهكذا، هذا هو

ما حكاه فاوتي ليوجو إذن، ردَّ ماني بلهجةٍ تقريرية موجِّهًا كلماتِه إلى زوجته الجالسة مُقابِلَه. لكنَّها لم تنطق بكلمة. نهَضَ يوجو، وهو فلَّاح فارعُ الطول، طيِّبٌ وبشوش في المعتاد، ثم قال غاضبًا إنَّه عندما حملتْ منه وأراد لوخر أن يأخُذَها معه إلى كندا؛ فإنَّ أمَّه، هذه النعجة، تزوجتْ ماني بمزرعته الصغيرة. لو كانت تزوجتْه، لكان يوجو يعيش اليوم في كندا مالكًا الملايين، بدلًا من بقائه هنا خادمًا لزوجِ أمِّه، لا يحصل إلا على ما يُقيم الأَوَد، ولا يستطيع حتى أن يتكفَّل بزوجة. سيحصلون الآن على مليون، أجاب ماني.

إنَّه يعترف بأنَّ الأوضاع في القرية كانت صعبةً، المنزل ومباني المزرعة تُشبه بالأحرى الأكواخ، ولكنَّ كلَّ شيءٍ سيتحسن، وسيكسبون أكثر بعد تحديث الزرائب وشراء الجرَّار، لن يتحسن وضعُ زوجته فقط، بل أيضًا حال يوجو وألكس سيتحسن، بل القرية كلها. لكنَّه لن يقتسم المليون مع ألكس، قال يوجو، إنَّها له، كما أنه لا يفكِّر مطلقًا في بناء زريبةٍ حديثة وشراءِ جرَّار، سيرحل إلى كندا بالمليون، وسيتحدَّث مع لوخر ليُعطيه حفنةً من الملايين. فهو أبوه في نهاية الأمر، وكلُّ الناس يقولون إنَّه يُشبهه. هذا صحيح، فتَحَ ألكس فمه أخيرًا، كلُّ هذه التجديدات الزراعية كلامٌ فارغ، ولكنَّه لن يستغني عن نصف المليون، إنَّه الآن في الثامنة والثلاثين، ويستطيع بنصف مليون أن يحيا في المدينة حياةً أفضل من حياته هنا. مَن يتحدَّث عن نصف مليون، أو مليون، أجاب ماني، العائلةُ كلُّها ستحصل على المليون، زوجتُه ستأخذ الثُّلث، وسيحصل كلٌّ من يوجو وألكس على ثلث مليون.

لن آخذ من النقود شيئًا، قالت الزوجة فجأةً، ثم دارتْ حول المائدة ونظرتْ في وجه زوجها. لقد أنهَكَها العمل طوال السنوات، ومع ذلك فهي تبدو أصغرَ كثيرًا من عمرها، رغم أن شَعرها أبيضُ كالثلج، ولكنَّها ما زالتْ فارعةَ القامة وفي صحةٍ جيدة. «آنذاك تزوجتُك يا ماني»، أضافت، «لأنَّك رجلٌ طيِّبٌ ومستقيم، ولأنَّك أردتَ أن تتزوَّجني رغم حَملي. كنتُ أعرف آنذاك أنَّه ليس بإمكاني الاعتماد على لوخر. وأنت ترى الآن، كم كنتُ محقَّةً في اعتقادي. إنَّه لم يرجع كي يثأر منك، كما قد تتوهَّم، لا، لقد سمَحَ لنَفْسه بأنْ يلعب بنا، نحن الفقراء، لأنَّه يحتقرنا، اليوم، وآنذاك. مصيرنا أيضًا يسلِّيه: أهالي القرية سيتشاجرون فيما بينهم، وأنت ترى شِجار ألكس ويوجو، فهناك عائلاتٌ لديها عددٌ كبير من الأطفال، كما هو الحال لدى جايسجرازر، وأخرى لا تتكوَّن إلا من فردَين، مثل شتيرر وزوجته. إنني أقول لك يا ماني، بعد أن يقتلوك، ستنقلب هذه القرية إلى جحيم، كلُّ واحدٍ سيحاول أن يهجم على الآخر، كالذئاب، لكنَّ أحدًا لن يجرُؤ على فِعْل شيء، خوفًا من أن يفتح الآخرون فمَهُم. ولكن، ما هذا الذي أقوله. أنت الذي ستموت، لستُ أنا. ولكن، لأنَّني

مُرغَمةٌ على أن أودِّعك إلى الأبد، فلا بد أن أقول لك يا ماني: لقد ظللتَ الإنسانَ الطيِّب المستقيم الذي تزوجتُه، ولن أبكي لأنَّهم سيُسقطون الزانة فوق رأسك، أنا فرحانةٌ لأنَّني لن أضحك على غبائك، لأنَّهم هم الحَمقى للغاية. كل هذه السنوات وأنت تعمل ليلَ نهار، كما عملنا كلُّنا، يوجو وألكس وأنا ربما أكثرَ من الآخرين، والآن يأتي هذا المتباهي من كندا ومعه الملايين، وماذا تفعل أنت؟ أنت تضحِّي بنَفْسك! لماذا؟ هل سينوبك شيء من المال؟ لو كان للأمر معنًى عند أهل القرية، لقبلناه. ولكن ليس للأمر أيُّ معنًى، وها هم كلُّهم يتصرَّفون كالعاهرات، وليس فقط البنات. في كلِّ يوم كان بإمكانك أن تُنقذ نَفْسك، فليس هناك مَن يعرف طُرُق القرية وشوارعها وحواريها مثلك. هل أخبرتَ الشرطي بما سيحدث؟ ولا حتى هذا فعلتَه، إنَّ صاحب «الدب» يعرف جيدًا لماذا يجب تكتُّم الأمر أمامه؛ لأنَّه لن يتوقَّف عندئذٍ عن ابتزازهم. وفي «الراهب» في لوتيكوفن السفلى، هل فتحتَ فمَك أمام مستشار البلدية ومستشار الحكومة أو عمدة القرية؟ لم تنطق بكلمة. لقد تجوَّلتم في أنحاء فلوتنجن، ولم تصرُخ قائلًا: «يا ناس، إنهم يريدون قتلي مقابل ١٤ مليونًا»، رغم أنَّهم كلَّهم كانوا سكرانين طينة، كان بإمكانك أن تهرُب ببساطة، الأمر كان في غاية السهولة، أيضًا لم تقُل للقسِّ كلمة. في الغابة كانت الفرصة قد فاتتْ؛ إذ كان بإمكانهم أن يرموا به في الترعة. ولماذا لم تدافع عن نَفْسك؟ سأقول لك: لأنَّك كنتَ دائمًا تحلُم بذلك، طوالَ عُمرك، أن تكون لديك زريبةٌ حديثة وجرَّار، ولأنَّك توهمتَ أن يوجو وألكس يريدان ذلك أيضًا. لهذا لم تدافع عن نَفْسك، والآن ها أنت ترى، لا أحد يريد زريبةً حديثة وجرَّارًا، لا ألكس ولا يوجو، ولا أحد في القرية. كلُّهم لا يريدون إلا المال. لا أحد يمكن أن يساعدك يا ماني دوفو.»

– «خلاص، يا امرأة»، قال ماني، «هذا هو ما حَدَث». في إطار الباب وقَفَ صاحبُ «الدب» قائلًا إنَّ الساعة قد حانتْ، ثم تحدَّثَ مع روفو أوكسنبلوت خلْفَه قائلًا إنَّ من الأفضل أن يظلَّ هنا. «مع السلامة»، قال ماني لزوجته التي لزمت الصمت. ثم سار الجمع — باستثناء روفو — مع ماني، مارِّين بـ «الدب»، ثم قصدوا الوادي مباشرةً، وهناك عبروا الترعة المتجمِّدة نحو غابةِ مانيرين. فوق جبل بالتسن هوبل رأَوا القمر يسير في اتجاه جبل أودهورن الذي لا يُرى إلا من غابة مانيرين، انتشَرَ ضياءُ القمر الساطع حتى كاد يُحيل الغابة نهارًا؛ صعدوا بمشقَّة طُرُق الغابة المغطَّاة بالثلوج، ووصلوا إلى منطقة بلوتلي التي تخلو من الأشجار باستثناء شجرة زانٍ واحدةٍ ضخمةٍ تنتصب في وسطها، زانةُ بلوتلي. تحلَّقَ الفلَّاحون حولها، وفي يدِ كلٍّ منهم بَلطةٌ كبيرةٌ طويلةُ الذراع، ومن فَمِهم تصاعدتْ

أنفاسهم كالبُخار. هل نشروا جزءًا من الزانة، تساءل صاحبُ «الدب»، فأجاب مكسو أوكسنبلوت أنَّهم قاموا بذلك عصرَ اليوم. «اجلس يا ماني»، قال صاحبُ «الدب». كوَّم ماني الثلوج في جانب الزانة التي يسطع البدر فوقها وجلَسَ مُعطيًا ظَهْره للزانة، وتحديدًا في المكان الذي نشروا جزءًا منه.

«فلْنبدأ»، قال صاحبُ «الدب»، وفي إثر ذلك شرَعَ كلٌّ من شريجو هاكر ونوبي جايسجرازر في الضرب بالمِعول على زانة بلوتلي، غير أنَّ المِعول ارتدَّ بعد مُلامَسَته الجذعَ الصُّلبَ كالحديد، فتردَّد صدى الضربات في الوادي، حتى إنَّه كان يُسمع بصوتٍ عظيم في القرية، شيئًا فشيئًا ينغرز المِعول، والآن ينهالُ رس شتيرر وبينجو كوبلر على الزانة، فيما صاحبُ «الدب» يرمُق ماني المرتكِزَ على الشجرة وقد شرعتْ شفتَاه تتحركان. أصدَرَ صاحبُ «الدب» إشارةً، فتوقَّفَ كوبلر وشتيرر عن الضرب. وانحنى صاحبُ «الدب» على ماني وسأله عمَّا إذا كان يُريد شيئًا.

«البدر»، أجاب ماني بعيونٍ متَّسعة. «البدر»، تساءل صاحبُ «الدب» ناظرًا إلى القمر دون أن يفهم. «ماذا تقصد؟» ثم الْتفت إلى الرجلَين المُمسِكَين بالمعاول: «لا شيء، وَاصِلا». «لا أعرف»، قال بينجو، وأضاف رس: «انظرْ إلى البدر مرةً أخرى». فحدَّق صاحبُ «الدب» في البدر، وبعد بُرهة قال: «إنَّه غيرُ كاملِ الاستدارة». فتصاعَدَ من خَلْفه صوتُ سيمو الخائف: «تنقُصه قطعةٌ صغيرة». عندئذٍ أدرَكَ صاحبُ «الدب» ما يرى، وقال شارحًا: «كُسوف. يحدث هذا كلَّ شهر». «شيءٌ لم تسبق لي رؤيته»، زعَقَ هيرمنلي تسوربروجن، فتساءل صاحبُ «الدب»: وهل سبَقَ لهما أن تأمَّلوا القمر أو النجوم؟ إنَّهم يجلسون كلَّ ليلة في حانته، وعندما يرجعون إلى بيوتهم لا يرَون القمر من فرط سُكْرهم، خسوفُ القمر شيءٌ يكاد يحدُث كلَّ أسبوع، كثيرًا ما رأى الهلال متآكِلًا كقطعةِ جُبن، والخسوف يمرُّ وينتهي خلال دقائق. «لكنَّه يزيد»، قال بينجو، «القمر يتناقص». لزموا الصمت جميعًا، ثم أتى من حافة الغابة العجوزُ جايسجرازر مُقترِبًا ناحية الفلَّاحين، وكأنَّه شبحٌ في ضوء القمر الذي راح — دون أن يُلاحظوا — يضعُف ويشحُب. «يا بهائم، هل أدركتُم الآن لماذا غرَّرَ فاوتي لوخر بكُمْ بملاييننه كي تقتلوا ماني في ليلة البدر هذه؟» قال العجوز مُنتقِدًا في شماتة، «لأنَّ القمر سينفجر الليلة، لأنَّه بدأ يتوهَّج من الداخل، وسترون ما يحدُث. لقد شاهدتُ ذلك عدَّة مرَّات، ولكنني لم أرَه قَط في يومٍ أحد. سيسقط القمر ويتناثر حُطامًا على الأرض، وكلُّ جزءٍ منه سيكون أكبرَ من أوروبا، وستكون في ذلك نهايةُ الأرض والعالَم. ولهذا يَمنح لوخر ملاييننه، لأنَّها لن تُفيده بشيء». قهقَهَ العجوز، وقفَزَ فرحًا وسطَ الثلوج،

إلا أنَّ ابنه لودي صرَخَ فيه قائلًا: «اخرس، ولا كلمة». أخَذَ بينجو يضرب ببَلطَتِه على الزانة كالمجنون، ثم الْتحق به رس، بجنونٍ وعنادٍ مُماثِلَين، وبسرعةٍ محمومة. «توقَّفا»، صرَخَ صاحبُ «الدب» مُرتاعًا، «القمر يختفي». حدَّقَ الاثنان ومعهما الآخرون في القمر. «إنَّه لا يختفي»، قال رس شتيرر، «بل ثمَّة شيءٌ بنيٌّ صَدِئ يغطِّيه». بعد بُرهةِ تفكير قال بينجو كوبلر: «إنَّها الشمس». فصاح سيمو تسوربروجن: «أعتقد أنَّها أستراليا. أعتقد أنني تعلمتُ ذلك في المدرسة». «كلامٌ فارغ»، يقول رس، «الأرض مستديرة، لا يمكن أن يكونوا في نَفْس الوقت فوق، وإلا كان باستطاعتهم في أستراليا أن يتمشَّوا فوق سطح القمر، كلامٌ فاضٍ». أخَذَ الفلَّاحون يحملِقون ويحملِقون.

ازداد إظلام القمر وخسوفه؛ فتغيَّر لونه من البُني الطيني، إلى البُني الصَّدِئ. فيما النجوم المشتعِلة التي لم تكن موجودة من قبل، تحيط به؛ إلى أن أمسى في النهاية عينًا متآكلة متوهِّجة، تغطِّيها البُثور والدمامل البَشِعة، عينًا تفيض شرًّا، تنظر إلى الثلوج المصطبغة بالأحمر القاني، وتُحدِّق في الفلاحين الذين يُمسكون بالمعاول التي تبدو ملطَّخة بالدماء. «اهرُب يا ماني»، يزعق صاحبُ «الدب»، «اهرُب»، ثم خرَّ على رُكبتَيه. «أبانا الذي في السموات»، بدأ الصلاةَ وفي إثره باقي الفلَّاحين، «ليتقدَّس اسمك». وحده العجوز جايسجرازر ظلَّ يتمرَّغ في الثلوج، سينفجر القمر من الداخل، وسيكتسح صديده وقَيحه كلَّ شيء، ثم ينتهي العالَم؛ راح العجوز يصيح ويهلِّل ويُقهقِه، أمَّا الفلَّاحون فواصلوا الصلاة: «ليأتِ ملكوتك». لم يبدُ على ماني أنَّه أدرَكَ أنَّه صار حرًّا؛ إذ ظلَّ يجلس بلا حَرَاك في مكانه. «لتكنْ مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض». أخيرًا نهَضَ ماني، وفي تلك اللحظة بزغَتْ شرارةٌ بيضاءُ خلْفَ الدُّمَّل المتوهِّج في السماء بلونٍ أحمرَ كالنيران.

«لقد عاد مرةً ثانية»، صرَخَ هيرمنلي تسوربروجن. «القمرُ يعود، القمر». نهَضَ الفلَّاحون بسرعة، وسُمعتْ صرخةُ ابتهاجٍ عظيمةٌ، خوفهم يقلُّ، كلما نَمَت الشرارةُ المتوهِّجةُ متحوِّلةً إلى قطعةٍ من البدر الذي عهِدُوه. «اقطعوا الشجرة»، صرَخَ صاحبُ «الدب»، وعلى الفور انهال رس وبينجو بالضرب على الشجرة، بسرعةٍ رهيبة غرَزُوا المعاول في الجذع الذي اتَّكأ عليه ماني، جالسًا، مفرشِحًا قدمَيه وسط الثلج الذي فقَدَ لونه الأحمر القاني الشبحي، ثم عاوَدَ نوبي وميجو الضرب من جديد، ازداد بهاء القمر خلْفَ الدُّمَّل الدامي الذي راح يتحلَّل إلى لا شيء، واختفت النجوم. أخَذَ هنتركراخن وتسوربروجن الأب وإيبجر وفزر وإلين وبودلمان أيضًا ينهالون على جذع الشجرة بالمعاول. ثم كلُّ الفلَّاحين، وكذلك

صاحبُ «الدب»، كلٌّ منهم يتقدَّم ويضرب، ثم التالي. عندما سقطتْ زانة بلوتلي كان القمر في تمامه، مثلما كان قبل الخسوف، كبيرًا، مستديرًا، وديعًا، رقيقًا، وغرقت السماء في ضوءٍ فضِّي. ليس علينا الآن سوى أن نُخرجه من تحت جذع الزانة السميكة، قال صاحبُ «الدب» آمِرًا، لقد دُهس ماني، سُحق سحقًا، هذا إذا كان بالإمكان رؤيته، ليس إلا عصيدة. ولهذا أُصيب صاحب «الدب» بالإحباط في صبيحة اليوم التالي، في الثامنة، عندما قال لوتشر إنَّه لا يريد أن يرى الجثَّة، وإنَّه يصدِّق أنَّ ماني قد لقي مصرعه في الحادث، ثم تساءل: وما الذي يجعله يتفرَّج على الجثَّة؟

لأول مرة، منذ تلك الليلة التي دخَلَ فيها الحانة وسطَ ظلَام الشتاء، نزَلَ لوتشر من غرفته. كان يرتدي مِعطفه الفرو والبُوت. جلَسَ إلى المائدة الطويلة وراح يشرب قهوةً بالحليب من فنجانٍ كبير، بينما جلستْ أمامه فريدا وإيني. اعتقد صاحبُ «الدب» أن يدَي لوخر ترتعشان، كما بدا في عينَيه أكبرَ سنًّا، والوجه أكثرَ شحوبةً وشيبًا. النقود فوق، قال لوتشر. صعِدَ صاحبُ «الدب» الدَّرَج بضجةٍ كبيرة، ثم فتَحَ باب غرفة لوتشر بقوة، ما زالت الحقيبة على المائدة تحت النافذة، بدون قُفْل، ففتَحَها، ووجَدَها مكتظَّةً بالأوراق النقدية. على الفِراش كانت زوجته ترقد. لقِيَ ماني مصرعه تحت زانةِ بلوتلي، قال محملِقًا في النقود، الكنيسة بحاجةٍ إلى عروق خشبية. لقد سمِعُوا الضربات، تُجيبه ليزته. راح يحدِّق في الرِّزَم النقدية من فئة الألف، وأخَذَ يعدُّ، عشرة آلاف، عشرة آلاف، عشرة آلاف، ثم شعَرَ أنَّ هناك خطأ ما، عشرة آلاف، تسعة آلاف، عشرة آلاف، ثمانية آلاف. «أيتها النساء! لقد سرقتنَّ عشرات الآلاف، كلُّكن سرقتنَّ أوراقًا من فئة العشرة آلاف». ضحكتْ ليزته: «نحن أيضًا لنا سعرنا؛ وإذا لم يَكُن الأمر يناسبكم، لدينا ما نَحكِيه». أغلَقَ صاحبُ «الدب» الحقيبة، ثم حمَلَها إلى غرفة النوم، وأراد أن يُغلق الباب بالمفتاح، ثم تذكَّر أنَّ زوجته معها مفتاحٌ ثانٍ، وهكذا نزَلَ الدَّرَج حاملًا الحقيبة. لم يعُدْ لوتشر يجلس في الحانة. وهو على الدَّرَج سأَل صاحبُ «الدب» إيني عن فاوتي، فأجابتْ بأنها لا تعرف، وعندما أمَرَها بالذهاب إلى المطبخ وغسْلِ الصحون، ردَّت إيني أنَّها لا تنوي ذلك، وأن ليس لديها ما تفعله في المطبخ، وعندما صرَخَ في وجه فريدا أنَّ عليها أن تقوم بعملها بدلًا من القعود هكذا، ردَّت عليه باستقالتها؛ إنَّها ابنة مليونير وقريبًا ستكون زوجةَ ابن مليونير، أيْ صاحب «الدب»؛ فهي ستتزوج سيمو، ولهذا فهي لن تعمل بعد اليوم. يسيل العَرَق على وجه صاحب «الدب». عبْرَ النوافذ الصغيرة يلمح السيارة الكاديلاك وهي تمرُق. تنزلق السيارة تاركةً القرية وراءها، هابطةً الوادي، وعند الصَّخرة، قبل أن تنحرف إلى طريق الغابة، تصِلُ إلى زوجة ماني الميت.

بعد حوالي أربعين سنة يرى كلاري تسوربروجن مرةً أخرى. كانت تحمل حقيبة. توقفت الكاديلاك. واصلت المرأة سَيرها. أنزَلَ الزُّجاج، وأخرَجَ رأسه من شباك السيارة قائلًا: «كلاري، اركبي». ظلَّت واقفةً متأمِّلة فيه، ثم قالت: «طيب، ما دمتَ تدعوني يا فاوتي لوخر». فتَحَ لها باب السيارة الأيمن، فوضعتْ حقيبتها على المقعد الخلفي وجلستْ جانبها قائلةً: «تبدو وكأنَّك بلغتَ المائة». «كلُّنا كَبِرنا»، أجاب لوخر، ثم سألها بعد أن وصَلَ إلى الغابة: «إلى أين تريدين الذهاب؟» «إلى لوتيكوفن العليا لأبحث عن عَمَل». بحذرٍ تنساب السيارة على الشارع الهابط إلى الوادي. وقبل أن يصِلَ إلى شِعاب الوادي انحرَفَ لوخر بالمِقود بقوة، ثم أوقَفَ السيارة في عُرض الطريق، وأطفأ المحرِّك. لزِمَ الصمت مرسِلًا نظَرَه إلى الأمام. وبعد بُرهة قال: «كلاري، لقد أخفيتِ عنِّي أنَّكِ حامل». «ماني وأنا كنا نريد الزواج، كان ذلك شأننا نحن، ولا يخصُّك في شيء». سألها: «ألَمْ يُزعِج ذلك ماني؟» «الطفلُ طفل»، أجابتْ. صمَتَ متأمِّلًا، ثم قال في النهاية: «كان من الأفضل أن تتزوجي ماني. نحن الاثنان من نَفْس الطينة. ولم نَكُن لنتوافق». ثم فتَحَ مِعطفه الفرو، وشدَّ سحَّابات البدلة الرياضية الزرقاء والحمراء، معرِّيًا عُنُقه. «لقد عاوَدَني الألم. نَفْس الألم الذي جاءني من نصف عام». اتَّكأ إلى الخلف، تاركًا ذراعَيه تهويان. «لقد خرجتُ من المستشفى قبل أيام. انسدادٌ في شرايين القلب.»

خيَّمَ الصمت على كليهما. فوق أشجار التَّنُّوب البيضاء انتشَرَ اللون الرَّمادي الحليبي في السماء، وفي مكانٍ ما تكاثَفَ مُكوِّنًا كتلةً مضيئة لا شكل لها، ولكن دون أن تَظهَر الشمس. بيده اليمنى راح يَدلُك صَدْره ببطءٍ وانتظام تحت البدلة الرياضية. «أعترف، آنذاك، لَمَّا تركتُ القرية، شعَرتُ بغضبٍ هائل، ولكن فور وصولي إلى الغابة هنا، كنتُ نسيتُ غضبي؛ إذ تملَّكني فجأةً الشوق لترك كلِّ شيء، هذا البلد، وأوروبا السخيفة هذه. نعم، لقد اغتنيتُ هناك، بطُرُق مشروعة وغير مشروعة، لا تسأليني كيف. لم أهتمَّ بذلك يومًا، ولا تسأليني أيضًا عن النساء على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي اللعين، ولا تسأليني عن ابني الذي سيرث كلَّ شيء، هذا الوغد الذي أصبَحَ أضخم منِّي عشر مرَّات. أمَّا أنتم في واديكم التعيس هذا فقد نسيتكم منذ فترةٍ طويلة، حتى أكون صادقًا: فور انطلاق القطار من فلوتنجن، لم أفكِّر فيكم يومًا، مُحِيتُم من ذاكرتي مَحوًا». لاذ بالصمت متحسِّسًا الباب الأيسر بيده اليمنى في مشقة، وكأنَّ ذراعه اليسرى مشلولة، وبلا صوتٍ هبَطَ زجاجُ النافذة، أحاط بهما الهواء البارد الرطب، بجانب الرَّجُل الذي طَعَن فجأةً في السنِّ بَدَت المرأةُ شابَّة. «الألم يجيء من وسط الصدر»، قال لا مُبالٍ، «ويصعد إلى الذقن، والذراع اليسرى، من الإبط

حتى أطراف الأصابع». صمَتَ مرةً أخرى، ولم تتحرك المرأة التي جلستْ بجانبه ساكنة، إنَّه حتى لا يعرف ما إذا كانت أصغتْ لَما قاله. «ثم أُصبتُ بانسدادٍ في شرايين القلب»، قال لوتشر، «ليس شديدًا كما هو الآن، ولكنه كان خطيرًا بما فيه الكفاية. عندما لزمتُ الفِراش عدَّة أسابيع، تذكَّرتُ القرية فجأةً، لم أتذكَّر أيَّ شخص، فقط القرية. أو بالأحرى: فقط هذه الغابة. ثم طلبتُ بعض المعلومات عن القرية؛ كانت المرةَ الأولى التي أرى فيها القنصل السويسري. بعد ذلك هبطتْ طائرتي في زيورخ، وقمتُ بسحب ١٤ مليونًا من أحد حساباتي الجارية». صمَتَ متأمِّلًا. «ربما بدافعٍ من الطِّيبة. حتى تنهضوا على قدمَيكم. ما قيمة ١٤ مليونًا؟ ولكن، عندما قال لي صاحبُ «الدب» إنَّكِ كنتِ آنذاك حاملًا، تملَّكَني الغضب الهائل الذي شَعَرت به آنذاك، فاشترطتُ عليهم، كما تعلمين، أن يقتلوا ماني أولًا. كان عليهم في الحقيقة أن يقتلوكِ أنت، ولكنَّ غضبي لم يكُنْ هائلًا إلى هذه الدرجة، وهكذا اعتقَدَ ماني أنَّ عليه أن يموت؛ ولكن الآن، عندما أفكِّر فيما حدَثَ في تلك الأمسية مع صاحب «الدب»، لا أعرف، هل كان ذلك غضبًا بالفعل؛ أم أنَّ الطمع الهائل هو الذي سيطَرَ عليَّ؟ أن أعيش مرةً أخرى، والاقتراح كان جزءًا من الطمع؛ إذا أراد الإنسان أن يعيش، فإنَّه يريد أن يقتل، إلا إذا كان يريد أن يظلَّ طيلةَ عمره في أحضان النساء، ما أكثر اللواتي جئن إلى فِراشي في الأيام السابقة كي يسرقن ورقةً أو عِدَّة ورقات من فئة العشرة آلاف، كان الأمر بالنسبة لي سواء، كما كان سواء مَن هو القتيل. كان من الممكن أن يقتلوا شخصًا آخر غير ماني، فأنا لم أرَ الجثَّة، وحتى لو لم يقتلوا أحدًا، لكنتُ أعطيتُهم المال.»

ثم ران الصمت. حطَّ طائرٌ أسودُ كبيرٌ على الباب الأمامي بجانب لوتشر. «العَقَاعِق تأتي دائمًا إليَّ، حتى في الأيام الخوالي كانت تأتي دائمًا إليَّ»، قال لوتشر، فيما الطائر الأسود يقفز داخلًا السيارة، ثم توقَّف على يده اليمنى فوق المِقود. قالت له: «لَّما زاروا المعرض الزراعي، كان عليَّ أن أذهب إلى فلوتنجن وأقدِّم بلاغًا ضدَّك». «لكنكِ لم تفعلي»، ردَّ بنبرة تقريرية. لزِمَت الصمت، ثم أضافتْ: «كنتُ عندئذٍ سأحتقر ماني». فقال بلا اكتراث: «لا يفيده هذا في شيء؛ إنَّه ميت». صمتتْ ثانية، وبعد بُرهة قالت بلا اكتراثٍ أيضًا: «والآن أحتقر نَفْسي». «وماذا يعني ذلك؟ لقد احتقرتُ نَفْسي دائمًا». أخَذَ العَقْعَق يتقافز على الباب الأمامي. «لا بد أنْ أمشي، وإلا فاتني القطار المتَّجه إلى لوتيكوفن العليا». لم يُجِب لوتشر.

طار العَقْعَق إلى السماء الصباحية التي انتشَرَ فيها اللون الحليبي. ثم هبطتْ نُدَف ثلجٍ خفيفةٌ. فتحتْ باب السيارة وأخَذَت الحقيبة من المقعد الخلفي، وشقَّت طريقها في

الثلوج حول مقدمة السيارة، واستمرَّت هابطةً الشارعَ الأبيض. مرَّت بالمنطقة التي تخلو الغابة فيها من الأشجار، ثم واصَلَت سَيْرها بين أشجار التِّنُّوب الكبيرة، النُّدَف الثلجية تحوم في الهواء وكأنَّها لا تستطيع الهبوط، نُدَف كبيرةٌ هشَّة كأوراق الزهر. كانت تُمسك الحقيبة أحيانًا بيُسراها، وعندما وصلتْ إلى فلوتنجن توقفت النُّدَف عن الهبوط. مرَّت بالكنيسة، ثم وصلتْ إلى محطة السكك الحديدية، لكنَّ القطار كان قد انطلق. اشترتْ تذكرةً، وجلَسَت على الدَّكَة بجانب كُشْك التحويلة. يُقرع الجرَسُ، ويخرج ناظر المحطة بِرتشي من غرفته. «السيدة ماني، القطار التالي إلى لوتيكوفن العليا لن يأتي قبل ساعةٍ وعشر دقائق. ستتجمَّدين من البرد». إنَّها لا تشعُر بالبرد أبدًا، أجابتْ. وظلَّت جالسةً دون حَراك، فيما كان الطقس يزداد برودةً. على أحد عواميد الضغط العالي جلَسَ أحد العَقَاعِق، لا يكاد يلاحظه أحدٌ أمام جبل أودهورن الأسوَدِ الذي ينهض في ضخامة. مرَّ القسُّ في صُحبة زوجته، انعطَفَ القطار القادم من لوتيكوفن العليا حول غابة ريزر، ثم توقَّف، قفَزَ المحصِّل من القطار صارخًا: «فلوتنجن»، قبَّل القسُّ زوجته، صعِدَت، لوَّح القسُّ، واستدار عائدًا، رأى السيدة ماني، أراد إلقاء التحية، غير أنَّه لم يفعل، وانصرف. دقَّت أجراس الكنيسة العاشرة. من مبنى المدرسة تعالتْ صرخاتُ الأطفال، الاستراحة الكبيرة، واصَلَ العَقْعَق طيرانه في اتجاه غابةِ فلوتنباخ. في عُمق الغابة، بعد وقتٍ طويل، استعاد لوتشر وَعيَه فجأةً. ما زالت الشبابيك مفتوحة. الثلوج متراكِمة داخلَ السيارة، على المِعطف، على البدلة الزرقاء والحمراء. اعتقد لبُرهة أنَّ البرودة قارسة، شيءٌ دافئ، حلوٌ، أسودُ، يتدفَّق من فمه، ولكنه لا يشعُر بألم، هدوءٌ عظيم يغمره. مدَّ يده بشكلٍ ميكانيكي إلى لوحة القيادة، زمجَرَ المحرِّك، اتجهتْ يده إلى الدبرياج الآلي دون أن ينتبه إلى حركات يده، سارت العَرَبة مسرِعةً إلى الخلف، ثم إلى الأمام، ثم هبَطَت الشارع مخترِقةً الثلوج المتراكِمة، وسقَطَت في أحضان التِّنُّوب. بلا صوتٍ وقعتْ في الثلوج العميقة، ثم استقرَّت بالعرض في الغابة الكثيفة.

من وسط الثلج المُظلِم حوله برَقَ ضوءٌ غريب. ومن الشارع سمِعَ صوتًا يغني: «طلَعَ القمر، والنجوم الذهبية الصغيرة تسطع في السماء الصافية». مُستغرِبًا ينتبه إلى أنَّ شخصًا يعبُر الطريق فوقه، وأنَّ الليل قد أقبل، ثم تذكَّر الصباح قبل ذلك، وتذكَّر أن شخصًا ما كان يجلس معه، غير أنَّه لم يعُدْ يعرف مَن. «ما أعمقَ الهدوءَ في العالم! ما أجملَ الغروبَ وما أعذبَه!» راح صوتٌ نسائيٌّ يشدو، ثم شعَرَ وكأنَّ الترنيمة تبتعد وتبتعد، ثم تقترب، ثم تبتعد بعيدًا جدًّا، وتخفُتُ حتى تغيب.

لا يتبقَّى إلا تسجيلُ التالي: كلاودينه تسبفل، التي كانت تخترق الغابة المغطَّاة بالثلوج وهي تشدُو هابطةً الطريق الوعِر المؤدِّي إلى فلوتنجن؛ لم تكُنْ بحاجةٍ إلى قطْعِ الطريق عائدةً إلى القرية سيرًا على الأقدام في الصباح التالي كي تعلِّم التلاميذ والتلميذات القلائل. عند طلوع النهار، في حوالي الثامنة، عندما تسلَّلتْ من الباب الخلفي لبيت القسِّ دون أن يلاحظها أحد، تاركةً قسًّا مستغرِقًا في النوم العميق من فرط الإنهاك، وهي تشقُّ طريقها من حافة الغابة إلى الشارع، ولأنَّها لا تَلفت انتباهَ أحد؛ كادت تَلقى حتفها؛ إذ إنَّ جرَّافة الجليد الضخمة كانت تشقُّ الطريق الصاعد، وفي إثرها كاسحةُ ثلوج وسيارة صِهْرِيج وأخرى لإذابة المِلح المرشوش على الشوارع، وحولها جيوش من العُمَّال بمعاطفهم البرتقالية يجرفون المخلَّفات. فُوجئت المرأة بالكُتَل الجليدية التي كانت الجرَّافة تُلقي بها ناحيتَهَا، دُفنتْ كلاودينه تسبفل تحت الثلوج، دفُنتْ دفنًا تامًّا، وكادت أن تختنق وتَلفِظ أنفاسها الأخيرة لو لم يتبع تلك القافلة من الآلات والبشر مستشارُ البلدية، الدكتور ميشائيل إتي، في سيارته اللاندروفر ومعه مستشار الحكومة شافروت، وباعتباره ابنَ المنطقة لم يتوقَّف عن إصدار أوامر التوجيه وإشعال حماس العُمَّال. لولا أنَّه لاحَظَ الحادث، وأمَرَ بالحفر؛ لَمَا أُنقذت المعلِّمة التعيسة. ملفوفةً بالبطاطين الصوفية جلستْ بين مستشار البلدية ومستشار الحكومة، وراحتْ تُغمغِم شيئًا عن القطار الباكر الذي أتتْ به إلى فلوتنجن، والآن ها هم يصعدون بها الوادي كأنَّها في حُلم. سارت القافلة ببطءٍ بالغ؛ فالكتل الثلجية تجعل المهمَّة شِبه مستحيلةٍ أمام الجرَّافة الهائلة، رغم أنها كانت تعمل بعنفٍ شديد، مسبِّبةً انهياراتٍ ثلجيةً كانت من الضخامة بحيث إنَّها دَفَنتْ أثناء مرورها السيارة الكاديلاك التي كانت ترقد في مكانٍ ما على حافة الغابة دفنًا تامًّا؛ وعمومًا كان من الصعب التعرُّف عليها وسط أدغال التَّنُّوب والثلوج. ولكن، مهما كانت المعركة شاقَّةً ضدَّ كُتَل الجليد والثلوج، ورغم أنَّ الثلج بدأ يهطُل بغزارةٍ تُهدِّد بصراعٍ مماثِل في رحلة العودة؛ فإنَّهم نجحوا أخيرًا في الوصول إلى القرية حيث كان الأهالي متجمِّعين، وبينهم الشرطي الذي لم يَرَه أحدٌ منذ ما يزيد على أربعة عشر يومًا بعد أن أفاق أخيرًا من سُكره. كلُّهم يتفرجون مَشدُوهين على الماكينات الهائلةِ الضخامة، ولهذا استطاعتْ كلاودينه تسبفل التسلُّل دون أن يلاحظها أحد إلى المدرسة، سعيدةً أنَّها لن تجِدَ هناك أيَّ تلاميذ. لم يلفتْ غيابُها انتباهَ أيِّ شخص، خاصةً عندما سار مستشارُ البلدية الدكتور إتي — بينما وقَفَ إلى جواره مستشارُ الحكومة شافروت بوجهٍ بشوش — في اتجاه صاحبِ «الدب» القَلِق، وحوله تحلَّقَ

الفلَّاحون ذوو الوجوه الكئيبة، وصافَحَه موضِّحًا له أنَّه بصفته مستشارًا للبلدية، ولأنه معجَبٌ بصلابة أهل فلوتنباخ في المحافظة على واديهم بِكرًا كما هو، وكما اقتنَعَ شخصيًّا في «الراهب» في لوتيكوفن العليا؛ فإنَّه قرَّر أن يفعل شيئًا: إنَّ التخفيف من قسوة قَدَرهم من واجب البلدية، ولا بد من التضامُن معهم كما يقضي التحالفُ الفيدرالي، ولهذا فإنَّه استدعَى على الفور، في صباح يوم الأحد، أعضاءَ المجلس الاستشاري الاتحادي وإدارة التأمينات، وانتزع السادة من فِراشهم كي يشرح لهم أن فلوتنباخ هو الوادي الجبلي الوحيد في البلاد الذي لم تشوِّهه البِنايات السياحية ومصاعد التليفريك، إنَّه الوادي الذي ما زال محتفِظًا ببَكَارته البيئية، هنا ما زال على المتزلِّجين أن يصعدوا جبال الألب أو الجبال الأخرى حتى يمارسوا فنونهم الجليدية؛ ولهذا، فإنه لا بد من إنشاء مركزٍ حيوي للرياضات الشَّتوية هنا؛ لصحة الشعب. مركزٌ مزوَّد بنادٍ صحيٍّ، وصالاتِ ألعاب، ومحطة سكك حديدية، وحمامات سباحة مغلقة، وفنادق ومستشفى، وربما أيضًا بعض مصاعد التليفريك لأولئك الذين لا تسمح لهم صحتهم بالاستفادة من المركز الحيوي للرياضات الشَّتوية. وبالطبع لا بد من استكمال بناء شارع فلوتنباخ ووصْلِه بالطريق السريع. باختصار، إنَّه مشروعٌ يُقنع كل شخص، بل إنَّه يُثير التحمُّس، خاصةً وأن الأموال اللازمة — عشرة ملايين من الاتحاد الفيدرالي، وخمسة ملايين من الولاية، وخمسة وعشرون مليونًا من شركات التأمين — قد تمَّت الموافقة عليها من البرلمان والهيئات المختلفة منذ وقتٍ طويل، قبل أن يتَّفقوا على مكانِ إنشاء المركز، ولهذا فهو لا يحتاج إلا أن يقول: إنَّهم — أيضًا في هذه القرية الجبلية المعزولة — ينتظرهم مستقبلٌ أفضلُ ومشرِق. بهذه الكلمات أنهى مستشار البلدية كلمته التي أثارت الانفعالاتِ المتنامِية في نفوس أهالي فلوتنباخ كلِّهم؛ فهم كانوا ينتظرون خطبةً أخرى تمامًا، لقد رأوا أنفسهم جالسين في قَفَص الاتهام في محكمة المحلَّفين في لوتيكوفن العليا. وانتهت الخطبة والانفعالات بصمتٍ عميقٍ لم تخترقْه سوى صيحةِ عَقْعَقٍ ظلَّتْ تحوم فوق رُءُوس الصامتين، الذين انتبهوا إليها في صَمْتهم، فيما تهلَّلتْ أسارير عمدةِ القرية وصاحبِ «الدب»، شلاج إنهاوفن. وبعيونٍ مُغرورِقةٍ بالدموع التي لم تُسبِّب له الخجل، شكَرَ مستشار البلدية بتلقائيةٍ وحرارة، وبكلماتٍ بسيطةٍ رفَعَ فيها الكُلفة قائلًا: «إتي، نشكُرك. لقد حَصَلنا على بَرَكة الرب.»

السقوط[1]

ترتيب الجلوس	
أ (الزعيم)	
ت (مدير المخابرات)	ب (وزير الخارجية)
ج (وزير التجارة الخارجية)	ث (أمين عام الحزب)
خ (كبير المنظِّرين)	ح (وزير الصناعة الثقيلة)
ذ (وزير الزراعة)	د (وزير الدفاع)
ز (وزير النقل والمواصلات)	ر (الرئيس)
ش (وزير البريد)	س (وزيرة التربية)
ض (رئيس مجموعات الشَّبيبة)	ص (وزير الذرَّة)

بعد البوفيه البارد المكوَّن من البيض المَحْشوِّ والجامبون والتوست والكافيار والشنابس والشمبانيا، والذي اعتاد أعضاء الأمانة السياسية العامة للحزب تناوُلَ طعامهم منه في قاعة الاحتفالات قبل بدء الاجتماع، كان «ش» أول مَن دخَلَ غرفة الاجتماعات. منذ اختياره عضوًا في أعلى هيئة سياسية لم يكُنْ يشعُر بالأمان إلا في هذه الغرفة، رغم أنَّه لم يكُنْ سوى وزيرٍ للبريد، ورغم أنَّ الطوابع التي صدَرَتْ بمناسبة مؤتمر السلام نالتْ إعجاب «أ»، كما تناهى إلى سمعه عبْرَ شائعاتٍ ترددتْ في الدائرة المحيطة بـ «ث»، أو إذا

[1] نُشرتْ هذه القصة عام ١٩٧١م. (المترجِم)

شئنا الدقَّة، كما عَرف من «ج»؛ إلا أنَّ أسلافه اختفوا داخل جهاز الدولة رغم مكانة البريد الثانوية. وحتى إذا كان مدير جهازِ المخابرات «ت» يتعامل معه بلُطفٍ؛ فلَمْ يكُنْ ممَّا يُنصح به البحث عن المُختَفِين. قبل دخول قاعة الاحتفالات، وقبل دخول غرفة الاجتماعات، كانت الأيدي قد تحسَّستْ «ش»؛ في المرة الأولى قام بالتفتيش الملازم أول الرياضي الذي كان يفعل ذلك دائمًا، وفي المرة الثانية فتَّشَه عقيدٌ أشقر لم يرَه «ش» قبل ذلك قَط. كان العقيد الذي اعتاد أن يتحسَّسَ جسده قبل الجلسة أقرع، ولا بد أنَّه في إجازة، أو ربما يكون نُقِل، أو طُرِد من وظيفته، أو جُرِّد من رُتبته، أو قُتل رميًا بالرصاص. وضَعَ «ش» حقيبته على طاولة الاجتماعات وجَلَس. بجواره جَلَس «ز». غرفة الاجتماعات كانت طويلة، ولكنها لم تكُنْ أعرضَ كثيرًا من طاولة المُباحثات. الجدران مكسوَّة حتى نصفها بالخشب البُنيِّ، أمَّا الجزء غير المكسو من الجدران والسقف فكان أبيضَ اللون. كانوا يجلسون وفقًا للقاعدة الهرمية التي تحكم النظام. جلَسَ «أ» على القمَّة. فوقه، على الجزء الأبيض من الحائط، عُلِّقتْ راية الحزب. أمامه في نهاية الطاولة لا يجلس أحد، وفي الخلف النافذة الوحيدة في غرفة الاجتماعات. النافذة عالية، مقوَّسة في أعلاها، ومقسَّمة إلى خمسةِ ألواح زجاجية، وبلا ستائر. كان «ب»، و«ث»، و«ح»، و«د»، و«ر»، و«س» يجلسون (من منظور «أ») على الجانب الأيمن من الطاولة. ومقابلهم «ت»، و«ج»، و«خ»، و«ذ»، و«ز»، و«ش». وبجوار «ش» يجلس رئيس مجموعات الشَّبيبة ض، وبجانب «س» يجلس وزيرُ الذرَّة «ص». غيرَ أنَّ ض، و«ص» لم يكُنْ لهما حقُّ التصويت. كان «ز» أكبرَ أعضاء الهيئة سنًّا، وقد مارَسَ فترةً — قبل أن يتولى «أ» قيادة الحزب والدولة — المهامَّ التي يضطلع بها «ث» الآن. «ز» كان حدَّادًا قبل أن يُصبح ثوريًّا، وهو ضخمٌ وعريضُ الكتفَين دون أن يكون سمينًا. تقاطيعُ وجهه ويداه تتَّسم بالغِلظة، شعره الأشيب المقصوص ما زال كثيفًا. لم يكُنْ يحلق لحيته قَط. بدلتُه الغامقة تُشبه الزيَّ الذي يرتديه عاملٌ في أيام الآحاد. لم يربط يومًا ربطةَ عنقٍ حول عنقه. ياقةُ قميصه الأبيض مزرَّرة دائمًا. يتمتع «ز» بالشعبية في الحزب ولدى الشعب، نُسجت الأساطير حول ما فعَلَه أثناء «تمرُّد يونيو»؛ غير أنَّ أعوامًا وأعوامًا مرَّتْ على تلك الفترة، حتى إنَّ «أ» كان يُطلِق عليه «النُّصُب التِّذكاري». كان يُنظر إلى «ز» باعتباره عادلًا وبطلًا، ولهذا لم يكُنْ تآكُل سُلطته سقوطًا مُدويًا مُثيرًا للانتباه، بل هبوطًا مستمرًّا على سُلَّم السُّلطة. ولأنَّه كان يعلم أنَّ سقوطه آتٍ لا ريب، فلَمْ يكُنْ يَهابُ المُحاكَمة. كان ثِملًا معظمَ الوقت مثلَ المارشال «د» والمارشال «ر»، ولم يكُنْ يُفيق من سُكره حتى عندما يجيء إلى اجتماعات الأمانة العامة للحزب. في هذه الجلسة كانت تفوح من فمه أيضًا

رائحةُ الشنابس والشمبانيا، لكنَّ صوتَه الغليظ كان هادئًا، وعيناه الدامعتان المحمرَّتَان كانتا تنظُران بتهكُّم: «يا رفيق»، قال متوجِّهًا بكلامه إلى «ش»، «لقد انتهينا. «ص» لم يأتِ». لم يردَّ «ش»، بل لم تندَّ عنه أيُّ حَرَكة. كان يدَّعي اللامبالاة. ربما كان إلقاءُ القبض على «ص» مجرَّدَ شائعة، ربما كان «ز» مخطئًا، وإذا كان «ز» مخطئًا فإنَّ وضْعَ «ش» ليس ميئُوسًا منه قياسًا إلى وضْعِ «ز» الذي كان مسئولًا عن النقل والمواصلات. إذا حدَثَ خطأٌ في قطاع الصناعة الثقيلة أو في المجال الزراعي (ودائمًا ما تحدُث أخطاءٌ)؛ فإنَّ اللوم يُلقى فورًا على وزير النقل والمواصلات. أعطال، تأخيرات، تعثُّرات. البلاد مترامية الأطراف، وجهاز الرقابة والتفتيش مترهِّل.

دخَلَ «ث»، أمين عام الحزب، والوزير «ذ» الغرفة. الأمين العام بدينٌ وضخمٌ وذكي. يرتدي الزيَّ العسكري التفصيل، وبذلك كان نسخةً من «أ»؛ فعَلَ ذلك خنوعًا كما يظنُّ البعض، أو تهكُّمًا كما يعتقد آخرون. «ذ» نحيلٌ أحمرُ الشَّعر. بعد أن تولَّى «أ» السُّلطة في البلاد شغَلَ منصب المدَّعي العام، وكان يتميَّز بالجرأة الشديدة. في أول عمليةِ تطهيرٍ كبيرةٍ صمَّم على تنفيذ أحكامٍ بإعدام الثوريين القُدامى، لكنه ارتكب خطأً في أثناء ذلك؛ بناءً على رغبة «أ» طالَبَ بإعدام زوج ابنة «أ». ولكنْ عندما تدخَّل «أ» على غير توقُّعٍ للعفو عن زوج ابنته؛ كان الأخير قد فارَقَ الحياة رميًا بالرَّصاص. هذه الهفوة لم تكلِّفْ «ذ» وظيفته مُدعيًا عامًّا فحسب؛ الأسوأ أنَّه ترقَّى واقترب من السُّلطة، فعُيِّن عضوًا في الأمانة السياسية، وبذلك وضَعُوه بأكثرِ الوسائل سهولةً على قائمة الذين يمكن التخلُّص منهم. لقد وصَلَ إلى منصبٍ يُتيح لهم أن يقضوا عليه لأسبابٍ سياسية، وما أسهلَ العثورَ على أسبابٍ سياسية. وفي حالة «ذ» كانتْ متوافرةً بالفعل. صحيحٌ أنَّ أحدًا لم يعتقد أنَّ «أ» جادٌّ في إنقاذ زوج ابنته. وبالتأكيد لم يتعارضْ إعدامُ زوج الابنة مع مكنون نَفْسه (ابنة «أ» كانت في تلك الأيام تضاجع «ض») إلا أنَّ «أ» كانت لديه الآن حجَّةٌ يستطيع أن يستخدمها علانيةً للتخلُّص من «ذ» إذا أراد التخلص منه. ولأنَّ «أ» لم يَدَع يومًا فرصةً تمرُّ دون أن يتخلَّص من شخص؛ فإن الجميع اعتقد بانتهاء «ذ». كان «ذ» يعلم ذلك، لكنَّه سلَكَ سلوكَ مَن لا يعرف، وإنْ على نحوٍ غيرِ مُقنِع. الآن أيضًا كان يحاول بطريقةٍ مفضوحةٍ إخفاءَ قلَقِه. راح يحكي لأمين عام الحزب عن عرضٍ قدَّمتْه فرقةُ الدولة للباليه. في كلِّ جلسة يحكي «ذ» عن الرقص مُنهالًا فوق رءوس الحاضرين بمصطلحاتِ الباليه، خصوصًا منذ أن أُرغم على تولِّي وزارة الزراعة، رغم أنَّه رجلُ قانونٍ لا يَفقَه شيئًا في الزراعة. إلى ذلك،

ربما كانت وزارةُ الزراعة ملأى بالأفخاخ أكثرَ من وزارة النقل والمواصلات، ومع مرور الوقت يُصاب كلُّ مَن يعمل فيها بالضرر، فالحزب محكومٌ عليه بالفشل الحتميِّ في قطاع الزراعة. من المستحيل إعادةُ تربية الفلَّاحين. إنَّهم أنانيُّون وكُسالى. من جانبه كان «ش» يَكرَه الفلَّاحين أيضًا، لا يَكرَهُهم بحدِّ ذاتهم، ولكنْ كمشكلةٍ مُستعصِية على الحلِّ، كصخرةٍ تحطَّمتْ عليها حلولُ المُخطِّطين؛ ولأنَّ الفشل خطرٌ، عاقبته الموت. أحسَّ «ش» بكراهية مزدوَجة تجاه الفلَّاحين، وانطلاقًا من كراهيته استطاع أن يفهم سلوك «ذ»: هل ثمَّة مَن يريد التحدُّث عن الفلَّاحين؟ وحده وزير الصناعة الثقيلة «ح» — الذي نشأ وترعرع في قرية، واشتغل مثل والده معلِّمًا في مدرسة القرية ثم حصَلَ على تدريبٍ ناقصٍ وبدائيٍّ وفجٍّ في معهد المعلِّمين الريفي — كان يبدو فلَّاحًا ويتحدَّث كفلَّاحٍ، ويحكي في الأمانة السياسية للحزب عن الفلَّاحين، ويُشنِّف آذانهم بحكاياتِ الفلَّاحين التي لم تكُنْ تُدخل السرورَ إلى نَفْس أحدٍ سواه، مردِّدًا الأمثال الشعبية للفلَّاحين التي لم يفهَمْها أحدٌ غيره، في حين يجِدُ رجلُ القانون المثقَّف «ذ» نَفْسه مجبرًا على التعامل مع الفلَّاحين. كان اليأس يمزِّقه بسبب غبائهم، وحتى لا يتكلَّم عنهم، كان يلوك حكاياته عن الباليه، مُصيبًا كلَّ مَن يسمعه بالملل، لا سيما «أ» الذي أَطلق على وزير الزراعة لقبَ «البالارينا» (فيما قبل أطلق عليه «القانوني الصاعد إلى السموات») رغم ذلك كان «ش» يحتقر المدعي العام السابق، ويكره وجهه الحقوقيَّ البغيض الذي يغطِّيه النَّمَش. لقد تحوَّلَ بسرعةٍ فائقة من جلَّادٍ عريقٍ إلى خانعٍ ذليل. على خلاف ذلك أثار سلوكُ «ث» إعجابَ «ش». رغم كلِّ سُلطته في الحزب، ورغم كلِّ ذكائه السياسي، كان الخنزير البريُّ — كما وصفه «أ» — يشعُر حتمًا بالخوف، إذا كان خبرُ عدمِ ظهور «ص» صحيحًا. غير أنَّ «ث» سيطَرَ على مشاعره، ولم يفقد لِلَحظةٍ هدوءه. حتى في أوقاتِ الخطَرِ كان أمينُ عام الحزب يظلُّ على هدوئه واسترخائه. غيرَ أنَّ مصيره مجهول. ربما يؤدِّي اعتقالُ «ص» — إذا لم يكُن محضَ شائعةٍ تسبَّبَ عدمُ ظهوره في إطلاقها — إلى شنِّ الهجوم على «ث»؛ لأنَّ «ص» كان في الحزب تحت رئاسة «ث». وربما يكون هدف الاعتقال إسقاطَ كبيرِ المنظِّرين «خ»؛ إذ إنَّ «ص» كان ينظُر إليه باعتباره صنيعةَ «خ». إنَّ تصفية «ص» — إذا حدثتْ — تهدِّد «ث» و«خ» في الوقت نَفْسه. هذه الاحتمالية كانت في حدِّ ذاتها ممكِنة، لكنَّها — تقريبًا — غير مُحتمَلةِ الحدوث.

دخَلَ كبيرُ المنظِّرين «خ» غرفةَ الاجتماعات. كان أعسَرَ، أمام عينَيه نظَّارةٌ مُغبَّرة بدون إطار، رأسه المُتعالِم ذو الشَّعر الأبيض الكثيف مائلٌ بعضَ الشيء. كان يعمل في السابق معلِّمًا في مدرسةٍ ثانوية في الأرياف. أطلَقَ «أ» عليه قديس الشاي. كان «خ» منظِّر الحزب،

يحيا حياةَ زهدٍ وتقشُّف، رجلٌ نحيلٌ منطوٍ على نَفْسه، يرتدي صَنْدلًا في قدمَيه حتى في فصل الشتاء. إذا كان أمينُ عام الحزب «ث» شخصًا حيويًّا مستمتِعًا بالحياة والنساء؛ فإنَّ كلَّ خطوةٍ من خطوات كبيرِ المنظِّرين «خ» كانت محسوبةً بدقَّة نظريَّة، وليس نادرًا أن تقود إلى اللامعقول وإلى سفك الدماء. سَادَت العداوة بين الاثنين. وبدلًا من أن يكون كلٌّ طرفٍ مكمِّلًا للآخر؛ كان كلٌّ منهما يتشاحَنُ مع الآخر، وينصب له الفخَّ تلو الفخِّ محاوِلًا إسقاطَه؛ أمين عام الحزب كمهندسٍ للسُّلطة مقابل كبيرِ المنظِّرين وأيديولوجي الثورة. كان «ث» يريد الدفاع عن سُلطته بجميع الوسائل، بينما كان «خ» يريد الحفاظ على نقاء السُّلطة بكلِّ الوسائل، وكأنَّه مِشْرطٌ مُعقَّم في يد النظريات النقيَّة. كان وزير الخارجية «ب» ووزيرة التربية «س» يشعُران بالمودة تجاه الخنزير البريِّ ووزير النقل والمواصلات «ز»، أمَّا قديس الشاي فكان يقِفُ في صفِّه وزيرُ الزراعة «ذ» ورئيسُ الدولة «ر»، وكذلك وزيرُ الصناعة الثقيلة «ح» الذي لم يكُنْ يقلُّ عن «ث» وحشيةً وعنفًا، غيرَ أنَّه انتمى إلى معسكر «خ» بسبب النفور الذي يشعُر به مهووسٌ بالسُّلطة تجاه مهووسٍ آخرَ بالسُّلطة، رغم أنَّ المعلِّم الريفيَّ السابق كانت تُثقله مشاعرُ الدونية والنقص تجاه المعلِّم السابق في المدارس الثانوية، وربما كان يُكنُّ له كُرهًا دفينًا.

لم يعُدْ «خ» في الواقع يُلقي التحيَّة على «ث». أن يُلقي الآن كبيرُ المنظِّرين بالتحية على أمين عام الحزب — كما لاحَظَ «ش» مرعوبًا — فهذا يُشير إلى خوف «خ» من أن يكون اختفاء «ص» أمرًا يمسُّه هو شخصيًّا، ثم أنَّ «ث» ردَّ التحية، وهو ما يُظهِر خوفه من الخطر الذي يهدِّده. أن يتملَّك الخوف الاثنَين معًا يعني أنَّ «ص» قد اعتُقِل فعلًا. ولكنْ، لأنَّ قديس الشاي ألقى تحيةً دافئة، بينما كانت تحيةُ الخنزير البريِّ مهذَّبةً فحسب؛ فإنَّ ذلك يُشير إلى أنَّ الخطَرَ الذي يهدِّد كبيرَ المنظِّرين كان ملموسًا أكثر — ولو بدرجةٍ طفيفة — من ذلك الذي يهدِّد أمين عام الحزب. تنفَّسَ «ش» الصُّعَداء. إنَّ سقوط «ث» سيصيب «ش» أيضًا بالحرج؛ إذ إنَّ «ش» عُيِّن عضوًا يحقُّ له التصويت في الأمانة السياسية العامة للحزب بناءً على اقتراح الخنزير البريِّ، وكان «ش» يُعتبر صنيعةَ «ث»، وهي وجهةُ نظَرٍ من الممكن أن تُمسي خطيرة، حتى وإنْ كانت لا تنطبق تمامًا على الحقيقة؛ فأولًا: لم يكُنْ «ش» ينتمي إلى أيِّ مجموعة، وثانيًا: لم يكُنْ كبيرُ المنظِّرين — الذي كان من المدافِعين عن وزير الطاقة «ص» — يتوقَّع أن يَقترح أمينُ عام الحزب قبل الانتخابات رَبيبَه رئيسًا لمجموعات الشَّبيبة. غيرَ أنَّ الخنزير البريَّ أدرك أنَّ انتخابَ مرشَّحٍ محايدٍ في أمانة الحزب سيكون

أسهلَ من انتخابِ أحدِ أنصار الحزب أو أحدِ خصومه، إلى ذلك فإنَّ ابنة «أ» كانت في تلك الأثناء قد انفصلتْ عن ض كي تضاجع أحدَ الروائيين الذين كرَّمَهم الحزب، إثرَ ذلك تخلَّى «ث» عن مرشَّحه مقترحًا «ش»، وبذلك تمَّ تجاوُز قديس الشاي الذي أُرغم على التصويت لصالح «ش»، وثالثًا: لم يكُنْ «ش» سوى متخصِّصٍ في مجاله، وغير ضارٍّ بالنسبة لـ «ث» و«خ». كان عديمَ الأهمية في نظَرِ «أ» إلى درجة أنَّه لم يحصُل حتى على لقب.

ينطبق ذلك بالطبع على وزير التجارة الخارجية «ج» الذي دخَلَ الغرفة في أعقاب «خ»، ثم جلَسَ على الفور. بينما كان كبيرُ المنظِّرين ما زال يقِفُ بجانب أمين عام الحزب الذي ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ صفراء غيرٌ مُبالية. علَتْ وجهَ كبير المنظِّرين ابتسامةٌ مُرتبِكة وهو ينظِّف نظَّارته المستديرة التي يرتديها عادةً المعلِّمون ونُظَّار المدارس، شاعرًا بالضِّيق من ثرثرةِ وزير الزراعة «ذ» عن راقص مُنفرِد. «ج» رَجلٌ طاف العالم، أنيقٌ، يرتدي بدلةً إنجليزية، وحولَ عُنُقه يلفُّ منديلًا حريريًّا دون أن يربطه جيدًا، ويُدخِّن سجائرَ أمريكية. كان وزيرُ التجارة الخارجية، مثل «ش»، عضوًا رغم أنفه في الأمانة السياسية للحزب. الصراع حول السلطة داخلَ الحزب دفَعَه هو أيضًا تلقائيًّا إلى صفوف القيادة. آخرون — أكثر طموحًا منه — سقَطُوا ضحيَّةَ الصراع حول الأماكن المتقدِّمة؛ أي سقَطُوا ضحيَّةَ أنْفُسِهم، وهكذا نجا «ج» من كلِّ عمليةِ تطهيرٍ باعتباره رَجلًا متخصِّصًا، وهو ما جعَلَ «أ» يمنَحُه لقبَ «اللورد إيفرجرين».[٢] وكما غدا «ش» رغمًا عنه الرَّجُل رقم ١٣ في صفوف أقوى أقوياء الدولة، هكذا أضحى «ج» رغمًا عنه خامسَ أقوى رجلٍ في الإمبراطورية. لم يعُدْ ثمَّة طريق للتراجُع. سلوكٌ خاطئ أو جملةٌ غيرُ حذِرة قد تعني النهاية، الاعتقال، التحقيق، الموت، ولذلك كان على «ج» و«ش» أن يُظهرا اللُّطف مع الأقوى منهما أو المماثِل لهما في القوة. عليهما التصرُّف بذكاء، أن يستفيدا من الفُرص، وفي حالة الضرورة التنصُّل من المسئولية والاستفادة من ضعْفِ الآخرين. كانا مجبَرَين على أشياءَ مُهينةٍ وسخيفة.

بالطبع يتمتع رجالُ الأمانة السياسية العامة للحزب الثلاثة عشر بسُلطةٍ هائلة. إنهم يُمسكون بدفَّة القيادة في المملكة المترامية الأطراف. ما أكثر الأشخاص الذين أرسلوهم إلى المنفى أو السجون أو الموت. إنَّهم يتدخَّلون في حياة الملايين، يشيِّدون المنشآت الصناعية، يحرِّكون عائلاتٍ وشعوبًا، يأمرون ببناء المُدُن العملاقة، يجيِّشون الجيوش التي لا تُعدُّ

[٢] Lord Evergreen أي اللورد دائمُ الخُضْرة. (م)

ولا تُحصى، بكلمةٍ منهم تشتعل الحرب أو يسود السلام. ولكنْ، لأنَّ غريزة البقاء أرغمتْهم على التربُّص ببعضهم البعض؛ فإنَّ مشاعر المودة والنفور — التي يتبادلونها فيما بينهم — كانت تؤثر عليهم تأثيرًا أكبرَ بكثيرٍ من الصراعات السياسية والتطورات الاقتصادية التي كانوا يواجهونها. كانت السُّلطة، أي الخوف من الآخرين، ضخمةً جدًّا، أضخم من أن تسمح لهم بممارسة السياسة فحسب. أمَّا العقلانية فلَمْ تستطعْ أن تغيِّر من الأمر شيئًا.

من بين الأعضاء المتغيِّبين دخَلَ الغرفةَ الآن المارشالان، وزير الدفاع «د» ورئيس الدولة «ر»، كلاهما عائمٌ في الدُّهن والشحم، كلاهما متحجِّرُ الملامح، وكلاهما مغطى الصدر بالنياشين والأوسمة، كلاهما طاعنٌ في العمر، يتفصَّد عرَقًا، وتفوح منهما عفونةُ التبغ والخمر وعطرُ الدانهيل، كيسان معبَّآن عن آخرهما بالدُّهن واللَّحم والبول والخوف. يجلسان في اللحظة نَفْسها متجاوِرَين دون أن يوجِّها التحية لأحد. اعتاد «د» و«ر» أن يدخُلا معًا. أطلَقَ عليهما «أ» — مُلمِّحًا إلى المشروب المفضَّل لكليهما — «جِن-كيز خان». كان المارشال «ر»، رئيس البلاد وبطل الحرب الأهلية، يغفو في جِلسته. أمَّا المارشال «د» — وهو صفرٌ في الشئون العسكرية، إلا أنَّه استطاع بصلابته الحزبية والسياسية أن يرتقي السُّلَّم حتى وصَلَ إلى رُتبة المارشال، ووسيلته في ذلك هي القبض على الوزراء السابقين له وزيرًا وزيرًا، باعتبارهم من الخائنين للوطن، ثم يُسلِّمهم إلى «أ» الطيب الذي يصدِّق ما يُقال له — فقد استجمَعَ قُواه مرةً أخرى وصرَخَ قبل أن يُحملِق في الفراغ أمامه: «فلْيسقط الأعداء داخلَ الحزب!» مُعترِفًا بذلك أنَّه يعرف خبَرَ اعتقال «ص». ولكنَّ أحدًا لم يُعرْهُ انتباهًا. تعوَّدوا على خوفه الذي كان يُجبره على قول هذه الجملة أو تلك. في كلِّ اجتماعٍ للأمانة السياسية كان يرى سقوطه قريبًا؛ فكان يَشرَع يرثي ذاته مهاجِمًا بعنف أحدَ الحاضرين دون أن يحدِّد مَن يعني بهجومه.

حدَّقَ «ش» في وزير الدفاع «د» الذي كانت قطراتُ العرَقِ تتلألأ على جبينه، شاعرًا بالعرَقِ يُندي جبينه هو أيضًا. فكَّر في زجاجات البوردو التي كان يريد إهداءها إلى «ح» دون أن يستطيع ذلك؛ لأنه لم يكُنْ قد اقتناها بعدُ. بدأ الأمرُ على النحو التالي: يحبُّ رئيس الحزب «ث» نبيذَ البوردو، وقبل ثلاثة أسابيع استطاع «ش» أن ينظِّم عدَّة طلبياتٍ من النبيذ بمناسبة المؤتمر العالمي لوزراء البريد في باريس. كان الزميل الباريسي يحبُّ الشنابس المحليَّ الذي قام «ش» بتوريده إليه في المقابل. ليس معنى ذلك أنَّ «ش» هو الوحيد الذي يستطيع تزويدَ «ث» ذي النفوذ بنبيذِ البوردو. يقوم وزير الخارجية «ب» بالشيءِ نَفْسه. غيرَ أنَّ لُطفَ «ش» كانت عاقبتُه أنَّه حصَلَ هو أيضًا من «ب» على زُجاجاتِ بوردو هديةً؛

لسببٍ بسيط وهو أنَّ «ش» — حتى لا يبدو أنه خطَّطَ لكلِّ شيء — ادَّعى أنَّه هو أيضًا يعشق البوردو، رغم أنَّه لا يحبُّ النبيذ. وعندما اكتشَفَ «ش» أنَّ «ح»، بطل الدولة في شُرْب الشنابس، المُسيطِرَ على الصناعة الثقيلة في البلاد، والذي منحه «أ» لقَبَ «ماسح الأحذية»؛ لا يستهلك خفيةً إلا البوردو، وذلك بناءً على نصيحةِ أطبَّائه بسبب إصابته بالسكري، فقد تردَّد طويلًا قبل أن يُهدي «ح» نبيذ البوردو أيضًا؛ لأنه بذلك يعترف أنَّه يعرف بمرض «ح». غيرَ أنَّه قال لنَفْسه: بالتأكيد يعرف أعضاءٌ آخرون في الأمانة ذلك. لقد استمدَّ معلوماته من مدير المخابرات «ت»، ولم يكُنْ مرجِّحًا أنَّ الأخير لم ينشُر الخبر بين بقيَّة الأعضاء. لذلك قرَّر أن يترك لـ «ح» صندوقًا من «اللافيت ٤٥». وسرعان ما قام وزير الصناعة الثقيلة بردِّ الهدية. كانت هدايا ماسحِ الأحذية تتمتع بالشُّهرة. لم يحترسْ «ش» وفتَحَ الطَّرد على مائدةِ الطعام مع العائلة. كان الطَّرد يحتوي على بَكرةِ فيلم، أمَرَ «ش» — عن جهلٍ بمحتواها وبعد أن ضلَّله العُنوان «مشاهد من الثورة الفرنسية»، واستجابةً لرجاء زوجته وأطفاله — بوضْعِها في جهاز العرض السينمائي المنزلي. كان فيلمًا إباحيًّا. عرَفَ «ش» فيما بعدُ أنَّ الأعضاء الآخرين في الأمانة السياسية يتلقَّون هُم أيضًا أحيانًا هدايا مُماثِلة. مع أنَّ الكلَّ يعرف أنَّ «ح» لم يكُنْ يَهوَى البورنوغرافيا. كان يُهدي الأفلام الإباحية حتى تتوافر بين يدَيه وسيلةُ ضغط، مُتظاهِرًا بأنَّ متلقِّي الهدية يحبُّ البورنو. «قُل لي، هل أعجَبَك الفيلم القصير القَذِر؟» سأل «ش» في أحد الأيام التالية، «صحيحٌ أنَّه ليس على ذوقي أنا، لكنني أعرف أنَّك تحبُّ مثلَ هذه الأشياء». لم يَجرُؤ «ش» على الاعتراض. ثم أرسل إلى ماسح الأحذية على سبيل الشكر صندوق «شاتو باب كليمنت ٣٤». وهكذا كانت الأفلام البورنوغرافية تتراكم لدى «ش»، الذي لم يكُنْ يَسكَر ولا ينغمس في الشهوات الإيروتيكية إلا باعتدال، وفي الوقت ذاته كان يرى نَفْسه مُجبَرًا على اقتناء المزيد من البوردو؛ إذ إنَّ الشحنات الباريسية لم تكُنْ تأتيه إلا مرتَين في السنة، والزجاجات التي كان يحصل عليها من «ب» هديةً، لم يكن يجرُؤ على إرسالها إلى «ح». صحيحٌ أنَّ العَلاقة بين وزير الخارجية ووزير الصناعة الثقيلة اتَّسمتْ بالعداوة، ولكنْ من الممكن أن يحدُث انتقالٌ من جبهةٍ إلى أخرى. ما أكثرَ ما انقلبتْ عداواتٌ غير شخصيةٍ إلى صداقاتٍ حميمة عبْرَ مصالحَ مشترَكةٍ ظهرتْ فجأة. كان «ش» مُكرَهًا على التقرُّب من وزير التجارة الخارجية «ج» وكسْبِ ثقته. ثم اتَّضح أنَّ الأخير يُهدي كلًّا من الخنزير البريِّ وماسح الأحذية نبيذَ البوردو. صحيحٌ أنَّه كان يودُّ مساعدةَ «ش» عبْرَ علاقاته التجارية الخارجية، ولكنْ ليس على الدوام. ظنَّ

«ش» أنَّ ثمَّة آخرين يقومون بإرسال الهدايا إلى «ث» و«ح»؛ فيكافئهم «ح» بأشياءَ يمكن أن تُستخدم ضدَّهم.

أمام «ش» جلستْ «س»، «مُلهِمة الحزب». كانت وزيرة التربية شقراءَ وقويةَ البِنية. في أثناء جلسةِ الهيئة السياسية علَّق «أ» ذات مرة على نَهدَيها واصفًا إياهما بسلسلةِ جبالٍ عالية، ثم تنبَّأ بأنَّ رئيس الحزب سيسقط من القمَّة ويَلقَى حتفه. بدتْ مُلهِمة الحزب آنذاك في مظهرٍ بالِغِ التأنُّق، وبِنِكَاتِه الفجَّة الخارجة عن الأعراف، راح «أ» يهدِّد الخنزير البري. كانت الشائعات تحوم حول «ث» باعتباره عشيقًا لـ «س». ومنذئذٍ لم تكن «س» ترتدي عندما تذهب إلى جلسات الأمانة السياسية العامة للحزب إلا فستانًا بسيطًا طويلًا رَماديَّ اللون. ولأنَّها ظهرت اليومَ بفستانٍ سهرةٍ أسودَ قصيرٍ وذي فتحةِ صدرٍ واسعة؛ فقَدْ أصيب «ش» بارتباك، لا سيما وأنَّها كانت ترتدي حُليًّا. لا بد أنَّ هناك مناسبةً خاصة. لا بد أنَّها كانت تعرف أيضًا خبَرَ اعتقالِ «ص». ولكنَّ السؤالَ المطروح هو: هل تريد مُلهِمة الحزب أن تُبدي بفستانها التحفُّظ تجاه «ث»، وذلك بأنْ تسلك سلوكًا غيرَ مبالٍ، أم أنَّها كانت تهدف بجرأةِ اليائسين إلى استعراض كونها عشيقته؟ لم يحصُل «ش» على ردٍّ من رئيس الحزب «ث»؛ إذ بدا أنَّ «ث» لا يُبالي بـ «س». كان يجلس الآن في مكانه مُستغرِقًا في دراسةِ أحَدِ التقارير.

ازداد الالْتباس في معنى اختيار «س» لملابسها عندما دخَلَ الغرفة ماسح الأحذية، «ح» وزير الصناعة الثقيلة البدين القصير. توجَّه مُسرِعًا دون أن يهتمَّ بالآخرين إلى مُلهِمة الحزب صائحًا، يا له من فستان! ساحر، رائع، شيء مختلف عن تلك الأزياء المملَّة التي يرتديها أعضاء الحزب. فلْتذهب الأزياء الرسمية إلى الجحيم. حملَقَ الجميع في «ح» الذي واصَلَ شارحًا السببَ الحقيقي لقيام الثورة التي قضتْ على حُكم الأثرياء ومصاصي الدماء وشنَقَت الإقطاعيين على أشجارِ الكرز. «حتى ينتشر الجَمال»، صاح وهو يَحضُن وزيرةَ التربية ويقبِّلها كأنَّها عاهرةٌ ريفية. «فليحيا العُمال!» قالها ثم جلَسَ بين «ث» و«د» اللَّذينِ ابتعدا بمقعدَيهما عنه قليلًا؛ لأنهما ظنَّا — مثل «ش» — أنَّ وزير الصناعة الثقيلة يُطلق دعاباته الدموية لأنَّه كان يعرف أن اختفاء «ص» لكمةٌ في وجه كبير المنظِّرين، أيْ في وجهه هو شخصيًّا. رغم أنَّه من الممكن أيضًا أن يكون تعجرُفُ «ح» ليس مُصطنَعًا؛ لأنَّه يعرف الخبرَ اليقين، يعرف أنَّ من المتوقَّع سقوطَ أمين عام الحزب.

ثم ظهَرَ «ب» (لم يَلحَظ «ش» إلا الآن أنَّ ض، رئيس مجموعات الشَّبيبة، قد جلَسَ منذ فترةٍ بجانبه؛ رَجلٌ حزبيٌّ مُجتهِد، خوَّافٌ، شاحبُ اللون، ذو نَظَّارة، يجيء ويذهب دون أنْ

يلاحِظَه أحد). بهدوء سار «ب» إلى مكانه، ووضَعَ حقيبةَ أوراقه على الطاولة، ثم جلس. عندئذٍ جلَسَ أيضًا كبيرُ المنظِّرين ووزير الزراعة «ذ» اللذان كانا لا يزالان واقفَين. لم يكُنْ هناك شكٌّ في قوة وزير الخارجية «ب» وهيبته، رغم كراهيتهم له جميعًا. كان متفوقًا على الجميع. في الحقيقة كان «ش» يكِنُّ له الإعجاب. إذا كان أمين عام الحزب يتميز بالذكاء والقدرة التنظيمية، وإذا كان وزير الصناعة الثقيلة يمارس العنف بالغريزة والاحتيال، وإذا كان كبير المنظِّرين هو مؤسس نظريات الحزب؛ فإن وزير الخارجية عنصرٌ لا يمكن تعريفه في هيئة السُّلطة إلا بالكاد. يجمعه بـ «ج» و«ش» الإتقان التام لفرع اختصاصه. كان وزير خارجية مثاليًّا. ولكن، خلافًا لـ «ج» و«ش»، كان قد أصبح ذا سُلطة في الحزب دون أن يتورط في صراعاتٍ داخلية مثل «ث» و«خ». كما أنه يتمتع بالنفوذ خارج دائرة الحزب. لم يكُنْ يعرف سوى واجبه. هذا ما منَحَه السلطان. لم يكُنْ خائنًا، غير أنَّه لم يرتبط بأحد، حتى على الصعيد الشخصي، لذا ظلَّ أعزب. معتدلٌ في طعامه وشرابه؛ في الولائم كأس شمبانيا، هذا هو كلُّ شيء. يتحدث الألمانية والإنجليزية والفرنسية والروسية والإيطالية بطلاقةٍ تامة، دراسته عن جوليه مازاره وعرضه للممالك الهندية المبكِّرة تُرجمت إلى لغاتٍ عديدة، وكذلك مقالته عن نظام الأعداد لدى الصينيين. كما شاعتْ ترجماتٌ قام بها لأشعارِ ريلكه وشتفان غيورغه. ولكنَّ أشهرَ ما نشَرَه كتابُ «دروس في علم الانقلابات» ولذلك أطلقوا عليه «كلاوزفيتس الثورة».[٣] الاستغناء عنه مستحيلٌ؛ ولهذا كانوا يكرهونه، لا سيما «أ» الذي أطلق عليه «المخصي»، وهي تسميةٌ أخَذَها عنه كل الأعضاء. ولكن حتى «أ» لم يكن يجرُؤ في حضور «ب» على مناداته بتلك التسمية. عندئذٍ كان «أ» يطلق عليه «الصديق «ب»» فحسب، أو — إذا كان عاجزًا عن السيطرة على نَفْسه — «عبقري الحزب». خلافًا لهم كان «ب» يبدأ الكلام الذي يوجهه إلى أعضاء الأمانة العامة بـ «سيداتي، سادتي»، وكأنه يتحدث في جمعيةٍ بُرجوازية. «سيداتي، ساداتي»، هكذا بدَأَ حديثَه اليوم أيضًا بمجرد جلوسه، وعلى خلاف عادته راح يتكلَّمُ دون أن يَطلُب منه أحدٌ: «سيداتي، سادتي، ربما من المهمِّ أن نسجل أن وزير الذرَّة «ص» لم يَظهَر». ران الصمت. تناوَلَ «ب» من حقيبته عددًا

[٣] كارل فيليب كلاوزفيتس (١٧٨٠–١٨٣١م): جنرالٌ برويسي ومنظِّرٌ عسكري، كتَبَ عدَّة مؤلفاتٍ من أشهرها «عن الحرب»، وبهذا المرجع أصبح مؤسِّسًا لعلم الحروب الحديثة. وترتكز نظرياته على دراسة وتحليل المعارك التي قادها فريدريش الأكبر ونابليون. ومن بين مَن تأثَّرَ بمؤلفات كلاوزفيتس الزعيمُ الروسي لينين. (المترجِم)

من الأوراق، ثم شرَعَ يقرؤها، ولم يتفوَّه بكلمةٍ بعد ذلك. شعَرَ «ش» كيف بدأ الخوفُ يَسري في أوصال الجميع. اعتقال «ص» لم يكُنْ شائعةً إذن. لم يقصد «ب» بكلامه شيئًا آخر. كان يعلم دومًا أن «ص» خائن، أعلَنَ رئيس الدولة «ر»، ثم أضاف أن «ص» مثقف، وكل المثقفين خوَنَة، فصرَخَ المارشال «د» مرةً أخرى: «فلْيسقط الأعداء داخل الحزب!». لم يصدُر ردُّ فعلٍ إلا من «الجِنكيزخانَين»، أمَّا الآخرون فتصنَّعوا عدمَ الاكتراث، فيما عدا «ث» الذي أطلَقَ على الجميع بصوتٍ مسموع: «أغبياء»، ولكن بدا أنَّ الآخرين لم يُلاحظوا ذلك. فتَحَتْ ملهِمة الحزب حقيبةَ يدها وبدأتْ في مسحِ وجهها بالبودرة. راح وزير التجارة الخارجية ينظُر في الملفات، بينما تطلَّع وزير الصناعة الثقيلة إلى أظافره، وأخَذَ وزير الزراعة يُحملِق أمامه، واستغرَقَ كبير المنظِّرين في تدوين ملاحظاته، أمَّا وزير النقل والمواصلات فبدا في تلك اللحظات مستحقًّا تمامًا للَقَبه: النُّصُب التِّذكاري الراسخ.

دخَلَ «أ» و«ت» غرفة الاجتماعات. ليس عبْرَ الباب الذي يقع خلْفَ وزير الصناعة الثقيلة ووزير الدفاع، بل عبْرَ الباب الموجود خلْفَ كبيرِ المنظِّرين ووزير الزراعة. كان «ت» يرتدي كالمعتاد بدلةً زرقاءَ رثَّة، أمَّا «أ» فيرتدي زِيَّه الرسمي، ولكنْ بدون أوسمة. جلَسَ «ت»، وظلَّ «أ» واقفًا خلْفَ مقعده وراح يحشو غَليُونه بعناية. بدأ نجم «ت» المِهنيُّ يسطع في أثناء عمله في منظمات الشَّبيبة، ثم شقَّ طريقه حتى وصَلَ إلى كُرسي الرئيس، عندئذٍ أُقصي عن منصبه. ليس لأسبابٍ سياسية، الشكاوى كانت من نوعٍ آخر. بعد ذلك ظلَّ مختفيًا. تقول الشائعات إنَّه عاش عيشةَ الكلاب في أحد المعسكرات العقابية، لم يعرف أحدٌ تفاصيل أكثر، وفجأةً ظهَرَ من جديد، وتبوَّأ منصب مدير المخابرات. كان من الثابت أنَّه متورِّط الآن أيضًا في فضائح شذوذٍ جنسي. كان «أ» وحشيًّا عندما أطلَقَ عليه «خالة الدولة»، ولكنَّ أحدًا لم يجرؤ على الاعتراض على اختياره. كان «ت» فارِعَ القامة، أصلعَ ويميل قليلًا إلى البَدانة. إنَّه أساسًا موسيقيٌّ، حائزٌ على دبلوم في الحفلات الموسيقية. إذا كان «ب» ممثِّلًا لطبقة النبلاء في الأمانة العامة؛ فإنَّ «ت» يمثِّل البوهيمية. ظلَّ الظلام يخيِّم على بداياته في الحزب. وحشية أساليبه كانت مشهورةً، والإرهاب الذي كان ينشُرُه واضحٌ للعيان. إنه مسئول عن مصرع عددٍ لا يُحصى، تحت قيادته اكتسَبَ جهاز المخابرات مزيدًا من السُّلطة، وانتشرتْ أعمال الرقابة والتنصُّت أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كثيرون اعتبروه ساديًّا، عديدون اعترضوا على ذلك. كانوا يدَّعون أنه ليس أمام «ت» أيُّ اختيارٍ آخر؛ إذ إن «أ» يُحكِم قبضته عليه، وإذا لم يقدِّم «ت» فروض الولاء والطاعة؛ فإن المحكمة في انتظاره. إنَّ مدير المخابرات، هكذا يقولون، يحبُّ في الحقيقة الجمال، ويحتقر وظيفته،

ويكره الوسط الذي يعمل فيه، لكنه مرغَم على ممارسة عمله إنقاذًا لحياته وحياة أصدقائه. «ت» لطيفُ المعشَر وودودٌ على الصعيد الشخصي. كان يبدو لطيفًا، بل في كثيرٍ من الأحيان خجولًا. بدا «ت» — الذي كان يمارس مهامَّه داخل الحزب والدولة بقسوةٍ لا تَرحم — الرَّجُل الخطأ في المكان الخطأ؛ وربما لذلك كان الاحتياج إليه كبيرًا.

على العكس منه كان «أ» يتَّسم بالبساطة. في بساطته تكمُن قوَّته. نشَأَ وترعرع في البراري، أصله من البدو الرُّحَّل، لم ينظُر إلى السُّلطة باعتبارها مشكلةً، أمَّا العنف فهو شيءٌ طبيعي. يحيا منذ سنواتٍ في بِنايةٍ بسيطةٍ تُشبه الخندق، تختفي في غابةٍ خارجَ العاصمة، تحرسه سريةٌ عسكرية، وتقوم على خدمته طبَّاخةٌ عجوز، هي والعسكر من المنطقة التي يتحدَّر منها «أ». لم يكُنْ يخرج من منزله إلا لزيارةِ رؤساء الدول الأجنبية أو رؤساء الأحزاب، أو للذهاب إلى جلسات الأمانة السياسية للحزب. لم يكُنْ يذهب إلى حفلات الاستقبال إلا قليلًا، غير أنَّ كلَّ عضوٍ من أعضاء الأمانة كان عليه أن يزوره ثلاثَ مرَّاتٍ في مقرِّه السكني لتقديم التقارير؛ عندئذٍ يستقبل «أ» الشخصَ المعنيَّ، صيفًا في شُرفته المزودة بالمقاعد المصنوعة من الخيزران، وشتاءً في مكتبه الذي لم يكُنْ يحوي سوى جداريَّةٍ ضخمةٍ تُصوِّر قريته، مسقط رأسه. صورةٌ ميتةٌ لا يبثُّ الحياةَ فيها إلا عددٌ من الفلَّاحين. عدا الصورة لم يكُنْ في الغرفة سوى مكتبٍ أكثرَ ضخامة، وخلْفَه يجلس «أ»، أمَّا الزائر فيتحتَّم عليه أن يظلَّ واقفًا. سبق لـ «أ» الزواج أربع مرَّاتٍ. وافت المَنيَّة ثلاثًا من زوجاته، أمَّا الرابعة فلَمْ يكُنْ يعرف أحدٌ ما إذا كانت على قيد الحياة، أو مكانَ إقامتها إذا كانت لا تزال حيَّةً. لم يُنجب سوى ابنةٍ واحدة. في بعض الأحيان كان يأمُرُ بإحضار فتياتٍ من المدينة، وكان يُومئ لهنَّ فحسب، ولا يطلُب منهنَّ سوى أن يشاهدْنَ معه أفلامًا أمريكية لساعاتٍ طويلة. عندئذٍ كان يستغرق في النوم على كُرسيِّه ذي المساند، ويُسمح عندئذٍ للفتيات بالانصراف. مرةً في الشهر كان يأمر بإغلاق أبواب المتحف الوطني، ثم يتجوَّل ساعات في قاعاته. لم يتفرجْ يومًا على أعمالٍ من الفنِّ الحديث. كان يقِفُ خاشعًا أمام الأعمال البُرجوازية التاريخية الضخمة، أمام اللوحاتِ التي تصوِّر المعارك، أو أمام القياصرة المتجهِّمين الذين كانوا يحكمون على أولادهم بالإعدام، يتأمَّل الحفلات الماجِنَة العِربيدة للفُرسان السُّكارى، والزحَّافات التي تجرُّها الخيل مسرِعةً في البراري والذئاب في أعقابها. كان ذوقه الموسيقي يتَّسم كذلك بالبدائية. إنَّه يعشق الأغاني الشعبية العاطفية التي كان في عيد ميلاده يأمر كورالَ قريته بإنشادها بزِيِّه التقليدي.

أَخَذَ ينفخ دُخان غَليُونه متأمِّلًا وجوهَ الجالسين. كان العَجَب يستولي على «ش»؛ لأن «أ» في الحقيقة نحيفٌ ولا يَلفتُ النظر إطلاقًا، غيرَ أنَّه كان يبدو في الصور وعلى شاشة التلفزيون عريضًا قصيرَ القامة. جلَسَ «أ» وشرَعَ يتحدث ببطءٍ وصعوبة، متلعثِمًا ومكرِّرًا ما يقوله. حديثُه منطقيٌّ على نحوٍ يغيظ. بدأ بتأمُّلٍ عامٍّ للوضع. جلَسَ أعضاء الأمانة السياسية الاثنا عشَرَ والمرشَّح ض متخشِّبين في أماكنهم، متربِّصين، على الوجوه قناعٌ شمعي. لقد تلقَّوا التحذير. عندما يخطط «أ» لشيءٍ، فإنه يبدأ كلامه بتأمُّلاتٍ معقَّدة عن تطوُّر الثورة. بدا وكأنَّه يريد الرجوعَ إلى الوراء كثيرًا، حتى يصوِّبَ في النهاية ضرباته القاتلة. وهكذا راح يستفيض في الشرح بلهجةِ معلِّم. إنَّ هدف الحزب هو تغيير المجتمع، ما تمَّ التوصُّل إليه هائل، كما أنَّ الحزب نجَحَ في تنفيذ المبادئ التي جعَلَت النظام الجديد ممكِنًا، ولكنَّ الناس لم يعتادوا عليها بعدُ، لقد أُرغموا على اعتناقها، ما زال الشعبُ يفكِّر بالعقلية القديمة، ما زال سجينَ خرافاته وأحكامه المُسبقة، مصابًا بجرثومةِ الفردية، وما زال يحاول كسْرَ طوقِ النظام الجديد للوصول إلى شكلٍ جديدٍ من أشكال الأنانية. لم تتمَّ تربيةُ الشعب بعدُ، ما زالت الثورةُ لا تعني إلا القلائل، لا تعني إلا العقول الثورية، وما زالتْ بعيدةً عن الجماهير؛ صحيحٌ أنَّ الجماهير بدأتْ بالسَّير على طريق الثورة، ولكنْ ما أسهلَ أن ترتدَّ عنه! ما زال النظام الثوري يستطيع الدفاع عن نَفْسه بالقوة، وما زالت الثورة تستطيع فرْضَ نَفْسها عبْرَ طُغيان الحزب، ولكنْ حتى الحزب سيتفكَّك وينحلُّ إذا لم يكُنْ منظَّمًا من أعلى إلى أسفل، ولذلك كان تأسيسُ الأمانة السياسية حتميَّةً تاريخية. توقَّفَ «أ» عن شرحه، وانهمَكَ في إشعال غَليُونه مرةً أخرى. المحاضرة التي راح «أ» يُلقيها، فكَّر «ش»، كانت من مبادئ الحزب الشائعة، فلماذا أخذ «أ» يتحدَّث وكأنَّه في مدرسةٍ حزبية، قبل أن يأتي على ذِكر الشيءِ المهمِّ، الخطير؟ أينما ذهَبَ المرءُ، فإنَّه لا يسمع سوى العباراتِ النمطية المحفوظة. مثلَ صلاةٍ لا تنتهي تُكرَّر المبادئ السياسية، وبالارتكاز عليها، وباسم الحزب، راح «أ» يوطِّد أركانَ سُلطته. في تلك الأثناء كان «أ» قد وصَلَ إلى لُب الموضوع. أَخَذَ يستعدُّ الآن لتوجيه الضربة. كلُّ تقدُّمٍ تمَّ تحقيقُه في اتجاه الهدف النهائي — واصل «أ» محاضرته وكأنَّه يقول كلامًا عاديًّا، دون أن يغيِّر من نبراتِ صوته — يتطلَّب تغييرًا في هيكل الحزب. لقد رسَّخت الدولة الجديدة مكانتها، الوزاراتُ مقسَّمة وَفقَ المجالات المختلفة، إلا أنَّ الدولة الجديدة تقدُّمية في جوهرها، دكتاتورية في شكلها. إنَّها تعبيرٌ عن الحتميَّة العملية التي يواجهها الحزبُ خارجيًّا وداخليًّا؛ لكنَّ الحزبَ كأداةٍ أيديولوجية لا بد أنْ يقوم — إذا حان الوقت — بتغيير الدولة، ورغم الاحتياجات العملية التي تتعارض مع

ذلك؛ إن الدولة — كدولة — لا تستطيع تثويرَ نَفْسها، الحزب وحده هو القادر على ذلك، الحزب المسيطِر على الدولة. الحزب فقط يستطيع أن يفرض تغيير الدولة وفقَ احتياجات الثورة؛ ولهذا السبب تحديدًا يجب على الحزب ألَّا يتجمَّد وألَّا تُشلَّ حركته، على هياكله أن تتغيَّر وفقَ المرحلة الثورية التي تمَّ التوصُّل إليها. في اللحظة الراهنة ما زال هيكل الحزب يتَّسم بالهرمية، وما زالتْ قيادته تتمُّ من أعلى، وهو ما يتطابق مع فترة الكفاح والنضال التي مرَّ الحزب بها؛ غيرَ أنَّ تلك الفترةَ انتهتْ وولَّت. لقد انتصَرَ الحزبُ، وهو يُمسك الآن بزِمام السُّلطة، الخطوة التالية هي دمقرطة الحزب، وهو ما يعني بَدء عملية الدمقرطة في الدولة كلها؛ ولكن الحزب لا يمكن دمقرطته إلا إذا تمَّ إلغاء الأمانة السياسية، ومنْحُ سُلطتها إلى برلمانٍ حزبي موسَّع؛ لأن الهدف الوحيد من الأمانة السياسية هو استخدام الحزب كسلاحٍ ماضٍ في وجه النظام القديم، وهي المهمة التي أُنجزت، فلَمْ يعُدْ للنظام القديم قائمة؛ ولهذا يُمكن الآن تصفية الأمانة السياسية.

أدرك «ش» الخطر. إنَّه يُهدِّد الجميعَ على نحوٍ غيرِ مباشِر، ولا يهدِّد أحدًا مباشرةً. أتى اقتراح «أ» مفاجئًا. لم تكُنْ هناك أيُّ بوادر في الأفق تُشير إلى أنَّ «أ» سيقترح شيئًا مشابِهًا. الاقتراح ثمرةُ تكتيكٍ هدفُه مفاجأة الخصم بغيرِ المتوقَّع. كان شرحُ «أ» المُسهَب مُلتبِسًا، أمَّا هدفه فواضحٌ وجلي. كان خطابه منطقيًّا في الظاهر، ألقاه بالأسلوب الثوري التقليدي، خطابٌ شُذِّب وهُذِّب خلال اجتماعاتِ فترة النضال التي لا تُحصى، السرِّيَّة والعلنية. ولكن الخطاب تضمَّن في الواقع تناقُضًا، وفي هذا التناقض تكمُن الحقيقة: يريد «أ» تجريد الحزب من سُلطته عبْرَ دمقرطته، وهي عمليةٌ تُتيح له إسقاطَ الأمانة السياسية، وتنصيبَ نَفْسه سُلطةً أحاديَّة، مموِّهًا نيته عبْرَ برلمانٍ وهمي، إنه يريد نفوذًا أكبرَ من أيِّ يومٍ مضى، ولذلك تحدَّث في البداية عن حتميَّة العُنف. لم يكُنْ من المؤكَّد حدوثُ عمليةِ تطهيرٍ جديدة. ولكنَّ حلَّ الأمانة السياسية العامة للحزب لا يمكن أن يحدث دون تطهير. بَيدَ أنَّ «أ» ينزع إلى تصفية كلِّ عنصرٍ يشتبه في أنَّه سيُهدِّد — بالمقاومة — سُلطته الأحادية. من المرجَّح بعد اعتقال «ص» أن يظنَّ «أ» أن هذه العناصر موجودةٌ في الأمانة السياسية. ثم سأل «ش» نَفْسه: هل يمثِّل خطرًا على «أ»؟ وإلى أيِّ حدٍّ سيعني حلُّ الأمانة السياسية سقوطَهُ هو وزيرًا للبريد (لم يكُنْ يستطيع أن يتذكَّر في تلك اللحظة شيئًا في صالحه سوى طوابعِ مؤتمر السلام)؟ قبل أن يستطيع الإجابةَ عن هذه الأسئلة؛ حدَثَ شيءٌ غير متوقَّع.

أفرغ «أ» غَليُونه ودقَّ عليه، وهي علامةٌ على أنَّه يَعتبر جلسةَ الأمانة السياسية قد انتهتْ، وأنَّه لا يرغب في نقاشات. عندئذٍ بدأ وزير المواصلات «ز» يتكلم دون أن يَطلب الإذنَ بالكلام. نهَضَ وزير المواصلات بجهدٍ جهيد. يبدو أن سُكره قد استفحل. أشار — بلسانٍ ثقيلٍ متلعثِم — إلى غيابِ «ص»، ولهذا ما كان لجلسة الأمانة السياسية أن تبدأ على الإطلاق. يا لَخسارةِ الخُطبة العظيمة، ولكنَّ اللوائح هي اللوائح، وهي تسري حتى على الثُّوَّار. عقَدَت الدهشة لسانَ الجميع، فحملَقُوا في النُّصُب التِّذكاري الذي مال على الطاولة وارتكَزَ عليها بذراعَيه، ورغم ذلك ظلَّ يتأرجح، ثم سدَّد نظراتٍ متفحِّصَةً إلى «أ» تشيع منها روح النزال. كان وجهه — ذو الحواجب البيضاء الكثيفة وشَعر الذقن الأشيب النابت — شاحبًا مثل قناع. حجة «ز» بَلهاء، وإن كانت صحيحةً شكلًا؛ فالحجة لا معنى لها. من خلال خطاب «أ» المسهَب بدأت الجلسةُ بالفعل، كما أنَّ وزير النقل والمواصلات تصرَّفَ باعتراضه وكأنَّه لا يعرف شيئًا عن أمْرِ «ص» وعن اعتقاله — هو شخصيًّا — المحتمَل وشيكًا. ولكنَّ ما أدهش «ش» هو النظرة السريعة التي أرسلها «أ» — بعد أن حشا غَليُونه ثانيةً — إلى «ت». وشتْ نظرةُ «أ» باندهاشٍ غريب، وهو ما حمَلَ «ش» على الظنِّ بأنَّ «أ» هو الوحيد الذي لا يعرف أنَّ الجميع يعرفون خبرَ اعتقالِ «ص»، وهو ما يطرح السؤال التالي: هل منشأ خبرِ اعتقال «ص» مديرُ المخابرات نَفْسُه، وضِد رغبة «أ»؟ وهل عقَدَ وزير الخارجية «ب»، الذي ذكَرَ أمام جميع أعضاء الأمانة السياسية أن «ص» لم يَظهَر، تحالُفًا مع «ت»؟ إنَّ ظنون «ش» لم يتمَّ دحضها دحضًا تامًّا عبْرَ ردِّ «أ» الذي قال، وهو ينفث سحاب تَبْغه الإنجليزي، Balkan Sobranie Smoking Mixture: ليس من المهم إطلاقًا إذا ظهَرَ «ص» أو لم يظهر، كما أنَّ سبب عدم حضوره لا يَعني أحدًا، إنَّ «ص» محضُ مرشَّح للعضوية لا يحقُّ له التصويت، والجلسة الحالية ليس لها سوى أن تُقرِّر حلَّ الأمانة السياسية، وهو ما قرَّرتُه؛ إذ لم يعترضْ أحدٌ، ولإصدار هذا القرار ليس هناك ضرورةٌ لحضور «ص».

أراد «ز» أن يغوص في مقعده مرةً أخرى، بعد أن فقَدَ جسارته فجأةً وشعَرَ بالتعب كما هو معتادٌ لدى السُّكارى، عندئذٍ قال مديرُ المخابرات بنبرةٍ جافَّة: إن وزير الذَّرَّة، كما هو واضحٌ، لم يستطع الحضورَ لمرَضِه. أكذوبةٌ مفضوحة، لم يكُنْ لها من غرضٍ — إذا كان «ت» هو الذي نشَرَ بالفعل خبر اعتقال «ص» — سوى إثارةِ أعصاب «ز» مرةً أخرى تمهيدًا لاعتقاله. «مريض؟» هكذا صرَخَ «ز» على الفور، مستنِدًا على ساعده الأيسر وضاربًا بقبضته اليمنى على الطاولة: «مريضٌ، فعلًا مريض؟» «ربما»، كرَّر «ت» ببرودٍ

ثم أَخَذَ يرتِّب بعض الأوراق. خفَّفَ «ز» من قوة ضربات قبضته على الطاولة، وجلَسَ — وقد أخرسه الغضب — في إطار الباب، خلْفَ «ح» و«د». ظهَرَ العقيد، وهو أمرٌ خالَفَ كلَّ ما تعوَّدوا عليه؛ إذ لم يكن يحقُّ لأيِّ إنسانٍ أن يدخُل الغرفة في أثناء انعقاد جلسة للأمانة السياسية. لا بد أنَّ ظهور العقيد يعني شيئًا خاصًّا، إشارةٌ تحذيرٌ، مصيبةٌ، نبأٌ عظيمُ الأهمية. ولذلك كانت المفاجأة أكبرَ عندما عرفوا أن العقيد لم يأتِ سوى ليطلُب من «ز» أن يخرج معه لأمرٍ شخصي مُلحٍّ. «اغرُبْ عن وجهي»، صرَخَ «ز» في وجه العقيد الذي أطاع مترددًا، بعد أن تبادَلَ النظر مع مدير المخابرات، وكأنَّه ينتظر منه مساعدةً، لكنَّ «ت» لم يزلْ مشغولًا بأوراقه. ضحِكَ «أ» وقال بطِيبةٍ وسُخرية، وبِلُغته الخشِنَة: إنَّ «ز» أفرَطَ مرةً أخرى في الشراب. كان يستخدم هذه اللغة عندما يكون مزاجه رائقًا. إنَّ على «ز» أن يخرج ويقضي شئونه الخاصة، فربما وضعتْ إحدى عشيقاته طفلًا. انفجَرَ الجميع في القهقهة، ليس لأنَّهم وجدُوا كلماتِ «أ» مضحكةً، بل لأنَّ التوتُّر بلَغَ ذِروته، ولذلك كان كلٌّ منهم يبحث عن متنفَّس، كما أنَّهم بشعورٍ لا واعٍ أرادوا أن يسهِّلوا على «ز» طريقَ الرجوع. عبْرَ الهاتف الداخلي طلَبَ «أ» من العقيد الدخول مرةً أخرى. ظهَرَ العقيد من جديد، فسأله «أ» عمَّا أحضره، فأجاب بعد أداء التحية العسكرية أنَّ زوجةَ وزير النقل والمواصلات ترقُد على فِراش الموت. فأمَرَه «أ» بالانصراف مرةً أخرى. فمضى العقيد. «اذهب يا «ز»!» قال «أ» مضيفًا: «ما قُلتُه عن العشيقات كان مزاحًا ثقيلًا. إنني أسحب ما قلتُ. أعرفُ أن أمْرَ زوجتكَ يُهمُّك. اذهبْ إليها؛ فالجلسة قد انتهتْ على كلِّ حال». رغم أن كلمات «أ» بدتْ مفعَمة بالإنسانية؛ فإنَّ خوفَ وزير النقل والمواصلات كان هائلًا، لذا لم يصدِّق ما سمِعَ. في يأسه وسُكره لم يعرف النُّصُب التِّذكاري إلا شيئًا واحدًا: الهروب إلى الأمام. صرَخَ قائلًا — بعد أن استند واقفًا — إنَّه ثوريٌّ قديم، صحيحٌ أن زوجته ترقد في المستشفى، ولكنَّ هذا شيءٌ يعلَمُه الجميع، وهو لن يسقط في الفخ. إنَّه عضوٌ في الحزب منذ البداية، قبل «أ» وقبل «ت» وقبل «ب» الذين ليسوا سوى متسلِّقين بائسين. لقد خدَمَ الحزب عندما كانت العضوية أمرًا خطيرًا يهدِّد حياة الإنسان. لقد سُجن في سجونٍ بائسةٍ عِفنَة، قُيِّد فيها بالسلاسل كالحيوان. الجرذانُ كانت تلعق أطرافَ قدمه الدامية. جرذان، صرَخَ المرةَ تلوَ الأخرى، جرذان! لقد دمَّر صحته في خدمة الحزب، وبسببه حكَمَ على نَفْسه بالموت. «كانت فرقة الإعدام قد انطلقت، يا رفاق»، قال باكيًا، «كانت تقِفُ أمامي». بعد الهرب، واصَلَ بلسانٍ متلعثِم: اختفى عن الأنظار، المرةَ بعد الأخرى، إلى أن قاد الثوريين بمسدس وقنبلةٍ يدوية وداهموا القصر. «بمسدس وقنبلةٍ كتبتَ فصلًا في كتاب التاريخ، تاريخ العالم»، زأَرَ

وزير النقل والمواصلات وقد فقَدَ السيطرةَ على نَفْسه. كان يأسه وغضبه يُثيران شعورًا بالعَظَمة، رغم سُكرِه وتدهورِ حاله بدا وكأنه قد غدا الثوريَّ القديمَ الشهير الذي كانَهُ يومًا. لقد حارب نظامًا فاسدًا وكاذبًا، مضحِّيًا بحياته في سبيل الحقيقة. واصَلَ خطبته العَصمَاء الفوضوية: لقد غيَّر العالم للأفضل، لم يكترث بالمعاناة والجوع والملاحقة والتعذيب، كان فخورًا بذلك؛ لأنه كان يعلم أنه يقِفُ في صفِّ الفقراء والمنهوبين. كان شعورًا رائعًا أن تقِفَ في الجانب الصحيح، ولكن الآن، وبعد أنْ نالوا النصر، وبعد أن تولَّى الحزبَ دفَّةُ السُّلطة، الآن لم يعُدْ فجأةً يقِفُ على الجانب الصحيح، فجأةً أصبح هو أيضًا يقِفُ في صفِّ ذوي النفوذ والسلطان. ثم صاح: «لقد أغوتْني السُّلطة يا رِفاق. كم من الجرائم تكتَّمتُ عنها؟ وكم من الأصدقاء خُنتُ، ووشيتُ بهم إلى المخابرات؟ هل أُواصل الصمت؟». لقد اعتقَلُوا «ص» — تابع كلامه وقد شحبَ وجهُه فجأةً وخفتَ صوتُه ونال منه التعبُ والإنهاك — هذه هي الحقيقة المعروفة للجميع، ولن يغادر الغرفة لأنَّهم سيعتقلونه أمام الباب؛ لأنَّ ما يُشيعونه عن احتضار زوجته مجرَّدُ أكذوبةٍ كي يخرج من غرفة الاجتماعات. وبهذه الكلمات التي أفصحتْ عن اشتباهٍ كانت أسبابه مفهومةً للجميع، انهَارَ على مقعده.

بينما كان «ز» يستهلك نقمته واعتراضه بعنادٍ مجنون، واعيًا بأنَّ وضْعَه ميئُوسٌ منه، متجاوِزًا كلَّ أشكالِ الحذَرِ التي بدتْ له عقيمة؛ وبينما تابَعَ الجميعُ بوجوهٍ متحجِّرةٍ هذه المسرحيةَ المرعِبة التي قدَّمَها عملاقٌ قبل سقوطه؛ وبين فتراتِ الصمت التي فصلتْ بين الجُمل الرهيبة المندفِعة من فم «ز»، استولى الخوفُ البائسُ على المارشال «د»، لقد خشي أن يجرفَهُ النُّصُب التِّذكاري في طريقه بعد انهياره، فلَمْ ينقطع عن الصياح: «فلْيسقط الأعداء داخل الحزب!» ثم تحدَّثَ رئيسُ الدولة أخيرًا، المارشال «ر»، وأعطى تصريحًا مفخَّمًا عن وفائه الأبدي لـ «أ»؛ وفي أثناء كلِّ ذلك استغرَقَ «ش» في التفكير، محاوِلًا التكهُّنَ بسلوك «أ». كان «أ» يجلس مسترخيًا يدخِّن غَليُونه. لم يلاحِظْ أحدٌ عليه شيئًا. ولكنْ حتمًا كان شيءٌ ما يعتمل داخله. صحيحٌ أنَّ «ش» لم يكُنْ يعرف إلى أيِّ حدٍّ يمكن أن يمثِّل اعتراضُ «ز» تهديدًا لـ «أ»، غيرَ أنَّه شَعرَ أنَّ أفكار «أ» ستكون حاسمةً بالنسبة إلى مستقبله ومستقبل الحزب، وأنَّهم على أعتاب نقطةِ تحوُّل، ولكن «ش» لم يعرف: أي تحوُّل؟ كما لم يعرف: كيف يتجرَّأ على التنبُّؤ بما سيفعله «أ»! كان «أ» داهيةً في التكتيك، لا يُناظره أحدٌ في مهارته المدهِشة في تحريك قِطَع شطرنجِ السُّلطة، ولا حتى «ب». بالفطرة كان خبيرًا بطبائع البَشَر، يعرف نقاطَ الضَّعف في كلِّ خَصم، ويعرف كيف يستغلُّها، كان صيَّادًا للناس ومطارِدًا لهم، لا يجاريه في ذلك أحدٌ داخل الأمانة السياسية، لكنه لم يكُن الرَّجُل الذي يخوض

مبارزةً علنيَّة، إنَّه بحاجة إلى الصراع الخفي، إلى الهجوم من حيث لا يَظنُّ أحد. الكمائن ينصبها في أدغال الحزب ذي الألف قِسم وفرع وشعبة ولجنة ومجموعة؛ تناقُضٌ صريح، لا بد أنَّه لم يخضْ منذ وقتٍ طويل نِزاعًا وقَفَ فيه وجهًا لوجهٍ أمام خصمه. السؤال هو: هل سيخرج «أ» عن طَوره؟ هل سيفقد الرؤية؟ هل سيتعجَّل في ردِّ فعله؟ هل سيعترف بالاعتقال؟ أم أنَّه سيواصل الإنكار؟ هذه كلُّها أسئلةٌ ليس بمقدور «ش» أن يُجيب عنها؛ لأنَّه هو نَفْسه لا يعرف ماذا كان سيفعل لو كان مكان «أ». غيرَ أنَّ الوقتَ لم يُسعفْ «ش» كي يواصِلَ تكهُّناته حول سلوك «أ» المحتمَل، فبمجرد أن توقَّفَ المارشال «د» ليلتقط أنفاسه، ويستجمع قُواه، كي يأخذ نبرةً أكثرَ حماسيةً في إعلان ولائه وخضوعه أمام «أ»؛ قاطعه «ح» الذي لم يلاحِظْ — أو لم يُرِدْ أن يلاحِظ — أنَّ «د» يلتقط أنفاسه. كان أسرع منه. استهلَّ كلامه قبل أن ينهض، ثم وقَفَ بثباتٍ، قصيرُ القامة، بدينٌ، قبيحٌ إلى أقصى درجة، بندباتٍ في الوجه، فَرَدَ كفَّيه أمام كرشه كأنَّه فلَّاحٌ جلْف يؤدِّي الصلاةَ بملابسِ يومِ الأحد، ثم راح يتحدَّث ويتحدَّث. على الفور عرَفَ «ش» السبب. كان هدوءُ وزير الصناعة الثقيلة خادعًا. إنَّ تصرفاتِ ماسحِ الأحذية تنبع من الرُّعب الذي أصابه من جرَّاء ما فعَلَه «ز»، لقد رأى نقمة «أ» وهي تهبط على الجميع؛ إذ إن اعتقال جميع أفراد الأمانة السياسية أصبح وشيكًا. كان على ماسح الأحذية، ابن معلم القرية، أن يكدَّ ويكدح في الأرياف حتى يرتقي السُّلَّم. انضمَّ إلى الحزب مبكِّرًا، وأصبح عُرضة لتهكُّم الجميع، لم يأخذْه أحدٌ مأخذَ الجِدِّ، لقي الإهانة بمختلف أشكالها، عمِلَ خادمًا في أسفلِ السُّلَّم، إلى أن استطاع الصعودَ (وهو ما دفَعَ ثَمَنَه كثيرون)، لم يكُنْ لديه كبرياء (إذ لم يكُنْ بمقدوره أن يتحلَّى بالكبرياء)، لم يكُنْ لديه إلا الطُّموح. ولأنَّه كان قادرًا على فِعْل أيِّ شيء؛ أصبَحَ قادرًا على فِعْل كلِّ شيء. قام بأقذَرِ الأعمال (وأكثرها دمويَّةً)، مُطيعًا طاعةً عمياء، ومُبديًا استعدادَهُ لكلِّ أنواع الخيانة، في كثيرٍ من الأوجه كان هو الأفظَعَ داخل الحزب، أفظع من «أ» نَفْسِه الذي كان فظيعًا بأفعاله، ولكنْ مُهمَّا بشخصه. لم يكُنْ «أ» مشوَّهًا، لا من خلال الصراع، ولا عبْرَ السُّلطة. كان «أ» مثلما كان، قطعةً من الطبيعة، تعبيرًا عن حتميَّة السُّلطة. شكَّل ذاته بذاته، ولم يشكِّله أحدٌ. أمَّا «ح» فكان فظيعًا فحسب، ذليلًا، لقد بقي الذلُّ عالقًا به، ولم يكُنْ بمقدوره أن ينفضه عن بدنه، حتى «الجِنكيزخانان» كانا يبدوان أمامه كأرستقراطيَّين، بل حتى «أ» الذي كان يحتاجه، كان يُطلق عليه علانيةً ليس فقط «ماسح الأحذية»، بل أيضًا «لاحس الأطيان»؛ ولهذا كان خوفه الآن أعظمَ من خوف الآخرين. لقد فعَلَ «ح» كلَّ شيء حتى يصعد إلى القمَّة. والآن، عند الهدف، رأى جهوده الكريهة اللاإنسانية مهدَّدة بعد أن استمع

إلى سِباب «ز» المجنون. اكتشَفَ أنَّ الإنكار العبثيَّ لذاته أمسى عديمَ المعنى، وأنَّ تزلُّفَه المفضوح ذهَبَ أدراجَ الرياح؛ إلى هذا الحدِّ تمكَّنَ منه الخوفُ وزلزل كِيانه، حتى إنَّه — بعد أن ذهَبَ الرُّعب بلُبِّه — قاطَعَ «أ» في أثناء كلامه (وفقًا لقناعة «ش») إلا أنَّ «ح» كان يريد على وجه السرعة — وكأنَّ في ذلك خلاصَه — أن يُتبع إعلانَ الولاء والخضوع الذي صرَّح به «ر» بإعلان ولائه هو، وبالطبع على طريقته. لم يمتدح «أ»، كما فعَلَ رئيس الدولة من غير حساب، بل هاجم «ز» هجومًا كاسحًا من غير حساب. على عادته استهلَّ كلامه بأمثالٍ ريفية يحفظها عن ظَهْر قلبٍ ويتلوها، سواءٌ ناسَبَت المقامَ أم لا. قال: «قبل أن يبدَأَ الثعلبُ بالهجوم، تتملَّك الوقاحةُ الدجاجَ». وقال: «الفلَّاحُ لا يحمِّم امرأته إلا إذا كان النبيلُ يرغب في مضاجعتها». وقال: «الوَلوَلة تسبق المشنقة». وقال: «حتى الإقطاعي يمكن أن يسقط في بئر السِّباخ». وقال: «الخادمةُ تحبل من الفلَّاح، والفلَّاحة تحبل من العبد». بعد ذلك تطرَّق إلى جِديَّة الموقف، ولكنه — لحكمته — لم يتطرَّق إلى جِدية الموقف السياسي الداخلي، الذي كان بصفته وزير الصناعة الثقيلة متورِّطًا فيه حتى العُنُق، بل تطرَّق إلى الموقف السياسي الخارجي، فهناك يرى «خطرًا مُميتًا يوشك أن يَدْهم وطننا الحبيب»، هو أمرٌ مدهِش لا سيما أنَّ السياسة الخارجية شَهدَت انفراجًا كبيرًا بعد مؤتمر السَّلام. ها هي الرأسمالية العالمية تستعدُّ مرةً أخرى لقَطْف ثمار الثورة، بل لقد نجَحَت في زرْعِ جواسيسها عبْرَ أنحاء البلاد. بعد السياسة الخارجية تطرَّقَ إلى حتميَّة الانضباط، ومن حتميَّة الانضباط خلُصَ إلى حتميَّة الثِّقة. «أيها الرِّفاق، كلُّنا أخوة، وأبناءُ الثورة الواحدة العظيمة!» ثم ادَّعى أنَّ هذه الثقة الضرورية قد انتهَكَها «ز» بلا ضرورة؛ لأنَّه شكَّكَ في كلماتِ «أ»، وذلك باعتقاده — على عكس تأكيدات «أ» — أن «ص» المريض قد اعتُقل. نعم، إنَّ سوءَ ظنِّ وزير النقل والمواصلات، «هذا النُّصُب التِّذكاري الذي أضحى منذ زمنٍ بعيد نُصبًا للهوان والعار»، تعدَّى كلَّ الحدود، إنَّه لا يجرُؤ حتى على مغادرة غرفة الاجتماعات كي يشدَّ من أزْرِ زوجته المُحتضَرة، يا لها من وحشيَّةٍ تصيب بالعارِ كلَّ ثوريٍّ ما زال الزواجُ مقدَّسًا بالنسبة له! ومَن فينا لا يقدِّس الزواج؟ إنَّ اشتباهًا مثلَ هذا لا يُهين «أ» فحسب، بل يوجِّه ضربةً قاسية في وجه الأمانة السياسية. (راح «ش» يفكِّر: إن «أ» لم يقُلْ حرفًا عن مرض «ص» المزعوم. لقد أطلَقَ وزير الأمن «ت» هذه الأُكذوبة، ولكن «ح» ينسبها إلى «أ»، وبذلك يرتكب خطأً آخر لا يمكن تفسيرُهُ سوى بالخوف البائس الذي تملَّكَ وزيرَ الصناعة الثقيلة، غيرَ أنَّ ظنًّا خامَرَ «ش» في تلك اللحظة: ماذا لو كان مرض «ص» هو الحقيقة، بينما اعتقاله هو الأُكذوبة التي تمَّ نشْرُها لإرباك الأمانة السياسية؟ غيرَ أنَّ «ش»

تخلَّى عن هذا الظنِّ في اللحظة نَفْسها). في تلك الأثناء كان ماسِحُ الأحذية، دون تبصُّر، قد سلَّمَ نَفْسه إلى محاولةِ الوصول إلى برِّ الأمان، فهاجَمَ عدوَّه اللدود «ث»؛ حتمًا لأنَّه اعتقد أنَّ «ث» سيسقط تلقائيًّا مع سقوط وزير النقل والمواصلات «ز»، دون أن يفكِّر في أنَّ الجميع ينظُر إلى وزير النقل والمواصلات باعتبار أمره منتهيًا منذ فترةٍ طويلة، بينما لا يستطيع أحدٌ أن يزحزح «ث» من مكانه دون أن يُحدِث هزَّةً عنيفة في الحزب والدولة. ولكن يبدو أنَّ الزلزال كان بالنسبة لـ «ح» حقيقةً واقعة، وإلا لكان انتَبَه إلى أنَّ وزير الدفاع «د» ظلَّ على هدوئه في أثناء هجوم «ح»، ولم يقدِّم له أيَّ دعم. صرَخَ ماسحُ الأحذية: الفلَّاحون يجوعون بينما يزداد القسيس سِمنةً، وصرخ: إذا شعَرَ النبيل بالبرد في قدمَيه، فإنَّه يشعل النار في قرية بأكملها. ثم ادَّعى أنَّ «ث» خان مبادئ الثورة عندما أهمَلَها، وعندما حوَّل الحزب إلى نادٍ بُرجوازي. في شجاعته اليائسة خَطَا «ح» خطوةً أخرى إلى الأمام، فهاجَمَ بعد «ث» حلفاءه، وسخِرَ من وزيرة التربية، إنَّ الفتاة تدخل منزلَ تاجر الخيول عذراءً وتخرج منه عاهرةً، مَثَلٌ فلَّاحيٌّ قديم، أمَّا وزير الخارجية «ب» فيناسبه المَثَل القائل: إنَّ مَن يتصادق مع الذئب الأجرب يُصبح هو نَفْسه ذئبًا أجرب. ولكن، وقبل أن يستشهد «ح» بمَثَلٍ فلَّاحيٍّ آخر، وقبل أن يشرح المقصود من اتهاماته؛ قاطَعَه العقيد. دخَلَ الضابطُ الأشقر لدهشة الجميع غرفةَ الاجتماعات مرةً ثانية، أدَّى التحية العسكرية، وقدَّمَ لوزير الصناعة الثقيلة ورقةً، ثم أدَّى التحية العسكرية بقامةٍ منتصِبة، وغادَرَ غرفة الاجتماعات.

فقَدَ «ح» ثقته بنَفْسه بعد أن فُوجئ بالمقاطعة، واستولى عليه الخوف من هذه المسرحية العسكرية. ألقى نظرةً سريعة على الورقة ثم كوَّرها وألقى بها في جيبه الأيمن، إنه لم يقصد ما فهموه، ثم جلَسَ وقد انقضَّ عليه فجأةً سوءُ الظنِّ، هكذا شعَرَ «ش»، ثم اعتصم بالصمت. لم يحرِّك الآخرون ساكنًا. كان ظهور العقيد مرةً ثانية أمرًا خارجًا عن المألوف. بدا وكأنَّه جزءٌ من المسرحية. شعروا بالتهديد. «س» وحدها — التي كان «ح» يصوِّب إليها نظراتٍ فاحصةً في أثناء خطابه — تصرَّفتْ وكأنَّ شيئًا لم يكُنْ. فتحتْ حقيبةَ يدها ونثرتْ بعض المساحيق على وجهها وهو ما لم تجرُؤ على فِعْله خلال الجلسة قَط. ظلَّ «أ» على صمته، عازفًا عن التدخُّل، وبدا غيرَ مبالٍ بما يحدُث. راح «ب» و«ت»، اللذان يجلسان متواجهَين بجانب «أ»، يتبادلانِ النظرات، نظرات سريعة تبدو كأنَّها غيرُ مقصودة، كما لاحَظَ «ش»، في أثناء ذلك كان وزير الخارجية يمسح على شاربه المحفَّف بعناية. عدَّلَ مدير المخابرات من وضْعِ ربطةِ عُنُقه الحريرية وسأل ببرودٍ عمَّا إذا كان «ح» قد انتهى من هُرائه؛ إذ إنَّ على الأمانة العامة أن تواصِلَ عمَلَها. تمعَّنَ «ش» في الأمر من جديد: هل يربط

«ب» و«ت» تحالفٌ سرِّي؟ كان يُنظَر إليهما باعتبارهما عدوَّين، إلا أنَّهما كانا يشتركان في أمورٍ عدَّة: التعليم والتفوق والانتساب لعائلاتٍ معروفة في البلاد. كان والد «ت» وزيرًا في حكومة بُرجوازية، أمَّا «ب» فكان الابنَ غيرَ الشرعيِّ لأحَدِ الأمراء، كما أنَّ البعض يعتبر كليهما من مثليي الجنس. احتماليةُ اتفاقٍ سرِّي بين الاثنين خطرتْ على بال «ش» مرةً أخرى للسبب التالي أيضًا: عندما يوجِّه «ت» أصابع الاتهام إلى وزير الصناعة الثقيلة؛ فإنه بذلك يقدِّم مساعدةً واضحة إلى وزير الخارجية «ب»، وليس فقط إليه؛ إنَّه بذلك يدعم أيضًا «ث» و«س» وحتى «ز». أصاب الارتباك «ح» بسبب هذه الهزيمة، لا سيما أنَّه اعتقَدَ أنَّ «ت» يقِفُ في صفِّه؛ لذلك قال بصوتٍ خفيض إنَّ عليه أن يتَّصل بالوزارة، لأمرٍ ملِحٍّ، أمرٍ مُخجِل؛ فهناك قضيةٌ تعيسة لا بد أن يُصدِر في شأنها قرارًا. نهَضَ «أ» وذهَبَ بخطًى متَّئِدة إلى البوفيه خلْفَه، وصبَّ لنَفْسه بعنايةٍ كأسًا من الكونياك، وظلَّ واقفًا. ثم قال لـ «ح»: يمكنه أن يتَّصل من الغرفة الأمامية. أيضًا على «ز» أن ينصرف بسرعة، أو على الأقلِّ أن يتَّصل بالمستشفى، إنَّه يأمر باستراحةٍ لمدَّة خَمس دقائق، صحيحٌ أنَّ لائحةَ نظام الحزب لا تُبيح إيقاف الجلسة بسبب هذا الهجوم الصبياني والشخصي، ولكنه يفعل ذلك؛ لأنه لا يريد إزعاجًا بعد الاستراحة. ثم تساءل: ومَن هذا الحمار برتبة عقيد؟ إنَّه ينوب عن العقيد العجوز لأنَّه في إجازة، أجاب مديرُ المخابرات، ولكنه سيقوم بإخبار الرَّجُل باللازم. ثم نادَى على العقيد عبْرَ الهاتف الداخلي. أمَرَ «ت» العقيد — الذي دخَلَ مؤدِّيًا التحية العسكرية — بأنْ ينصرف وألَّا يزعجهم مهما حَدَث. انسحَبَ العقيد خارجًا. لم يغادر «ح» أو «ز» الغرفة، ظلَّا جالسَين وكأنَّ شيئًا لم يحدُث. ابتسم «ث» لوزير الصناعة الثقيلة ابتسامةً صفراء، ثم نهَضَ واقترب من «أ»، وصبَّ لنَفْسه كذلك كأسًا من الكونياك، ثم تساءل: لماذا لم يذهب «ح» إلى الغرفة الأمامية بحقِّ الشيطان؟ عندما تُسبِّب وزارةُ الصناعة الثقيلة إزعاجًا لجلسة الأمانة السياسية؛ فلا بد أنَّ القيامة هناك قد قامت؛ صحيحٌ أنَّه من الجدير بالثناء اهتمامُ صديقه «ح» بمصلحة الدولة والثورة، ولكنَّ هذه المصلحة تحديدًا تتطلَّب أن يهتمَّ أخيرًا بواجبه، وأن يتَّصل على وجه السرعة بمكتبه، فلَنْ يكون في مصلحة أحدٍ أن تسود الفوضى وزارةَ الصناعة الثقيلة.

استغرق «ش» في التفكير. بدا له أنَّ أهمَّ شيءٍ هو أنَّ «أ» قد حسَمَ أمره فجأةً وقرَّر مواصلة جلسةِ الأمانة السياسية. الإشارةُ إلى لائحة نظام الحزب كانت محضَ عبارةٍ فارغة، هذا شيءٌ واضح لكل ذي عينَين. لم يحدُث حتى اليوم قَط أنْ تمَّ التصويتُ على شيء، كانوا يوافقون في صمْتٍ، ميزانُ القُوى بين المجموعتَين المتعاديتَين داخل الأمانة السياسية كان

في حالةِ توازُنٍ تام. كان بإمكان «أ» أن يطرح في أيِّ وقتٍ الأمرَ أمام مؤتمر الحزب، وبذلك يقوم بتصفيةٍ علنية للأمانة السياسية المكروهة. لا بد أنَّ هناك أسبابًا أخرى لقرار «أ». لا بد أنَّه رأى بوضوحٍ أنَّه ارتكَبَ خطأً عندما قرَّر تطهير الأمانة السياسية وإلغاءها، أو إلغاءها أولًا ثم تصفية كلِّ عضوٍ على حِدَة. الآن يواجه جبهةً موحَّدة. لقد أرسَلَ إشارةَ تحذيرٍ متعجِّلة للكلِّ عندما أمَرَ باعتقال «ص». إنَّ امتناع «ز» و«ح» عن مغادرة الغرفة مؤشِّرٌ على خوفِ الجميع. أمام مؤتمر الحزب كان «أ» يتمتع بالحرية والسُّلطة، أمَّا داخل الأمانة السياسية فهو — مثل كلِّ الأعضاء الآخرين — سجينُ النظام. إذا كانوا يشعرون بالخوف من «أ»؛ فلا بد أن «أ» — لن نقول يشعُر بالخوف لأنَّه لا يعرف الخوف — يتملَّكُه سوءُ الظنِّ؛ فالدعوة إلى انعقاد مؤتمرٍ حزبيٍّ تستغرق وقتًا، وفي أثناء ذلك سيظلُّ أعضاء الأمانة السياسية يتمتعون بالنفوذ والقدرة على الفعل. وهكذا تحتَّمَ على «أ» أيضًا أن يبادر بفعلِ شيء. كان عليه أن يجسَّ النبض من جديدٍ ليعرف على مَن يستطيع الاعتماد، ثم يخوض المعركة. ولكنَّ احتقار «أ» العميق والأصيل للبَشَر أدَّى إلى سيادة الفوضى على الجبهات المختلفة. ليس هذا فحسب؛ إنَّ مناورته يمكن أن تنقلب، من حيث لا يدري، إلى معركةٍ مصيرية.

للوهلة الأُولى لم يحدُثْ شيءٌ. لم يُقدِم أحدٌ على فعْلِ شيء. بقي «ح» جالسًا، وكذلك وزير النقل والمواصلات الذي دفَنَ وجهه بين كفَّيه. كان «ش» يودُّ أن يمسح العرَقَ المتفصِّد على جبينه، لكنه لم يجرُؤ. بجانبه فرَدَ ض يدَيه، فبدا وكأنَّه يصلِّي كي ينفد بجِلده سليمًا من هذا المأزق، وإنْ كان من المستبعَد تمامًا أنْ يصلي أيُّ عضوٍ من أعضاء الأمانة السياسية. أشعَلَ وزيرُ التجارة الخارجية «ج» واحدةً من سجائره الأمريكية، ونهَضَ وزيرُ الدفاع «د»، وسار متأرجِحًا إلى البوفيه حيث وجَدَ زجاجة «جِن»، فزرَعَ نَفْسه بين «أ» و«ب»، وقرَعَ نخبه على نحوٍ احتفالي، ثم قال له: «تعيش الثورة!» ثم غلَبَه الفُواق، ولم يلاحظ في خَدَره أنَّ «أ» لم يُعِره انتباهًا. تناولتْ «س» علبةَ سجائرَ ذهبيةً من حقيبةِ يدها؛ فسار «ث» نحوها مقدِّمًا ولَّاعته الذهبية، وظلَّ واقفًا خلْفَها. «والآن، عليكما أن تجيباني»، قال «أ» بهدوء، «هل صحيح أنكما تمارسان الجنس معًا؟» فأجاب «ث» بكلِّ وقاحة: «كنَّا في السابق نمارس الجنس معًا». فضحك «أ» قائلًا إنَّه أمرٌ جيد أنْ يسود التفاهُم بين العاملين معه، ثم توجَّه إلى «ح»: «هيا يا ماسحَ الأحذية»، قال بلهجةٍ آمِرة، «هيَّا يا لاحسَ الأطيار، اتصلْ بالتليفون!» ظلَّ «ح» جالسًا. «لن أتَّصل من الخارج»، قال بصوتٍ خافت. فضحِكَ «أ» مرةً أخرى. كانت الضحكةُ المعتادة البطيئة التي تكاد تكون لطيفةً؛ ضحكةً

اعتاد أنْ يُطلقها سواء كان يمزح أم يهدِّد، ولذلك لم يَكُن المرءُ يعرف أبدًا ما يَعنيه. إنَّه يعتقد حقًّا أنَّ الخوف استولى على الرَّجُل، قال ملاحِظًا. «صحيح»، أجاب «ح»، «أنا خائفٌ، أشعُرُ بالرهبة». حملَقُوا كلُّهم في «ح» صامتين، كان أمرًا رهيبًا أن يعترف بخوفه. «كلُّنا خائفون»، أضاف وزير الصناعة الثقيلة ناظرًا بهدوء إلى «أ»، «وليس أنا فقط أو وزير النقل والمواصلات، كلُّنا». «هُراء»، جاوَبَه كبيرُ المنظِّرين «خ»، ثم نهَضَ وتمشَّى إلى النافذة. «هُراء، هُراءٌ سخيف»، قال مرةً أخرى مديرًا ظهْرَه للجميع. «إذن غادر الغرفة»، طلَبَ منه «ح». استدار كبيرُ المنظِّرين وحملَقَ بارتيابٍ في «ح»، وسأله: وماذا يفعل خارج الغرفة؟ إنَّ كبيرَ المنظِّرين لا يجرُؤ أيضًا على مغادرة الغرفة، لاحَظَ «ح» بهدوء. إنَّ «خ» يعلم تمامَ العِلم أنه ليس في مأمنٍ إلا هنا. «هُراء» ردَّ «خ» مرةً أخرى، «هُراء، هُراءٌ سخيف». ظلَّ «ح» على عناده: «إذن، غادر الغرفة» طلَبَ مرةً ثانيةً من قديس الشاي. بقي «خ» واقفًا عند النافذة. توجَّهَ «ح» مرةً أخرى بالكلام إلى «أ»: «أرأيت؟ كلُّنا خائفون». ثم جلَسَ مستقيمَ الظَّهر واضعًا كفَّيه على الطاولة، وعلى حين غِرَّة فارَقَه كلُّ القبحِ الملازِم له. إنَّ «ح» مخبول، قال «أ» واضعًا كأس الكونياك على البوفيه مرةً أخرى، ثم عاد إلى الطاولة. «مخبول؟» تساءل «ح»، «حقًّا؟ هل أنت متأكد؟» تحدَّثَ بصوتٍ خافت وهو ما لا يفعله قَط. باستثناء «ز» فإنَّ الأمانة السياسية لا تضمُّ أيًّا من الثوريين القُدَامى، أضاف، أين هم الآن؟ ثم تلا أسماءَ الذين تمَّت تصفيتُهم، بعناية وبطء تلا الأسماءَ كاملةً، ذاكرًا رجالًا كانوا يومًا مشهورين، الرجال الذين أسقطوا النظام القديم. لأول مرةٍ منذ زمنٍ بعيد تُتلى هذه الأسماء. اقشعرَّ بدَنُ «ش». شعَرَ فجأةً كأنَّه في أحد المدافن. «خونة»، صرخ «أ»، «أولئك خونة، أنت تعلم ذلك تمامًا أيها الملعون، لاحس الأطياز». ثم صمَتَ، واسترجَعَ هدوءه، وسدَّدَ نظراتٍ متفحصةً ومتأمِّلة إلى ماسح الأحذية، ثم قال بعد ذلك على نحوٍ عابر: «إنَّك أيضًا واحدٌ من أولئك الخنازير». عرف «ش» على الفور أن «أ» قد ارتكب خطأً آخر. بالطبع كانت قراءة أسماء الثوريين القُدَامى استفزازًا له، ولكن «ح» أصبح خصمًا بعد أن اعترف بخوفه، وكان على «أ» أن يتعامل مع هذا الخصم بجِدِّية. ولكن «أ» اندفع وقام بتهديده، بدلًا من أن يهدِّئ من رَوعه. بكلمةٍ لطيفة أو بمزحةٍ كان «ح» سيعود إلى تعقُّله، ولكنَّ «أ» يحتقر «ح»، ولأنه يحتقره، لم يرَ خطَرَه، وتصرَّفَ برعونة. أمَّا «ح» فلَمْ يعُدْ بإمكانه الرجوع. لقد قامَرَ بكلِّ شيءٍ في لحظةٍ يائسة، مفاجئًا الجميعَ بصلابة شخصيته. لقد تحتَّم عليه أن يحارب، وأصبح الحليفَ الطبيعي لوزير النقل والمواصلات الذي — ببلادته — لم

يفهم ما يحدُث. ثم صاح «أ»: «لا بد من تحطيم مَن يقِفُ في طريق الثورة. كلُّ مَن حاول ذلك تحطَّم». بثباتٍ تساءل ماسحُ الأحذية عمَّا إذا كانوا قد حاولوا حقًّا، إن «أ» نَفْسه لا يصدِّق ما يقول. إنَّ الرجال الذين تلا أسماءهم ولقُوا مصرعَهم هم الذين أسَّسوا الحزب وقاموا بالثورة. لقد أخطئُوا في أشياءَ كثيرةٍ، هذا صحيح، لكنَّهم ليسوا خونة، كما أنَّ وزير النقل والمواصلات ليس خائنًا. «لقد اعترفوا وأدانتهم المحكمة»، ردَّ «أ». «اعترفوا!» قهقَهَ «ح» ثم واصل: «اعترفوا! وكيف اعترفوا؟ فلْيَحكِ لنا مديرُ المخابرات عن ذلك!» إنَّ الثورة — أجاب «أ» بخبثٍ — دموية، هناك مذنبون أيضًا في صفوف الثوريين، وويلٌ للمذنبين! إنَّ التشكيك في هذه الحقيقة هو في حدِّ ذاته خيانة. ثم أضاف متهكِّمًا أنَّ هذه المناقشة ليس من ورائها طائل، فمن الواضح أنَّ رأس ماسح الأحذية محشوٌّ بالكتابات القذِرة التي يوزِّعها على زملائه، والتي يدَّعي فيها بكلِّ صراحةٍ أنَّ الحزب ماخور. إنَّ على «أ» أن يطلُب من صديق «ح»، كبير المنظِّرين «خ»، أن يفكِّر جيدًا في أمْرِ مَن يتعامل معهم. بهذا التهديد الانفعالي وغير المبرَّر أمام قديس الشاي — ربما بدافعِ الغضب؛ لأنَّ كبير المنظِّرين لم يجرُؤ هو أيضًا على مغادرة الغرفة — رجَعَ «أ» إلى مقعده وجلَسَ. كذلك فعَلَ الذين كانوا واقفين، وكان «خ» آخِرَهم. ثم افتتَحَ «أ» الجلسة مرةً أخرى.

لم يتأخَّر قديس الشاي في الأخذ بالثأر، ربما لاعتقاده أنَّه قد غدا مع «ح» من المغضوب عليهم، أو لأنَّ تأنيب «أ» غير الحذِر أشعَرَه بالإهانة. مثل ناقدين عديدين لم يكُنْ «خ» يتحمَّل النقد. وهو بعدُ معلمٌ في المدرسة الثانوية، شرَعَ قديس الشاي ينشُر في مجلاتٍ ريفية نكِرَة مقالاتٍ في النقد الأدبي كانت صارخةً في الْتزامها الحزبي، حتى إن «أ» — الذي كان يحتقر معظم كُتَّاب البلاد باعتبارهم محضَ متذاكِين بُرجوازيين — أمَرَ في بداية الحملة التطهيرية الكبيرة الثانية بإحضاره إلى العاصمة حيث تولَّى «خ» القسم الثقافي في الصحيفة الحكومية، وفي أقصر وقتٍ نجَحَ بنشاطٍ محموم في أن يهدم صرْحَ الأدب والمسرح في البلاد، عبْرَ اعتناقه الأيديولوجية القائلة: إنَّ الكتَّاب الكلاسيكيين أصحَّاء وإيجابيون، أمَّا كُتَّاب الحاضر فهُمْ مرضَى وسلبيون. ورغم البدائية الفظيعة للفكرة الأساسية في نقده، فقَدْ كان يكسوها شكلًا فكريًّا منطقيًّا؛ إذ إنَّ قديس الشاي كان يكتُب على نحوٍ أكثر تعقيدًا من خصومه في الأدب والسياسة. كان قديرًا متمكِّنًا. الكاتب الذي يغدو هدفًا لنقد «خ» ينتهي أمره، وليس من النادر أن يختفي وراءَ الأسلاك الشائكة أو وراء الشمس. أمَّا في حياته الشخصية فإنَّ «خ» بُرجوازي ضيِّق الأفق لا يمكن أن ينافسه أحدٌ في ذلك. كان يعيش حياةً زوجيةً سعيدة، متفاخِرًا بذلك أمام كلِّ شخص، والِدُ ثمانية أبناء جاءُوا إلى الدنيا على فتراتٍ مُنتظِمة. كان

مكروهًا داخلَ الحزب، ولكنَّ «أ» — بما يتميز به من براجماتيةٍ عظيمة، وهو الذي يحبُّ أن يدَّعي التنظير — مكَّنَ المدرسَ الثانوي من الحصول على منصبٍ أوسع نفوذًا؛ إذ جعَلَه «أبَ الاعتراف» الأيديولوجي داخلَ الحزب، ولذا لم يكُنْ لأعضاء الأمانة السياسية حولٌ ولا قوة أمام محاضراتِ «خ» المستفيضة، وإنْ سخِرَ منها البعض علانية، مثل «ب» الذي قال مرةً بعد محاضرةٍ طويلةٍ للغاية ألقاها قديس الشاي حول السياسة الخارجية: إنَّ على كبير المنظِّرين أن يعمل على أن تبدو القرارات السياسية للأمانة مبرَّرة ومقبولة في الخارج، ولكن ليس عليه أن يطلُب من أعضاء الأمانة أن يصدِّقوا تبريراته. ولكنْ يحسُن بالمرء ألَّا يقلِّل من قدْرِ «خ». كان قديس الشاي نهِمًا للسُّلطة؛ إذا اقتنَصَ منصبًا، فإنه يدافع عنه بكلِّ الوسائل. وهو ما أدرَكَه «أ» الآن؛ لأن «خ» كان أولَ مَن طلَبَ الكلمة. شكر «أ» على كلامه في بداية الجلسة، هذا الكلام الذي يشِي بقدراتِ رجُلِ دولةٍ عظيم. إنَّ التحليل الذي قدَّمه عن وضْعِ الثورة وحالة الدولة رائعٌ، أمَّا النتيجة التي توصَّل إليها فهي مُلزمة — أيْ حَل الأمانة السياسية بعد أن وصلتْ إلى هذه النقطة. ولكنْ لديه، كمنظِّر، تعقيبٌ واحد — كما بيَّن «أ»؛ فإننا نواجه صراعًا معيَّنًا، ليس فقط لأنَّ الثورة أصبحتْ في تناقُضٍ مع الدولة، بل لأنَّ الحزب أيضًا أضحى يتناقض في الحقيقة مع الثورة. إنَّ الثورة والحزب شيئان مختلفان، وليس كما يعتقد البعض شيئًا واحدًا. تتميز الثورة بالديناميكية، بينما الحزب كيانٌ ينزع إلى الإستاتيكية. الثورة تغيِّر المجتمع، فيما الحزب يقوم بالتوفيق بين المجتمع المتغيِّر والدولة. ولهذا فإنَّ الحزب حاملُ لواء الثورة، وفي الوقت نَفْسه حاملُ لواء سُلطة الدولة. هذا التناقُض الداخلي يُغوي الحزب بأنْ يرجِّح كِفَّة الدولة على كِفَّة الثورة، وهو ما يُجبر الثورة على تثوير الحزب مرةً بعد أخرى؛ فالثورةُ تندلع بسبب التقصير البشري الذي تكمُن بذرتُه في الحزب باعتباره كِيانًا إستاتيكيًّا. وهكذا يحدُث أنْ تجِدَ الثورةُ نَفْسها مجبَرةً على ابتلاع أولئك الذين أصبحوا باسْمِ الحزب أعداءً للثورة. إنَّ الرجال الذين تلا وزيرُ الصناعة الثقيلة أسماءهم كانوا في الأصل ثوريين بحقٍّ، لا أحدَ يشكُّ في ذلك بالتأكيد، ولكنَّهم ارتكبوا خطأً عندما اعتبروا أنَّ الثورة انتهت، وبذلك أمْسَوا أعداءً للثورة، فتحتَّم سَحْقُهم. هذا هو الحال اليوم أيضًا: لأنَّ الأمانة السياسية العامة للحزب تستحوذ على السُّلطة كلِّها، أضحى الحزب عديمَ الأهمية، ولم يعُدْ قادرًا على حمْلِ لواء الثورة، كما أنَّ الأمانة السياسية فقدتْ قدرتَها على القيام بهذه المهمَّة؛ لأنَّها أصبحتْ على صلةٍ بالسُّلطة فقط، وفقدت كلَّ صلتها بالثورة. لقد انفصلت الأمانةُ السياسية للحزب عن الثورة؛ لأنَّ الحفاظ على السُّلطة كان أهمَّ بالنسبة لها من تغيير العالم؛ إذ إنَّ السُّلطة،

كُل سُلطة، تنشد الاستقرار: استقرار الدولة التي تحكمها، واستقرار الحزب الذي تسيطر عليه. ولذلك لا مَهرَب من محاربة الأمانة السياسية العامة للحزب كي تستمر الثورة. على الأمانة السياسية أن تدرك هذه الحتميَّة، وتقرِّر حلَّ نَفْسها. ثم قال مختتِمًا خطابه: إنَّ الثوري الحقيقي يصفِّي نَفْسه بنَفْسه. كما أنَّ الخوف من التطهير الذي استولى على عددٍ من أعضاء الأمانة السياسية العامة للحزب دليلٌ على حتميَّةِ تصفيةٍ كهذه، ودليلٌ على أنَّ زمن الأمانة السياسية قد ولَّى وانقضى.

كان خطاب «خ» يتَّسم بالغدر. تحدَّث قديس الشاي وفقًا لعادته بلهجةٍ مدرسية جافَّة تخلو من أيِّ دعابة. لم يدرك «ش» خدعةَ «خ» إلا شيئًا فشيئًا. عبْرَ جُملٍ نظريةٍ مجرَّدة كان يهدف إلى تكرار ما يهدف إليه «أ»، ولكنْ على نحوٍ أكثرَ حدَّةً واحتدامًا حتى يجِدَ كلُّ عضوٍ في الأمانة السياسية نَفْسه مرغَمًا على الدفاع عن نَفْسه. لقد صوَّر قديس الشاي التطهيرَ الذي كان يخشاه الجميع على أنَّه عمليةٌ حتميَّة بدأتْ فعلًا. لقد صوَّر انهيارَ الحرس القديم، وكلَّ تلك القضايا الملفَّقة، وتلطيخَ سمعة الأبرياء، وإعدامَ الخصوم، على أنَّه مبرَّرٌ سياسيًّا، وبذلك قدَّم تبريرًا للتطهير الآتي. لقد وضَعَ قرارَ التطهير في يدِ الضحايا المحتمَلين لهذه العملية، موقِظًا بذلك خطَرًا حقيقيًّا يهدِّد «أ».

نظرةً واحدة إلى «أ» كانت كافيةً لـ «ش»: لقد أدرَكَ «أ» الفخَّ الذي نصَبَه «خ» له. ولكنْ قبل أن يشرع «أ» في الردِّ حدَثَ شيءٌ عارض. انتفضتْ وزيرة التربية «س» التي كانت تجلس بجانب رئيس الدولة «د» صارخةً أنَّ المارشال «د» خنزيرٌ حقير. كان «ش» — الذي كان يجلس أمام رئيس الدولة بمَيلٍ — قد لاحَظَ أيضًا أنَّ حذاءه قد تبلَّلَ بالماء. لقد بال رئيسُ الدولة، الشيخ المريض. تملَّكت العدوانية من «جِن-كيز خان» المترهِّل العجوز، فزأَرَ: ماذا حَدَث؟ ثم سبَّ «س» قائلًا إنَّها شمطاءُ تفرِط في تكلُّف الحشمة، هل يعتقدون أنَّه من الغباء بحيث يخرُجُ ليتبوَّل؟! إنَّه لا يريد أن يُلقى القبضُ عليه، ولن يغادر هذه الغرفة قَط، إنَّه ثوريٌّ قديم، لقد ناضَلَ من أجل الحزب وانتصَرَ، ابنُه سقَطَ شهيدًا خلال الحرب الأهلية، بينما تعرَّضَ زوجُ ابنته وجميع أصدقائه القُدَامى للوِشاية والخيانة على يدِ «أ» الذي سحَقَهم كلَّهم، حتى إذا كانوا — مِثله — من الثوريين الأطهار المؤمنين بالثورة؛ ولهذا فإنَّه يبول متى شاء وأينما شاء.

لم يكُن ردُّ فِعْل «أ» الجامح، الذي أعقب هذا الحادث المحرِج والغريب، مفاجئًا لـ «ش» بسبب الحماسة التي هاجَمَ بها «أ» رئيسَ الدولة. كلَّا، ما فاجَأَه هو أنَّ هجوم «أ» كان طائشًا أهوج، هكذا شعَرَ به؛ وكأنَّ ما يهمُّ «أ» ليس أنْ يهاجِم شخصًا بعينه، بل أنْ يهاجِم

أيَّ شخص، أو الشخص الذي يقدِّم له الفرصة. ما لم يَفهَمه «ش» أنَّ كلام «أ» الهجومي لم يكُنْ موجَّهًا ضدَّ «ح» أو «خ» أو «ر»؛ بل ضدَّ «ت» الذي يَدين له بالكثير، بل بأكثرِ الأشياء، فكيف له أن يَحكم بدون معونة مدير المخابرات؟ رغم ذلك، اتَّهم «أ» فجأةً «ت» بأنَّه أمَرَ باعتقال «ص» دون علمه، ثم أمَرَ بأنْ يرُدَّ لوزير الذرَّة اعتباره إذا كان ذلك ما زال ممكِنًا، فربما يكون قد أطلَقَ عليه الرصاص منذ فترةٍ حسبما تعوَّد «ت» أن يفعل. ثم تقدَّم «أ» خطوةً أخرى، وطالَبَ مديرَ المخابرات بالاستقالة. لقد حان وقتُ إنشاء لجنةِ تحقيقٍ في نزعاته الشاذة. هذا أمرٌ كان لا بد فِعْله منذ زمن. «إنَّني آمِرٌ باعتقالك حالًا»، أرغى «أ» وأزبَدَ، ثم صرَخَ مناديًا العقيد من الخارج عبْرَ الهاتف الداخلي. صمْتُ القبور. بقي «ت» محافِظًا على هدوئه. الكلُّ يترقَّب. دقائق تمرُّ. لم يَظهَر العقيد. «لماذا لا يأتي العقيد؟» سأل «أ» «ت» بلهجةٍ آمِرة. «لأننا أمرناه ألَّا يَظهَر مرةً أخرى تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف»، أجاب مدير المخابرات بهدوء، ثم نزَعَ كابل الهاتف الداخلي من الحائط. «اللعنة»، جاوبه «أ» بهدوءٍ مماثِل. «أنت الذي وضعتَ نَفْسك في مأزقٍ يا «أ»» قال وزير الخارجية «ب» خالعًا سُترته الجيدةَ التفصيل، «أنت الذي أمرتَ العقيد بألَّا يعود مرةً أخرى». «اللعنة»، غَمغَم «أ» مرةً ثانية، ثم دقَّ على غَليُونه من جديد رغم أنَّه ما زال مشتعِلًا، وأحضَرَ غَليُونًا آخرَ من جَيبه، غَليُونًا معقوفًا ماركة دانهيل، ثم أشعَلَه قائلًا: «معذرةً يا «ت»» «العفو، العفو»، قال «ت» — خالة الدولة — والابتسامةُ تعلو وجهَهُ. أدرَكَ «ش» أن «أ» قد انتهى. كانت حالتُهُ شبيهةً بنمرٍ تعوَّد على الصراع في الأدغال، وفجأةً وجَدَ نَفْسه في الأحراش يُحاصِره قطيعٌ ثائرٌ من الجاموس. لم يعُدْ «أ» يمتلك أيَّ أسلحةٍ أخرى. أمسى معدومَ الحيلة. لأول مرةٍ لم يعُدْ سرًّا في عينَي «ش»، لم يعُدْ عبقريًّا أو «سوبرمان»، بل إنسان سُلطة، ليس إلا نِتاجًا لبيئته السياسية. نِتاجُ السُّلطة هذا كان متخفِّيًا خلْفَ التمثال الهائل الذي كانَهُ، تمثال الأب الفلَّاح الذي يراه المرءُ معروضًا في كلِّ فترينة، وفي كلِّ مصلحةٍ حكومية، التمثال الذي يَظهَر في كلِّ صحيفةٍ أسبوعية أو يومية، الذي يقوم بحضورِ العُروض العسكرية، ويقوم بجولاتٍ تفقُّدية في ملاجئ الأيتام وبيوتِ المسنِّين، ويدشِّن السدود والمصانع، ويحتضن رؤساءَ الدول ويمنح الأوسمة. لقد كان رمزًا وطنيًّا في عيون الشعب، تجسيدًا للاستقلال وعظَمَة الوطن. كان يمثِّل قدرةَ الحزب المطلَقة، أبَ البلاد الحكيم المبجَّل، يقرأ الجميعُ كتاباتِه (التي لم يكتُب منها حرفًا) ويحفظونها عن ظَهْر قَلْب؛ وكلُّ خطابٍ يُلقى وأيُّ مقالةٍ تؤلَّف لا بد أنْ تُشير إلى تلك الكتابات؛ ولكنَّه في الحقيقة نكِرَة. لقد وضعوا كلَّ الفضائل في «أ»، وبذلك أفقدوه سماته الشخصية. لأنَّهم حوَّلوه إلى معبودٍ للجماهير؛ فقَدْ

منَحُوه تصريحًا يسمح له بفِعْل كلِّ شيء، فسمَحَ لنَفْسه بكلِّ شيء. ولكنَّ الظروفَ اختلفتْ. إنَّ الرجال الذين قاموا بالانقلاب فرديُّون؛ تحديدًا لأنهم يحاربون الفردية. كان الاستياء دافِعَهم، والأملُ يشعِل نارَ حماستهم، وكلاهما كان حقيقيًّا ويُفترض وجود ثوريين فرديين؛ ليس الثوريون منفِّذين، إنَّهم يحاولون أن يضطلعوا بهذا الدَّور، غيرَ أنَّهم يفشلون في أثناء ذلك. كانوا قساوسةً هاربين من مِهنتهم، منظِّرين اقتصاديين سُكارى، نباتيين متعصِّبين، طَلَبة مفصولين من مدارسهم، محامين هاربين من القضاء، صحفيين فقَدُوا وظائفهم، كانوا يعيشون في المخابئ والأوكار، ملاحَقين، ثم مسجونين، كانوا ينفِّذون الإضرابات وعمليات التخريب والاغتيالات، يؤلِّفون المنشورات والكتيِّبات السرِّية، يُقيمون التحالفاتِ التكتيكية مع خصومهم، ثم يُنهونها بمجرد انتصارهم. لقد أَرسَت الثورةُ عبْرَ النظام الاجتماعي الجديد دعائمَ الدولة الجديدة أيضًا، التي غدتْ سُلطتها أعظمَ وأكثرَ نفوذًا بما لا يُقارَن مع النظام القديم والدولة القديمة. لقد ابتلَعَت البيروقراطية حركَتَهم التمرُّدية، وانتهت الثورة إلى مشكلةٍ تنظيمية سيفشل الثوريون حتمًا في حلِّها، لأنَّهم كانوا ثوريين. إنَّهم — بعد أن فقَدُوا قوَّتهم — يواجِهون الآن الرجال الذين يحتاجون إليهم. لم يكونوا على مستوى النِّديَّة مع رجال التكنوقراط، ولكنَّ فشَلَهم كان الفرصةَ التي سنحتْ لـ «أ». وبنَفْس القَدْر الذي تضخَّمتْ فيه سُلطة جهاز الإدارة في الدولة، كان لا بد من إبقاء الثورة كوَهمٍ؛ فليس هناك شعبٌ سيتحمَّس لجهازٍ إداري، لا سيما وأنَّ الحزب قد أمسى ضحيةَ البيروقراطية. مع «أ» حصلتْ ماكينةُ السُّلطة التي لا سماتَ لها على وجهٍ وملامح، بَيْد أنَّ الزعيم الكبير لم يكتفِ بالتمثيل، لقد شرَعَ باسْمِ الثورة في سحْقِ الثوريين. وهكذا دارت الدائرةُ على الحرَسِ القديم، باستثناء رئيس الدولة «ر» والوزير «ز». ولم تتمَّ تصفيةُ أبطال الثورة فحسب، بل تمَّت أيضًا تصفيةُ أولئك الذين أمسكوا بعدها بدفَّة السُّلطة واقتربوا من دائرة الأمانة السياسية بعد مرور فترةٍ ما، كما كان مديرو المخابرات — الذين احتاجهم «أ» لإجراء عملية التطهير — يتعاقبون على مناصبهم، وهُمْ أيضًا لم ينجُوا من حبل المِشنقة. ولهذا تحديدًا كان «أ» يتمتَّع بالشعبية. كانت أحوال الشعب سيئةً، كثيرًا ما كانوا يفتقرون إلى الأساسيات، الملابس والأحذية ذات نوعيةٍ بائسة، المساكن القديمة متداعِية، ومِثلها المساكن الجديدة. أمام محلَّات البقالة تقِفُ الطوابير. الحياةُ رَمادية، بينما كان رجالُ الحُكم في الحزب يتمتعون بامتيازاتٍ تحوم حولها تقاريرُ خيالية. كانوا يملكون فِيلَّاتٍ وسياراتٍ وسائقين، يشترون احتياجاتهم من محلَّات مخصَّصة لهم؛ حيث تتوافر جميع السلع الفاخرة. لم ينقُص سوى شيءٍ واحد: الأمن. كان من الخَطَر أن تتمتَّع بالنفوذ.

بقي الشعبُ مطمئنًّا؛ لأنَّه — في بَلادته وعدمِ شعوره بكارثيَّةِ وضْعِه — لم يكُنْ يخشى أن يفقد شيئًا؛ إذ إنَّه لا يملك شيئًا. أمَّا أصحابُ الامتيازات فإنَّهم يخافون أن يفقدوا كلَّ شيءٍ؛ لأنَّهم يملكون كلَّ شيء. رأى الشعبُ أصحابَ السلطان يصعدون السُّلَّم إذا بارَكَهم «أ»، ويسقطون إذا غَضِب. كان يشارك بدور المتفرِّج في المسرحية الدموية التي تقدِّمها السياسة. لم يَسقُط صاحبُ سُلطةٍ يومًا بدون محكمةٍ علنيَّة، بدون مسرحيةٍ راقية، أو دون أن تتصدَّر العدالةُ المشهدَ الفخم، دون أن يعترف المتَّهم بذنبه اعترافًا احتفاليًّا. كانوا في عيون الجماهير مجرمين ينبغي إعدامُهم، مخرِّبين، خونة؛ هم المسئولون عن فقر الشعب لا النظام، سقوطهم يبعث أملًا جديدًا في النفوس، أملًا في مستقبلٍ أفضلَ وعَدُوهم به كثيرًا، سقوطهم يُظهر أنَّ الثورةَ مستمرَّة، وأنَّ قائدها الحكيم هو رَجُل الدولة «أ» العظيم الخيِّر العبقري الذي يخدعه رِفاقه المرةَ تلوَ الأخرى.

للمرة الأولى استطاع «ش» أن يَفهَم كيف تعمل ماكينة السياسة التي يُديرها «أ» ويتحكَّم فيها. تبدو الماكينة ظاهريًّا فحسب معقَّدة، ولكنَّها في الحقيقة بسيطةٌ للغاية. لم يكُنْ «أ» يستطيع أن يحافظ على استبداده إلا إذا تصارَعَ أعضاءُ الأمانة السياسية فيما بينهم. هذا الصراع هو الشرط اللازم لـ «أ» كي يحافظ على سُلطته. الخوف وحده يدفع كلًّا منهم إلى التقرُّب من «أ» والتودُّد إليه عبْرَ الوشاية بالآخرين. وهكذا تكوَّنتْ مجموعاتٌ، مثل تلك التي تحلَّقتْ حول «ث»، تسعى إلى دفْعِ الثورة إلى الأمام، بينما كان موقف «أ» الأيديولوجي ملتويًا ومبهَمًا بحيث إنَّ كلا الحزبَين يعتقدان أنَّهما يتصرَّفان باسمه. كان «أ» دمويًّا في تكتيكه، إلا أنَّه تراخى بمرور الوقت. كان يمثِّل دورَ الثوري فحسب إذا بدا له ذلك مفيدًا، لم يكترثْ سوى لسُلطته، كان يسود من خلال الإيقاعِ بينهم كلِّهم، ولكنَّه كان يعتبر نَفْسه في مأمن. نسي أنَّه لم يعُدْ يتعامل داخل الأمانة السياسية للحزب مع ثوريين مقتنِعين، بحتميَّة، بالثورة؛ ثوريين يقرُّون في كثيرٍ من الأحيان بذنبهم في المحاكمات الملفَّقة التي تُقام لهم، مفضِّلين أن يفقدوا حياتهم على أن يفقدوا إيمانهم بمعنى الثورة. نسي أنَّه محاطٌ بمتعطِّشين للسُّلطة، أيديولوجية الحزب بالنسبة لهم ليست سوى وسيلةٍ للترقِّي. نسي أنَّه عزَلَ نَفْسه، فالخوف لا يقسم فحسب، الخوف يجمِّع أيضًا، هذا هو القانون الذي سيؤدِّي به إلى التَّهلُكة. فجأةً أصبح عاجزًا مرتبِكًا مثلَ هاوٍ يقِفُ أمام زُمرةٍ من محترفي السُّلطة. لقد أراد أن يرسِّخ سُلطته عبْرَ حلِّ الأمانة السياسية، ولكنه هدَّدَ الجميع عندما هاجَمَ وزير الأمن واتَّهمه بإلقاء القبض على «ص»، وبذلك صنَعَ لنَفْسه عدوًّا جديدًا. لقد

فقَدَ «أ» شعوره الفطري الذي كان يقوده؛ فانقلبتْ ماكينة السُّلطة ضدَّه. كما أنَّ إفراطه بدأ يثأر منه، وانفتح الباب أمام حالاتٍ لم تُتحْ لها الفرصة للثأر قبل الآن، لأنَّ ساعة الثأر لم تَحِن قبل الآن. كان «أ» متقلِّب المزاج، يستخدم سُلطته بلا معنى، يُصدر أوامرَ تسبِّب الإهانة للآخرين، رغباته كانت غريبةً وهمجيَّة تنبع من احتقاره للبَشَر ومن مَرَحه الوحشي، كان يعشق الدعابات الشريرة التي لم يستمتع بها غيرُه، الجميع كان يخشاها ولا يرى فيها سوى كمائنَ غدَّارةٍ. رغمًا عنه راح «ش» يفكِّر في حادثةٍ لا بد أنَّها أهانت «ث»، الأمين العام للحزب ذا النفوذ الواسع. كان «ش» يعتقد دومًا أنَّ «ث» لا بد أن يردَّ الضربة يومًا. لم ينسَ «ث» الإهانة، وهو من الذين يستطيعون الصبر. لا بد أنَّ فرصة الثأر حانت الآن. كانت الفضيحةُ غريبةً ومرعِبة. آنذاك تلقَّى الخنزير البرِّي تكليفًا مذهِلًا من «أ» بأنْ يُحضر له فرقةً موسيقية من النساء يعزفْنَ له — عاريات — ثُمانيَّة شوبرت. لا بد أنَّ «ث» هاج وماج بسبب هذا الأمر الأحمق، غيرَ أنَّه كان جبانًا ولم يستطعْ أن يرفضه؛ لذلك توجَّه إلى وزيرة التربية والثقافة، وتوجَّهتْ مُلهِمة الحزب وقد استولى عليها الغضب وشلَّها الجُبن — تمامًا مثل «ث» — إلى الكونسرفتوار ومدارس الموسيقى؛ فالمطلوب من الفتيات ليست الكفاءة الموسيقية فحسب، بل أيضًا القامة الفارعة. حدَثَت انهياراتٌ وكوارثُ، صرخاتٌ متشنِّجة ونوباتٌ انفعالية. إحدى أكثر عازفات التشيلو موهبةً أقدمتْ على الانتحار، بينما تكالبتْ أخرياتٌ على قبول التكليف، غير أنَّهُن كنَّ قبيحاتٍ للغاية. وأخيرًا استطاعوا تكوينَ أوركسترا، ولكنْ كانت تنقُصهنَّ عازفةُ المزمار. بحَثَ الخنزير البرِّي وملهمةُ الحزب عن المشورة لدى خالةِ الدولة. في لَمْحِ البصر أمَرَ «ت» بإرسال عاهرةٍ رائعةِ الجَمال، ضخمةِ الأرداف، من أحد السُّجون إلى كونسرفتوار الدولة، غيرَ أنَّ المرأة الباهرة كانت عديمةَ الموهبة موسيقيًّا، بَيْد أنَّها، عبْرَ عمليةِ تلقينٍ غير آدمية، تعلَّمت اللازم كي تعزف الناي في ثُمانيَّة شوبرت، وهو ما ينطبق على الفتيات الأخريات أيضًا اللائي تدرَّبنَ على العزف باعتباره مسألةَ حياةٍ أو موت. وأخيرًا جلسنَ عارياتٍ في صالة الفيلهارموني ثلجيةِ البرودة وهنَّ يحتضنَّ الآلات الموسيقية. بمِعطف فروٍ ووجهٍ متحجِّر جلَسَ «ث» ومعه «س» في الصفِّ الأول من الصالة في انتظار «أ»، لكنه لم يأتِ. وبدلًا من مجيئه، امتلأت الصالةُ الباروكيةُ الطراز بمئاتٍ من البُكم والصمِّ الذين راحوا يحملِقون بشهوانيةٍ وبَلاهةٍ في العازفات العاريات اليائسات. في الجلسة التالية من جلسات الأمانة السياسية انطلَقَ «أ» يضحك دون رادعٍ على ذلك الحفل الموسيقي، واصفًا «ث» و«س» بالعَبْط؛ لأنهما استجابا لأمرٍ كهذا.

حانت الآن ساعة «ث». تمَّت عمليةُ إسقاط «أ» ببساطةٍ وموضوعية، بلا جهْدٍ، وفي الوقت نَفْسه ببيروقراطية. أمَرَ الخنزير البرِّي بإغلاق الأبواب. ونهَضَ النُّصُب التِّذكاري بجهدٍ جهيد، ثم أغلَقَ أولًا الباب الكائنَ خلْفَ ماسحِ الأحذية و«جن-كيز خان» الصغير، ثم الباب الكائن خلْفَ قديس الشاي والبالارينا. بعد ذلك ألقى بالمفتاح على الطاولة بين الخنزير البرِّي واللورد إيفرجرين. وعاد النُّصُب التِّذكاري ليجلس في مكانه. عندئذٍ عاد عددٌ من أعضاء الأمانة السياسية الذين انتفضوا من أماكنهم وكأنهم يريدون إعاقةَ النُّصُب التِّذكاري، ولكنْ دون أن يتجرَّءُوا على ذلك. جلَسَ الجميع، وأمامهم على الطاولة الحقائب التي تحوي الملفات. نظر «أ» إلى الواحد تلوَ الآخر، ثم اتَّكأ إلى الوراء، وسحَبَ نَفَسًا من غَليُونه. لقد تخلَّى عن اللعب. نواصل الجلسة، قال الخنزير البرِّي، سيكون من الشيِّق أن نعرف الآن مَن أمَرَ باعتقال «ص». «لا يمكن أن يكون قد أصدر الأمر سوى «أ»» ردَّ «خالة الدولة»؛ إذ إنَّ «ص» لم يكن على القائمة، وهو كمديرٍ المخابرات لا يرى أيَّ سببٍ على الإطلاق لاعتقال «ص» الذي لم يكُنْ إلا عالِمًا مشتَّتَ الذهن. إنَّ «ص» وزيرٌ متخصِّص لا يمكن تعويضه، والدولة الحديثة في حاجةٍ إلى رجال العِلم أكثرَ من حاجتها إلى رجال الأيديولوجيا. هذا شيءٌ لا بد أن يفهمه حتى قديس الشاي. «أ» وحده على ما يبدو هو الذي لا يفهم أبدًا. لم تنقبض ملامح قديس الشاي، بل طلَبَ بلهجةٍ موضوعيةٍ القائمة، «ستوضِّح لنا القائمةُ الأمور». فتَحَ «خالة الدولة» حقيبته، وأعطى ورقةً إلى اللورد إيفرجرين الذي أزاحها بعد أن ألقى عليها نظرةً خاطفة إلى قديس الشاي. شحب وجه قديس الشاي. «اسمي على القائمة»، غَمغَم بصوتٍ خافت، «اسمي على القائمة. مع أنني كنت دائمًا من الثوريين الذين يشعُرون بالولاء لخطِّ الثورة اسمي على القائمة»، ثم صرَخَ قديسُ الشاي فجأةً: «لقد كنتُ أكثركم ولاءً لخطِّ الثورة، والآن تتم تصفيتي؛ كأنني خائن!»

لقد اعوجَّ الخط المستقيم، رد عليه «ث» بلهجةٍ جافَّة.

أعطى قديسُ الشاي القائمةَ إلى البالارينا، كان من الواضح أنَّ اسمه ليس عليها، فسلَّمها على الفور للنُّصُب التِّذكاري. حملَقَ النُّصُب في القائمة، وأعاد قراءتها المرةَ تلوَ الأخرى، ثم صرَخَ في النهاية: «لستُ على القائمة، لستُ على القائمة. الخنزير لا يريد حتى أن يصفِّيني، أنا الثوري القديم!» ألقى «ش» نظرةً خاطفة على القائمة، اسمه لم يكُنْ عليها. فناوَلَها إلى رئيس مجموعاتِ الشَّبيبة. مأخوذًا وقَفَ عضو الحزب شاحب الوجه وكأنَّه في امتحان، ثم نظَّفَ نظَّارته. «لقد عُيِّنتُ رئيسًا للنيابة العامة»، قال متلعثِمًا. انفجروا جميعًا ضاحكين. «اقعد يا غلبان»، قال الخنزير البريُّ بلهجةٍ تنمُّ عن طيبة، فأضاف ماسحُ الأحذية

أنَّهم لن يفترسوا القديس التقيَّ الذي يرأس مجموعات الشَّبيبة. جلَسَ ض وأزاح الورقة — ويَدُه ترتعش — عبْرَ الطاولة إلى مُلهِمة الحزب. «اسمي مكتوب»، قالت مُزيحةً القائمة إلى «جن-كيز خان» الكبير الذي أخذتْه سِنةٌ من النوم، ولذلك تناوَلَها «جن-كيز خان» الصغير. «اسم المارشال «ر» ليس مكتوبًا»، ثم أضاف: «ولكن اسمي أنا على القائمة»، وسلَّمَ الورقة إلى ماسح الأحذية. «أنا أيضًا»، قال «ح»، وهو ما كرَّره الخنزير البري. كان المخصي آخِرَ من استلم القائمة. «لستُ عليها»، قال وزير الخارجية مُزيحًا القائمة إلى «خالة الدولة» مرةً أخرى. طوى مدير المخابرات الورقة بعناية ووضَعَها في حقيبته ثم أغلَقَها. «ص» لم يكُنْ بالفعل على القائمة، قال اللورد إيفرجرين مؤكِدًا. لماذا أمر «أ» إذن باعتقاله؟ تساءل البالارينا متعجِّبًا ومسدِّدًا نظرةً مستريبة إلى «خالة الدولة». ردَّ الأخير قائلًا إنَّه لا يعرف؛ لقد افترض أنَّ «ص» مريض، ولكن «أ» اعتاد أن يفعل ما يحلو له. «لم آمر باعتقال «ص»» عقَّب «أ». «لا تلفِّق الحكايات»، صاح فيه «جِن-كيز خان» الصغير، «وإلا كان قد حضَرَ إلى هنا». لزم الجميع الصمت، وسحب «أ» بهدوء نفَسًا من غَليُونه الدانهيل. «لقد فات وقتُ التراجُع»، قالت مُلهِمة الحزب بلهجةٍ جافَّة، القائمة واقعٌ وحقيقة. لقد تمَّ إعدادها فقط للطوارئ، قال «أ» مفسِّرًا، دون أن يدافِع عن نَفْسه. راح يدخِّن في هدوء، وكأنَّ حياته ليستْ متعلِّقة بالأمر، ثم أضاف أنَّ القائمة كانت معدَّة لتنفيذها في حالة مقاومة الأمانة السياسية لحلِّ نَفْسها بنَفْسها. «وهو ما حَدَث»، ردَّ قديس الشاي بجفاف، «إنها تقاوم». ضحِكَ المخصي. وعلا صوت ماسحِ الأحذية مرةً أخرى بمَثَل فلَّاحي قائلًا: إنَّ البرق يُصيب أغنى الفلَّاحين أيضًا. تساءل الخنزير البرِّي: هل يُعلن أحدٌ استعداده طواعيةً؟ توجَّهتْ أبصارُهم جميعًا إلى النُّصُب التِّذكاري. نهَضَ النُّصُب قائلًا: «تنتظرون منِّي أن أقتل الرَّجُل». فردَّ الخنزير البرِّي: «يكفي أنْ تعلِّقه في النافذة». فأجاب النُّصُب: «لستُ جلَّادًا. أنا حدَّاد مخلِص لمهنته، وسأقوم بالأمر على طريقتي». أمسَكَ النُّصُب التِّذكاري بمقعده ووضَعَه بين الشُّباك ونهاية الطاولة الشاغرة. «تعالَ يا «أ»» أمَرَه النُّصُب التِّذكاري في هدوء. نهَضَ «أ». كان يولِّد انطباعًا بالهدوء والثقة كالمعتاد. وبينما كان يتوجَّه إلى نهاية الطاولة الأخرى، أعاق سَيره قديس الشاي الذي سنَدَ مقعده على الباب الكائن خلْفَه. «معذرة!» قال «أ»، «أعتقد أنني لا بد أن أمرَّ من هنا». زحزَحَ قديس الشاي مقعده إلى الطاولة، وترك «أ» يمرُّ حتى وصَلَ إلى النُّصُب التِّذكاري. «اجلسْ»، قال النُّصُب. أطاع «أ». «يا رئيس الدولة، ناولْني حِزامك»، أمَرَ النُّصُب. لبَّى «جِن-كيز خان» الكبير الأمرَ بآليةٍ دون أن يدرك ما ينويه

النُّصُب التِّذكاري. أمَّا الآخرون فحملَقُوا أمامهم في صمتٍ دون أن يتفرَّجوا حتى على ما يحدُث. فكَّرَ «ش» في الحفل الرسمي الأخير الذي ظهرتْ فيه الأمانة السياسية أمام الرأي العام. في عزِّ الشتاء. كانوا يدفنون «طاهر اليد»، أحد آخر كبار الثوريين. بعد سقوط النُّصُب التِّذكاري تولَّى طاهرُ اليد منصبَ رئيس الحزب. ثم أصبح من المغضوب عليهم. أزاحه الخنزير البرِّي من طريقه. غيرَ أنَّ «أ» لم ينظِّم محاكمةً لطاهر اليد، كما فعَلَ مع الآخرين. كان سقوطه مُريعًا. أعلن «أ» أنَّ طاهِرَ اليد مريضٌ عقليًّا، وأمَرَ بإيداعه مستشفى المجانين حيث ترَكَ الأطباء حالته تسوء عبْرَ سنواتٍ إلى أن سُمح له بالموت. على العكس من ذلك كانت جنازته الرسمية احتفاليةً فخمة. على الأكتاف حمَلَ أعضاء الأمانة السياسية — باستثناء مُلهِمة الحزب — النعشَ المغطَّى بعَلَم الحزب، سائرين به على أرضِ مدافن الدولة بين التماثيل الرخامية وشواهد القبور المغطَّاة بالثلوج. شقَّ الرجال الاثنا عشر، الأكثر نفوذًا في الحزب والدولة، طريقهم عبْرَ الثلوج. حتى قديس الشاي ارتدى حذاءً برقبة. تساقطتْ نُدَف الثلج الكبيرة من سماءٍ بيضاء. بين القبور وحول المقبرة المفتوحة تزاحَمَ رجال الحكومة في معاطفهم الطويلة وقبَّعات الفرو الدافئة. وعندما أنزلوا التابوت إلى القبر على أنغام فرقةٍ عسكرية ترتعش بردًا كانت تعزف أنشودة الحزب، همَسَ النُّصُب التِّذكاري: «اللعنة، المرة القادمة سيكون الدور عليَّ أنا». لكنَّه لم يَكُن التالي. «أ» كان التالي. تطلَّعَ «ش» إلى ما يحدُث. لفَّ النُّصُب التِّذكاري حزامَ «جِن-كيز خان» الكبير حول عنُقِ «أ». «مستعد؟» سأله النُّصُب. «ثلاثة أنفاس فقط»، أجاب «أ»، ونفَخَ بهدوءٍ ثلاث مرَّات دُخان غَليُونه، عندئذٍ وضَعَ الغَليُون المعقوف أمامه على الطاولة، قائلًا: «مستعد». ضيَّقَ النُّصُب التِّذكاري عليه الحزام. لم ينِدَّ عن «أ» صوت، صحيح أن جسده تمرَّدَ على عقله، كما جدفتْ ذراعاه من حوله عدَّة مرَّات من غير هدف، لكنه سرعان ما جلَسَ دون حَراك فاغرًا فمه على اتساعه: لقد ضيَّق النُّصُب التِّذكاري الحزام عليه بقوةٍ هائلة. تحجرتْ عينا «أ». مرةً أخرى بال «جِن-كيز خان» الأكبر. لم يُزعج ذلك أحدًا. «فليسقط الأعداءُ داخل الحزب، وليحيا «أ»، رَجُل الدولة العظيم!» هتَفَ المارشال «د». لم يخفِّف النُّصُب التِّذكاري من قبضته إلا بعد مرور خَمس دقائق، فوضَعَ حزام «جِن-كيز خان» الكبير إلى جانب الغَليُون الدانهيل على الطاولة، ثم عاد إلى مكانه وقعَدَ. كان «أ» يجلس ميتًا في المقعد أمام الشُّباك، وجهه إلى السقف، الذراعان متدلِّيتان. سدَّدَ الآخرون نظراتٍ صامتةً إليه. أشعَلَ اللورد إيفرجرين سيجارةً أمريكية، فثانيةً، فثالثةً. انتظَرَ الجميع زُهاءَ رُبع الساعة.

حاوَلَ أحدٌ من الخارج أن يفتح الباب بين «ح» و«د». نهَضَ «ث» وسار إلى «أ»، تأمَّله بدِقَّة، ثم تحسَّسَ وجهه. «إنَّه ميت» قال «ث»، «أعطني المفتاح يا «ج»» أطاع وزير التجارة الخارجية صامتًا، ففتَحَ «ث» الباب. على العتبة كان يقِفُ وزير الذرَّة «ص» الذي قدَّمَ اعتذاره عن التأخير. لقد أخطأ في الموعد. ثم أراد أن يذهب إلى مكانه، وفي تعجُّله سقطتْ منه حقيبته، وعندما رفَعَها من الأرض رأى «أ» «المشنوق»، فحملَقَ فيه. «أنا الرئيس الجديد»، قال «ث»، ثم صاح عبْرَ الباب المفتوح مناديًا العقيد. أدَّى العقيد التحية العسكرية دون أن تتغير ملامحُ وجهه أو تنقبض. أمَرَه «ث» بإخراج «أ» من الغرفة. عاد العقيد مع جنديَّين، وهكذا أصبح المقعد شاغرًا من جديد. أغلق «ث» الباب بالمفتاح. كانوا قد نهضوا كلُّهم. «نواصل جلسةَ الأمانة السياسية»، قال «ث»، «فلْنحدِّد الترتيبَ الجديد للجلوس». وجلَسَ على مقعد «أ». على يمينه ويساره جلَسَ «ب» و«ث». بجانب «ب» جلَسَ «ح»، وبجانب «ث» جلَسَ «ج». وإلى جوار «ح» جلستْ «س». عندئذٍ نظَرَ «ث» إلى «ش» وأشار إليه يدعوه للجلوس. مرتعِدًا جلَسَ «ش» بجوار «ج»؛ لقد أصبح سابعَ أقوى رَجُل في الدولة. وبدأ الثلج يهطل من السماء.

ث (أمين عام الحزب)

ت (مدير المخابرات)

ب (وزير الخارجية)

ج (وزير التجارة الخارجية)

ح (وزير الصناعة الثقيلة)

ش (وزير البريد)

س (وزيرة التربية)

خ (كبير المنظِّرين)

د (وزير الدفاع)

ذ (وزير الزراعة)

ر (الرئيس)

ز (وزير النقل والمواصلات)

ص (وزير الذرَّة)

ض (رئيس مجموعات الشَّبيبة)

حربُ التيبت الشَّتوية[1]

أنا جنديٌّ مُرتزِق وأفتخر بذلك. إنني أحارب العدوَّ، ليس باسم الإدارة فحسب، بل أيضًا كعضوٍ تنفيذيٍّ لها، وإنْ كان عضوًا متواضعًا، إنني أقوم بتلك المهامِّ التي تُجبرني على محاربة الأعداء؛ فالغرض من الإدارة ليس تقديمَ يدِ العون إلى المواطن فحسب، بل حمايته أيضًا. إنني أحارب في حربِ التيبت الشَّتوية. أقول شَتوية لأنَّ الشتاء يسود دومًا على مُنحدَرات الكومو–لاونجما والكويو والماكالو والماناسلو. نحارب العدوَّ على قمم الجبال الرائعة، وفي المجاري الجليدية وعلى التِّلال المُنحدِرة، في الأراضي المفروشة بالحصى، وعلى الصخور وتحت المنحدَرات، وسط متاهةٍ من الخنادق والمخابئ، وفي ضوء الشمس الباهر الذي يذهب بالأبصار. وتزداد صعوبة القتال لأنَّ كلًّا من العدو والصديق يرتدي زيًّا مشابِهًا أبيضَ اللون. هذه الحرب الْتحامٌ وحشي بين الجنود لا تقيِّده قيود. إنَّ البرودة السائدة على القمم والمنحدَرات الصخرية التي تعلو ثمانية آلاف مترٍ فوق سطْحِ البحر؛ برودةٌ غير إنسانية جمَّدت منَّا الأُنوف والآذان. ويتكوَّن جيشُ المرتزِقة التابع للإدارة من جميع أجناس الأرض؛ الزنجيُّ العملاق من الكونغو يحارب مع أحَدِ الجنود من الملايو، الاسكندنافي الأشقر إلى جانب جنديٍّ من أدغال أستراليا، وهم ليسوا جنودًا سابقين فحسب، بل أيضًا أعضاء جماعاتٍ سرِّية وإرهابيِّون يعتنقون كلَّ أطياف الأيديولوجيات، وكذلك قتَلَة مأجورون ورجال مافيا ومساجين عاديِّون. هكذا كان الحال لدى العدوِّ أيضًا. أمَّا إذا لم نكُنْ في حالة حرب، فإننا ننزوي في مغاراتنا الجليدية، وفي الأنفاق التي شُقَّت بتفجير

---

[1] نشَرَ دورنمات هذه القصة لأول مرة عام ١٩٨١م، ثم أعاد كتابتها ونُشرتْ عام وفاته (١٩٩٠م). (المترجِم)

الصخور، وفي السراديب المتصلة بعضها بعضًا والتي تكوِّن شبكةً في قلب الكُتَل الصخرية العملاقة، شبكة معقَّدة لا يحيط بها أحدٌ، حتى إنَّ الأطراف المتعادية كانت تتقابَلُ فيها صدفةً دون أن تدرك، وهناك كان كلٌّ فريق يُبيد الآخر. ليس ثمَّة أمانٌ في أيِّ مكان، ولا حتى في الماخور تحت جبل الكانجشند تسونجا، في تلك المغارات الخمس الملأى بالكنوز وسط الجليد العظيم، والتي تضمُّ عاهراتٍ من مختلف البقاع. الأعداء أيضًا يتردَّدون على بيت الدعارة البدائي هذا، بعد أن تفاهَمَ ضباط الماخور من كلَا الجانبَين على ذلك. ولا ألوم الإدارة على قرارها؛ فالمضاجعة ضرورة يصعب التحكُّم فيها. ولكنْ كَم من الرِّفاق طُعن بالخنجر وهو يرقد فوق إحدى المُومِسات، هذا ما حدَثَ لقائدي — مثلًا — في الحرب العالمية الأخيرة، وهو الذي كان يفضِّل، حتى في أثناء الحرب، ماخورَ الجنود على بيت الدعارة المخصَّص للضباط. أتذكَّرُ تمامًا كيف عثرتُ عليه.

قبل عشرين أو ثلاثين عامًا — ومَن منَّا يعدُّ السنين؟ — دخلتُ مدينة نيباليَّةً صغيرة مستخدِمًا بطاقة الهوية التي أصدرتْها الإدارة. استقبلتْني ضابطةُ جيش، وأنهكتْني إنهاكًا تامًّا. كنتُ خائر القُوى كشيخٍ بلَغَ من العمر أرذَلَه عندما فتحَتْ بابًا حديديًّا صدئًا، ثم أغلقته في عنف حتى كاد ينهَارُ. حدَثَ كلُّ شيءٍ في غرفةٍ عارية، حَشيَّة بجانب البار، وعلى الأرض تناثرتْ قطَعُ الملابس: الزِّي العسكري للمرأة وثيابي المدنية الرثَّة بعد أن تمزَّقتْ. الباب مفتوحٌ على اتِّساعه، الأطفال يملئُون المكان. بكلِّ الخدوش على بشرتي، وبالغضب الذي شعرتُ به من الأطفال الذين تحلَّقُوا حولي مهلِّلين؛ اعتليتُ المرأةَ الهائلة العارية. ترنَّحتُ مخترِقًا الباب، دون أن ألاحظ أنَّ خلْفَه درَجًا مائلًا يؤدِّي إلى أسفل. هويتُ، تدحرجتُ، وسقطتُ على أرضيَّة خرسانية، ظللتُ راقدًا أنزف، لم أفقد الوعي، كنتُ فرحًا لأنني ما زلتُ أرقد. بحذرٍ جلتُ ببصري فيما حولي. وجدتُ نَفْسي في غرفةٍ مربَّعة. على الحائط أزياء عسكريةٌ بيضاء، ورشَّاشاتٌ آلية، وخوذات حديدية مكسوَّة بقماشٍ أبيض. خلْفَ أحد المكاتب جلَسَ جنديٌّ مرتزِق، لا يمكن تحديد عمره، كأنَّ وجهه مصنوعٌ من الطمي، أمَّا فمُه فيخلو من الأسنان. كان يرتدي زيًّا عسكريًّا أبيضَ وخوذة مثل تلك المعلَّقة على الحائط. فوق المكتب رشَّاشٌ آلي، وكومةٌ من مجلات البورنو راح المرتزِق يقلِّب في صفحاتها. ثم لاحَظَ أخيرًا وجودي: «هذا هو إذن، الجديد»، ثم أضاف، «منهكًا، كما ينبغي». سحَبَ دُرجًا، وأخَذَ استمارة. أغلق الدُّرج. ببطء، وبصعوبة راح يسنُّ عقبَ قلَمٍ من الرصاص مستخدِمًا مِطواة، في أثناء ذلك جرَحَ نَفْسه، فأخَذَ يسبُّ ويلعن، وأخيرًا تمكَّن من الكتابة على الاستمارة التي امتلأتْ بالدم، ثم أمرني قائلًا: «قِف». وقفتُ. شعرتُ

بالبرد. في تلك اللحظة انتبهتُ إلى أنني عارٍ. الجروحُ تغطِّي أنفي ويدي، بينما كان جبيني ينزف. «رقمك هو ف (د) ٢٥٦٣٢٣»، قال دون أن يسألني عن اسمي. «هل تؤمن بالله؟» «لا»، أجبتُه. فسألني: «هل تؤمن بخلود الرُّوح؟» «لا» فردَّ قائلًا: «عمومًا، ليس هذا في اللوائح. وإنْ كان الإيمانُ ليس مناسبًا تمامًا. هل تعتقد بوجود عدوٍّ؟» «نعم»، أجبتُه. «أترى؟ هذا تشترطه اللوائح. ارتَدِ أحدَ الأزياء العسكرية، وخذْ خوذةً ورشَّاشًا. إنَّه مُعَمَّر». أطعتُ. وضَعَ الاستمارة في الدُّرج، ثم أغلَقَه بصعوبةٍ كما فتَحَه، ونهَضَ. «هل تعرف كيف تستخدم رشَّاشًا كهذا؟» «سؤالٌ سخيف»، أجبتُه، فقال: «لا تنسَ، ليس كلُّ الذين يأتون إلى هنا من الخنازير الطاعنة في السنِّ التي كانت تحارب على الجبهة مثلك، يا رقم ٢٣». «لماذا ٢٣؟» «لأنَّ رقمك ينتهي بـ ٢٣»، أجابني ثم تناوَلَ رشَّاشه من المكتب وفتَحَ بابًا خشبيًّا منخفِضًا وشبهَ متآكِل. عرجتُ خلْفَه. دلفنا إلى ممرٍّ ضيِّق مبلَّل. كان محفورًا في الصخر، لا تخفِّف من ظُلمته سوى لمباتٍ صغيرةٍ حمراء، كانت الأسلاك الكهربائية الموصولة بها تمتدُّ بجوار الحائط بدون تثبيت. من مكانٍ ما سمعتُ هدير شلَّالِ مياه. وفي مكانٍ ما انطلق رصاص، ثم سمعتُ انفجارًا مكتومًا. ظلَّ المرتزِق واقفًا، ثم قال: «إذا مرَّ بنا أحدٌ؛ افتح النار عليه، فمن الممكن أن يكون من الأعداء. وإذا لم يكُنْ؛ فلن نخسَرَ كثيرًا». يبدو أنَّ السرداب كان ينخفض، ولكنني لم أكُنْ متأكدًا؛ إذ إننا كثيرًا ما كنَّا نتسلَّق حتى نواصل السَّير. كان النفق يصعد بنا صعودًا مائلًا، ثم نتسلَّق الحبال لننزل إلى أعماقٍ مجهولة. سرعان ما انتهت شبَكَة الأنفاق والسراديب، ثم أقلَّتْنا شبكةٌ معقَّدة من المصاعد، وسرعان ما أمسى كلُّ شيء بدائيًّا على نحوٍ بالِغ، وكأنَّ المكان بُنيَ منذ الأزل، ويوشك على الانهيار؛ إنَّ من ضُروب المستحيل أن يكوِّن الجنديُّ المرتزِق «صورةً جغرافية» عن المتاهة التي نعيش فيها، ولا يستطيع حتى أن يصنع تخطيطًا بدائيًّا تقريبيًّا. نزَفَ الدمُ من يدي بكثرة. في إحدى المغارات نِمنا بضع ساعات، انكمَشَ فيها كلٌّ منَّا على نَفْسه كالحيوان. يبدو أنَّ المتاهة أصبحتْ أبسط. استقامت الأنفاق، ولكنْ لم يكُنْ من الممكن أن أحدِّد في أيِّ اتجاه نسير. في بعض الأحيان كنَّا نمشي كيلومتراتٍ عبْرَ مياهٍ ثلجية البرودة تصِلُ حتى الرُّكَب. يمينًا ويسارًا تتفرَّع أنفاقٌ أخرى من النفق الذي نسير فيه. تساقطتْ قطرات المياه في كل الأنحاء، ولكن في بعض الأحيان كان يَسُود هدوءُ المَقابر، فلَمْ نكُنْ نسمع سوى وقْعِ خطواتنا. وفجأةً راح المرتزِق يتحسَّس طريقه أمامي بحذَرٍ، ورشَّاشه على أُهْبَة الاستعداد، وحيثما كان يصبُّ أحدُ الأنفاق في نفقنا سمعتُ صفيرًا يمرُق بجانب رأسي: لقد عُدتُ إلى خضَمِّ الحرب العالمية الثالثة. مَشينا بقامةٍ منحنية إلى ما يُشبه السُّلَّم اللولبي، كان خشبه

هشًّا متآكِلًا، ومنه أخَذَ المرتزِق يُطلق الرَّصاص الطائش — إذ لم يكُنْ هناك أي شخص — في اتجاه النفق، إلى أن أفرَغَ خِزانة رشَّاشه. بعد الهبوط مسافةً قصيرة وصلنا مغارةً مُضاءة إضاءةً أفضلَ قليلًا، وإليها كانت تؤدِّي سلالمُ لولبيَّةٌ أخرى، بعضها من فوق — ومنها التي أتينا عن طريقها — وبعضها من أسفل. من المغارة تفرَّعَ نفَقٌ عريض أدَّى إلى بابِ مصعد. ضغَطَ المرتزِق الزِّر، وانتظرنا حوالي ربع ساعة. «عندما نخرج»، قال المرتزِق، «ألقِ برشَّاشك، وارفع يدَيك». انفتَحَ الباب، ودخلنا المصعد. كان صغيرًا ضيِّقًا، ولكن — وهذا هو الغريب — مكسوًّا بقماشٍ حريريٍّ نبيذيِّ اللون، ثقَبَته رصاصات لا تُعَد. لم أعُدْ أعرف ما إذا كان المصعد أقلَّنا إلى الأعلى أم إلى الأسفل. كان له بابان. لم ألحظ ذلك إلا عندما انفتَحَ البابُ خلْفَ ظَهري بعد رُبع ساعة.

ألقى المرتزِق برشَّاشه خارجًا، وأتبعتُه برشَّاشي. خرجتُ من المصعد بذراعَين مرفوعتَين، المرتزِق أيضًا رفَعَ ذراعَيه عاليًا. ظللتُ واقفًا، مصدومًا؛ أمامي كان يجلس على كرسيٍّ متحرِّك مرتزِقٌ بلا ساقَين، ذراعاه اصطناعيتان، اليسرى من الصُّلب وتنتهي برشَّاشٍ آلي، أمَّا اليمنى فتنتهي بيدٍ اصطناعية تتكوَّن من كمَّاشات ومفكَّات وسكاكين وقبضةٍ حديدية. الجزء الأسفل من الوجه من الصُّلب أيضًا، ومكان الفم كان هناك خرطوم. تحرَّكَ الكائن على الكرسي بعيدًا عنا، ثم أعطى إشارةً بالرشَّاش أن نقترب. أنزَلَ كلٌّ منَّا ذراعَيه. في وسط المغارة رجُلٌ عارٍ ملتحٍ معلَّقٌ من يدَيه، وفي قدمَيه ربطوا حجَرًا ثقيلًا. لم يَصدُر عن الرَّجُل أدنى حركة. بين الحين والآخر ندَّتْ عنه حشرجة. مرتكزًا إلى الحائط بجوار الصخرة مباشرة، على مضجعٍ خشبيٍّ بائس، ووسط كومةٍ من الأسلحة وصناديق الذخيرة، مُحاطًا بزجاجات الكونياك؛ جلَسَ ضابطٌ ضخمٌ عجوزٌ يرتدي زيًّا حربيًّا مفتوحًا، وتحته لمعتْ شعراتُ صدره البيضاء المبلَّلة بالعرَق. كان الزِّي مألوفًا لي، كنتُ أعرفه من أيام الحرب؛ كان الضابط قائدَ فرقتي. رفَعَ زجاجةً إلى شفتَيه، وشرِبَ. «يوناتان»، تحرَّك إلى الزاوية، قال بلسانٍ ثقيلٍ وبلُكْنَة. تحرَّكَ الكائنُ بكرسيِّه إلى حائط المغارة، ثم شرَعَ ينقُش شيئًا على الحائط. «يوناتان مفكِّر»، قال القائد متفحِّصًا إياي. ثم أدرَكَ فجأةً مَن أنا: «هانز الصغير»، وضحِكَ ضحكةً متحشرِجة، «ألا تعرفني؟ أنا هو أنا، قائدك القديم». وأشرَقَ وجهُه. «لقد واصلتُ طريقي حتى وصلتُ إلى بريجنتس. تعالَ». فقلتُ متلعثِمًا: «حضرة الضابط»، وسِرتُ إليه، فوسَّدَ رأسي على صدره الرطب. «أنت هنا»، واصَلَ الصوتُ المبحوح فوقي، «ها أنت هنا مرةً أخرى، يا صغيري، يا ابن المُومِس». وأمسَكَ بشعري وهزَّ رأسي إلى الأمام والخلف. «كنتُ سأستغرب لو استطاعت الإدارة أن تروِّض صغيري

هانز. الجنديُّ يظلُّ جنديًّا»، برُكْبته اليمنى المَثنيَّة وجَّهَ إليَّ ضربةً كانت من القوة بحيث إنَّني — لأنَّه في الوقت نَفْسه أطلق سراحي — وجدتُ نَفْسي أترنَّحُ مصطدِمًا بالرَّجُل المُعلَّق الذي تأوَّه عاليًا وراح يتأرجح يمينًا ويسارًا. نصبتُ قامتي مرةً أخرى، فقهقَهَ القائد. «أعطني سيجارًا يا نذل!» صاح في وجه المرتزِق الذي أحضرني إلى الغرفة، «لقد استهلكتُ حصتي». ناوَلَه المرتزِق سيجارًا دون كلمة، ثم سحَبَ دفترًا وسجَّل قائلًا: «أنت مدينٌ لي الآن بسبعةٍ أيها القائد». فزأَرَ القائدُ قائلًا: «طيِّب، طيِّب»، وأشعَلَ السيجار بولَّاعةٍ ذهبية تمايزتْ تمايُزًا غريبًا عن زِيِّه الرثِّ وبُؤس المغارة. تذكرتُ أنني رأيتُ الولَّاعة نَفْسها في فندق «كور» في منطقةِ الإنجادين السُّفلى، وهو ما أشعَرَني بالرضا؛ الزمنُ الجميل الماضي لم ينقضِ تمامًا. «اطلعْ برَّه»، قال القائد للمرتزِق الذي أدَّى التحية العسكرية واستدار، ثم انحنى ليلتقط رشَّاشه الآلي. في هذه اللحظة أطلَقَ القائد دفعةً من الرصاص ثقبتْ جسدَ المرتزِق كالغربال. راضيًا أعاد القائدُ رشَّاشه الآلي إلى المضجع الخشبي. حرَّكَ يوناتان كرسيَّه إلى الجثَّة وتفحَّصها بيده الاصطناعية اليمنى. «ألَمْ يعُدْ معه سيجار؟» أراد القائد أن يعرف. هزَّ يوناتان رأسه نافيًا. «ولا مجلة بورنو؟» هزَّ يوناتان رأسه مرةً أخرى، ثم ثبَّتَ الجثَّة في خطَّافٍ بكرسيِّه، وجرَّها مبتعِدًا. «الآن لا يعرف أحدٌ الطريقَ إليَّ»، قال القائد، «النقاط الأمامية على خطوط التَّماس خطِرةٌ؛ لأنَّها تنتقل إلى صفوف العدوِّ بسهولة. هذا الخنزير انضمَّ إلى الأعداء، فيما مضى كان يُحضر لي دائمًا مجلات بورنو». ثم حدَّقَ في الرَّجُل المعلَّق العاري. «صغيري هانز»، قال مطلِقًا سحابةً من الدُّخان أمامه، «صغيري هانز، يبدو أنَّك تستغرب رؤيةَ شخصٍ مثلِ هذا معلَّقًا عندنا. إنَّ الجيش، آمل أن تكون مدركًا لذلك، لا يحبُّ مَن يعذِّب غيره. وأنت بالتأكيد لم تنسَ أنَّ قائدك القديم لم يكُنْ ممَّن يعذِّب جنوده. كنتُ أحبُّ جنودي كأولادي، وجنودي المرتزِقة أحبُّهم أيضًا مثلَ أولادي». «تمام، سعادتك»، قلتُ له. أومَأَ لي، ونهَضَ، تأرجَحَ ناحيةَ حائطِ المغارة بجانب يوناتان الذي كان قد تحرَّكَ بكرسيِّه ناحيةَ الجدار الصخري وهناك نقَشَ شيئًا. بال القائد، وفي أثناء ذلك قال: «إذا كان هناك جنديٌّ عارٍ يتدلَّى من حبل؛ فإن ذلك يتنافى مع عاطفيتي، أليس كذلك يا صغيري هانز؟ أنت شابٌّ طيِّب، أنت تعرف أنَّني متعاطِفٌ مع هذا الشاب. لأنني عاطفيٌّ. والعواطف شيءٌ إنساني. الحيوانات غير عاطفية. شدَّ قامتَكَ عندما أتحدَّثُ معك». شددتُ قامتي: «تمام، سعادتك». استدار العجوز، وزرَّرَ سِرواله، محدِّقًا فيَّ بعيونٍ ضيِّقة، ثم سألني: «صغيري هانز، ما رأيك في ابن الكلب هذا؟ لماذا، في رأيك، علَّقناه هنا؟» رُحتُ أفكِّر. «إنَّه سجين، سعادة القائد»، أجبتُ وقامتي ما زالتْ منتصِبة، «عدو». خبَطَ

القائد بقدمَيه على الأرض. «إنَّه أحدُ أفراد فرقتي. مرتزِق. تريد أنت أيضًا أن تصبح من المرتزِقة يا عقيد». ونظَرَ إليَّ متفحِّصًا، دون أن يتفوَّهَ بكلمة، نظرةً كادتْ تكون عدوانية؛ فأجبتُ دون أن أتحرَّك: «إنني مصمِّم على ذلك». هزَّ القائد رأسه قائلًا: «كما أرى، ما زلتَ كما كنتَ، وغدًا مطيعًا. يمكن استخدامك في كلِّ شيء، تمامًا مثل أيام فندق كور. انتبِهْ جيدًا يا بُنيَّ، لَما أفعله الآن». ترنَّحَ بخطواتٍ بطيئة إلى وسط المغارة ثم أطفأ سيجاره المشتعِل في بطنِ المرتزِق المعلَّق. «والآن، يمكن أن تبول أنت أيضًا»، قال القائد. لم تَصدُر عن المرتزق سوى آهة. «المسكين لم يعُدْ يقوى على التبوُّل»، قال القائد، «يا غلبان!» ثم أرجَحَ المرتزقَ سائلًا إياي: «صغيري هانز؟» «سعادتك؟» «الكلب معلَّق منذ ١٢ ساعة»، قال، ثم واصَلَ أرجحتَه. «وهو كلبٌ مطيع، مرتزِقٌ طيِّب، أحبُّه مثلَ ابني الصغير». ووقَفَ أمامي. كانت قامة العملاق العجوز أعلى منِّي بمقدارِ رأس. «هل تعرف يا صغيري هانز مَن الذي أمَرَ بهذه الأعمال القذرة؟» سألني بلهجةٍ مهدِّدة. «لا، سعادتك»، أجبتُ وأنا أضمُّ الكعبَين معًا. لزم القائد الصمتَ. «أنا، يا صغيري هانز»، قال بصوتٍ حزين. «وهل تعرف لماذا؟ لأنَّ ابني العزيز يتوهَّم عدمَ وجود أعداء. خذْ رشَّاشك الآلي يا هانز. إنَّه أفضلُ شيءٍ لابني العزيز». أطلقتُ كلَّ رصاص الرشَّاش. كتلةٌ دامية من اللحم هي كلُّ ما تبقتْ على الصخرة. «صغيري هانز»، قال القائد بحنان، «فلْنذهب إلى المصعد. سأختنق هنا في الأسفل. لا بد أنْ أعود إلى الجبهة. استخدمنا أكثرَ من مصعد. الأولُ كان فخمًا. تمدَّدنا وتمطَّعنا على أريكة، وعلى الجدار أمامنا رأيتُ صورةً معلَّقة لفتاةٍ عاريةٍ ترقد على بطنها فوق أريكة. «هذه اللوحة لبوشيه أحضرتُها من متحف البيناكوتيك القديم»، قال القائد موضِّحًا. «ميونيخ كلُّها كانت كومةً من الأنقاض. جنة لَمن يريد السلب والنهب». كلُّ مصعد أخذناه بعد ذلك كان يفوق سابقه بؤسًا وحقارة، وسرعان ما وجدتُ الجدران ملصوقةً بصفحاتٍ من مجلات البورنو، وفي كل مكان نكات بذيئة محفورةً على الجدران، وبعد فترةٍ لم تعُدْ ثمَّة مصاعد. مرتدِين الأقنعة، وعلى ظهورنا أجهزة الأكسجين الثقيلة؛ رُحنا نتسلَّق جدرانَ مغاراتٍ مائلةً، غيرَ أنَّ القائد العملاق لم يكلَّ، بل كان يزداد حيويةً. ولأنه كان يعرف مكانَ عَددٍ لا يُحصى من المخابئ التي خُزِّنت فيها زجاجاتُ الكونياك؛ فقد ازداد مجونًا أيضًا، فكان يُطلق صيحات التهليل والفرح قبل أن يتسلَّق المواضعَ الصعبة. واصَلْنا الزحف في ممرَّاتٍ واطئة، ثم ركبنا سِلالًا مثبتةً في حِبال صعدتْ بنا إلى أعلى، حتى وصلنا إلى مخبأ ومقرِّ قائدي.

نمتُ طويلًا ودون أحلام. لقد أصبحتُ أنا أيضًا — بعد أن قتلتُ المرتزِق وجعلتُه كالغربال برشَّاشي الآلي — مرتزِقًا، كانت هذه أول مرةٍ أقوم فيها بواجبي في خدمة الإدارة. على المرتزِق ألَّا يسمح لنَفْسه بالسؤال عن العدوِّ؛ لأنَّ هذا السؤال يعني، ببساطة، موتَه. إذا تساءل عن العدوِّ — حتى لو كان السؤال في اللاوعي — فإنه لن يَقدُر على القتال. فإذا ضاق صدرُه بالسؤال وتجرَّأ على طرحه؛ فقد ضاع وانتهى أمرُهُ، ولم يعُدْ بالإمكان إنقاذه. عندئذٍ يتحتَّم على القائد والجنود المرتزِقة الآخرين أن يُنقذوا ما يمكن إنقاذه. ولهذا فأنا فخورٌ لأنني فتحتُ النار باسم الجميع. ومنذئذٍ لم يَعُد السؤال عن العدو مطروحًا. إنَّ الحرب الشَّتوية تعلِّم المرتزق أيضًا أن يطرح أسئلةً لا يمكن الإجابةُ عنها، ولكنَّها أسئلةٌ ذات مغزًى. إنه لا يكترث بمعرفة مَن هو العدو، ما يهمُّه هو: لماذا يحارب؟ ومَن يُصدر الأوامر؟ هذه الأسئلة ذات مغزًى، بينما السؤال عن العدوِّ يتضمَّن غوايةَ إنكار وجود العدو الذي نحاربه يومًا بعد يوم، العدو الذي لا شكَّ في وجوده لأننا نقتله. لا معنى لحرب بلا عدو، بل إنَّ هذا هو الهُراء بعينه؛ ولهذا لا يَطرح المرتزِق هذا السؤال من أساسه، وإلا فإنَّه يطرح نَفْسه هدفًا لرشَّاش زميله الواقف بجواره. هذا هو اليقين الوحيد المتبقِّي، ليس ثمَّة يقينٌ آخر. تنتشر الأنباء عن انتصاراتٍ مذهِلة، النصر النهائي دائمًا وشيك، بل لقد تمَّ تحقيقه، ولكنَّ الحرب الشَّتوية مستمرَّةٌ. لا يعرف المرتزِقة لماذا يحاربون ولماذا يموتون، أو لماذا تُبتر أعضاؤهم في مستشفيات الميدان البدائية ثم يُرسلون مرةً أخرى إلى الجبهة بأطرافٍ اصطناعية فجَّة الصنع، البعض يُزوَّد بخطَّافٍ ومسامير بدلًا من اليدَين، والبعض الآخر فقَدَ بصره، الوجه ليس إلا كتلةً فظَّة من اللحم. يرسلون إلى جبهةٍ موجودة في كلِّ مكان. لا يعرفون سوى أنَّهم يحاربون الأعداء. يقومون بأعمالٍ بطوليةٍ غير إنسانية ولا معنى لها دون أن يعرفوا السبب؛ لقد نسُوا منذ أمدٍ بعيد أنَّهم تطوَّعوا بمحضِ إرادتهم. يشرعون في البحث عن معنًى لحرب الشتاء، ويُنشئون نُظمًا فكرية خيالية — ما ضرورة هذه الحرب؟ ولماذا قد يتعلَّق بها مصير الإنسانية جمعاء؟ — لأنَّ هذه الأسئلة هي الوحيدة التي تعني شيئًا لهم. إنَّ الأمل في العثور على معنًى يمنحهم القوة التي يحتاجون إليها؛ هذا ما يجعل الذبح والقتل أمرًا ممكِنًا ومُحتمَلًا. ولهذا، من المفهوم ألَّا يحارِب المرتزِق العدوَّ فحسب، بل أيضًا المرتزِقة في صفوفه. ليس للمرتزِق أعداء فحسب، إنَّه يواجه الخصوم أيضًا؛ أي المرتزِقة الذين يفهمون مَغزَى الحرب الشَّتوية فهمًا مُغايرًا. يكره ذلك الخصم، أمَّا العدو فلا يكترث به. إنَّه وحشٌ أمام الخصم، يقوم بنحره، أمَّا العدو فإنَّه يقتله فحسب. ولهذا يكوِّن المرتزِقة جماعات وفِرقًا، وينضمُّون إلى تلك التي ربما يعتبرونها فرقةً

مُعادِية، غيرَ أنَّها تبدو أكثرَ احتمالًا من تلك التي يتَّفقون معها في الخطوط الرئيسية، ولكنهم يرون أنفسهم بعيدين عنها في المسائل الثانوية التافهة، أو في أحد تفاصيل المسائل الثانوية؛ فجأةً يعتبرون الفروق والظلال أهمَّ من الرأي الرئيسي. بعض الجماعات تكوِّن أغربَ النظريات عمَّن يقود تلك الحروب، وفي أيِّ المغارات الجبلية يعيش قادةُ الأعداء، تحت جبال الخانجسته أو اللوتسه، بينما يعتقدون أنَّ قادتهم يختبئون في جبال الأنابورنا أو الداولاجيري. ثمة فرقة — غريبة الأطوار بالطبع — كانت تُلاحَق من الجميع، حتى من العدوِّ، تعتقد في وجود قيادةٍ واحدة، وتحديدًا في جوف جبل «برود بيك» البعيد ذي القمم الثلاث. نعم، بل إنَّ ثمَّة فرقة — قُضي عليها واجتُثَّتْ من جذورها — أعلنتْ أنَّ هناك قائدًا واحدًا للعمليات الحربية، مارشال أعمَى بلَغَ من العمر عتيًّا، ولوجوده في معسكر التصفية الضخم؛ فقَدْ كان يشنُّ في الوقت ذاته حربًا ضدَّ نَفْسه؛ لأنَّ كلتا القوَّتَين قدَّمتْ له رشوةً في آنٍ معًا. ويُقال إنَّ ثمَّة فرقة تعتقد أنَّ هذا المارشال هو مخبولٌ أيضًا. هذه الفِرَق المختلفة تكوِّن بدورها جبهاتٍ متصارعةً، وهذه الجبهات تنقسم إلى جبهاتٍ أخرى وجبهاتٍ مضادة. وهكذا، فإن نظام المرتزِقة ليس على أفضل حال؛ إنهم يكوِّنون — في أثناء المذابح والتقتيل — جماعاتٍ كثيرةً تقضي على بعضها البعض، بدلًا من أن تقضي على العدوِّ، تمزِّقهم شظايا قنابِلِهم، وتُصيبهم طلقاتُ رشَّاشاتهم الآلية، فتجعل جسدَ الواحد منهم كالغربال، يحترقون من لهب قاذفي النيران في فرقتهم، ويتجمَّدون بردًا في أوكارهم الجليدية، يَلقَون حتفهم بسبب نقص الأكسجين في الكهوف الرائعة التي حفروها بأيديهم يأسًا؛ لأنَّ الشجاعة لم تُواتِهم للعودة إلى معسكراتهم، خوفًا من أن تكون فِرقٌ وجماعاتٌ جديدة نشأتْ في تلك الأثناء، بينما لا ينقطع المدد الذي يأتيهم من كلِّ البلاد ومن جميع الأجناس، مُلقين بأنفسهم في أَتُّون المذابح. أمَّا حالة العدوِّ فلا تختلف كثيرًا، هذا إذا كان للعدوِّ وجودٌ من الأساس، يحقُّ لي طرحُ هذا السؤال الآن؛ لقد أضحيت القائد منذ فترة.

عندما رفعوه من فوق المُومِس عاريًا وضخمًا، عندما تخلَّصوا من جثَّته؛ ارتديتُ زِيَّه، ونلتُ على الفور احترام المرتزِقة. أعرف أنَّ المرتزِقة يعرفون أنني غرزتُ الخنجر في قلبه؛ ولكنهم ليسوا بحاجة إلى أن يعرفوا أنَّ تلك كانت أمنيته. «صغيري هانز»، قال ضاحكًا قبل أن ندخل الماخور، وبعد أن ارتكز على الجدار الصخري لمغارته القديمة حيث شنقوا المرتزِق قبلها بعامَين، «صغيري هانز، أفرغ رشَّاشك في جسدي. إنَّه من الهُراء أن تعتقد أنَّ هناك عدوًّا واحدًا. هيا يا بُنيَّ». لزمتُ الصمت وتصرفتُ وكأنني لم أفهمْه، بينما راح يوناتان على كرسيِّه المتحرِك ينقش شيئًا على جدار المغارة الرئيسية. ثم انطلقنا عبْرَ شبكةِ

المغارات والممرَّات التي لا تنتهي إلى أن وصلنا إلى الماخور. بعد أن تأوَّه فوق عاهرته، طعنتُه؛ لقد استحقَّ قائدي أنْ يَلقَى حتفه على نحوٍ لائق. صرَخَت المُومِس، والمُومِسات الأخرى أنزلنه على الأرض، وتحلَّقنَ حوله بأجسادهن الثقيلة العارية. مسحتُ الخنجر في مُلاءةِ سرير. رأيتُ القائد يتفرَّج عليَّ. «صغيري هانز»، همَسَ، وتوجَّبَ عليَّ أن أركَعَ حتى أفهَمَ ما يقوله. «صغيري هانز، هل درستَ في الجامعة؟» فأجبتُه: «فلسفة». «وحصلتَ على الدكتوراه؟» «برسالةٍ عن أفلاطون»، قلتُ له، «وقبل مناقشة الرسالة بدأت الحربُ العالمية الثالثة». صدرت حشرجةٌ عن القائد. ببطءٍ فهمتُ أنَّه كان يضحك. «أنا درستُ الأدب، يا صغيري، هوفمنستال». نهضتُ. «لقد مات»، قلتُ للمُومِسات. كان قائدًا عظيمًا. لو كان حيًّا لشكَرَني مرتَين لأنني قتلتُه. لقد انقرضت المواخير منذ زمن، وهي كانت محطَّ أشواقه، أمَّا الكونياك فلَمْ يكُنْ سوى عادة. في المقابل بادَرَت الجنديَّات المرتزِقة بالهجوم في المعارك، وأعترفُ أنهنَّ يفُقنَ الجنودَ جرأةً وتهوُّرًا، وبالجنس ازدادتْ نار جهنم على الجبهة استعارًا؛ الجندي يقتل وينكح كي يكسب الرهان، الدماء والحيوانات المنوية والأحشاء وسوائل الرَّحم والأجنَّة والقيء وأغشية المساريقا والمواليد الصارخون، الأمخاخ والعيون والمشايم تتدافع أنهارًا هابطةً المجاري الجليدية العملاقة، ثم تهوي وتختفي في شقوقٍ عميقةِ الغور.

لم يعُدْ هذا يُزعجني. بلا ساقَين أجلس على كرسيٍّ متحرِّك في المغارة القديمة، فقدتُ ساعديَّ أيضًا، ذراعي اليُسرى تنتهي مباشرةً بالرشَّاش الآلي. أُطلق النيران على كلِّ مَن يظهر أمامي، الممرَّات ملأى بالجثث. لحُسن الحظِّ هناك جرذان. يدي اليمنى آلةٌ متعدِّدة الأغراض: كمَّاشات ومطارق ومفكَّات ومقصَّات وأقلام ... إلخ، وكلها من الصُّلب. في أحد الكهوف الجانبية مخزن هائل للمعلَّبات وأجود أنواع الكونياك — هذا ممَّا أعدَّه سلفي للمستقبل. بالتأكيد، لقد أصبح الأمر أكثرَ هدوءًا، لم أعُدْ محتاجًا إلى ذراعي اليسرى — الرشَّاش الآلي؛ قبل سنوات اهتزَّ كلُّ شيء، ربما تكون الإدارة قد ألقتْ قنبلة. الأمر سواء. عندي وقتٌ للتأمُّل، ووقتٌ لنقْشِ أفكاري على الجدار الصخري بالقلم الحديدي في نهاية يدي الاصطناعية اليمنى. كان يوناتان هو الذي هداني إلى الفكرة، وإلى الطريقة أيضًا. ثمَّة جدران صخرية بما يكفي، مئات الكيلومترات، وما زالتْ مضاءة في بعض الأماكن، وإن كانت المصابيحُ المحترِقة لم تُستبدل. ولكنني أستطيع — ولا بد — أن أنقش في الظَّلام على الصخر؛ حتى الآن قمتُ بالكتابة عن الحرب الشَّتوية وكيفية الْتحاقي بها ولقائي بالقائد وموته، جدران المغارة مغطَّاة بكتاباتي؛ والآن شرعتُ في الكتابة على حائط النَّفَق الرئيسي الكبير المؤدِّي إلى المواخير، يبلغ طول السطر مائتي متر، ثم أتحرك بكرسيٍّ لأنقش سطرًا

آخر طوله مائتي متر، وهكذا كتبتُ سبعة أسطر تحت بعضها، كل سطر ٢٠٠ متر. عندما أنتهي، أبدأ النقش على الحائط المقابل في النفق، فإذا كتبت مائتي متر، أواصل الكتابة على الحائط الأول حيث توقفت، فأنقش مائتي متر، وهكذا دواليك؛ على كلِّ حائط كتابات في سبعة أسطر، طول السطر ٢٠٠ متر. في أثناء ذلك يتحوَّل المرء إلى كاتبٍ ذي أسلوب.

[مقطع طويل لا يُقرأ، وذلك لأنَّ الكاتب لم يرَ، أو لم يُرِد أنْ يرى أنَّ كتابته منقوشةٌ على موضع في الحائط تمَّت الكتابة عليه من قبل، وهكذا أَضحتْ كلتا الكتابتَين لا تُقرأ. بعد عدَّةِ أمتارٍ من الحائط خاليةٍ من النَّقش؛ تتواصَلُ الكتابة على النحو التالي:]

... إنَّ ما أكتُبُه ليس تشبيهًا غامضًا، أو نوعًا من وصف الأحلام المجنونة لمرتزِقٍ عاجز عن القتال، رُقعتْ أجزاؤه ترقيعًا (حتى غطاء دماغي من الكروم الصُّلب)، إنَّني أحاول هنا وصفَ طبيعةِ الإدارة فحسب. بالطبع يمكن الاعتراض بأنَّ المسافة الزمنية تنقُصني حتى أستطيع أن أصوِّر هذا الواقع، تلك المسافة التي تُتيح لنا أن نحكُم على الأشياء حُكمًا حقيقيًّا؛ إلا أنَّه من المستحيل أن أبتعد مسافةً أكبر من ذلك في المغارات والأنفاق المحفورة في صخور الجبال الهائلة. هذا الاعتراض لا يمكن الردُّ عليه. سيكون من السخف أن نحاول، مجرَّد محاولةٍ، أن نردَّ، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ ما يتبقَّى لي على كرسيِّي المتحرِّك هو فقط أفكاري ويدي الاصطناعية الحديدية والجدران الصخرية التي لا تنتهي: إنني مرغَم على التفكير في البديهيات. لقد ولدت الإدارة في أعقاب الحرب العالمية الثالثة، هذا أمرٌ كان لا بد أن يحدُث. إنني لا أستطيع تصوُّر القوانين التي تخضع لها المجتمعاتُ البشرية إلا باعتبارها قوانينَ طبيعية. هذه القوانين، التي تريد المادية الجدلية أن تكون المكتشفةَ لها، هي في رأيي محضُ هُراء: كأنهم يعتقدون أن المنطق الهيجليَّ قادرٌ على تفسير القانون الطبيعي. كما لا يمكن الدفاع عن النظرية السببية التي تقول إنَّ ما يحدُث يمكن تقسيمه إلى مجموعتَين تربط بينهما علاقةُ السبب والمسبَّب. إنَّ الجملة القائلة بأنْ لا شيء بلا سبب، ليست سوى عبارةٍ مُبتذَلة؛ فليس ثمَّة حدَثٌ له سببٌ واحد، بل أسباب عِدَّة لا تنتهي؛ فالحدَثُ لا يُشير إلى حدَثٍ آخرَ كمسبِّبٍ له، إنَّه بالأحرى مرتبطٌ «سببيًّا» بكلِّ العِلل، وبكلِّ ماضي العالم. ولكن، من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ النظرية التي قرأتُها لدى كاتبٍ قديمٍ منسيٍّ — أن قانون العدد الأعظم يحتِّم أوَّلية العدالة — نظريةٌ خاطئة؛ إذ لا يُمكن أنْ ننطلق من مفهومٍ رياضيٍّ ونطبِّقه على المجالات الأخلاقية، رغم أنَّني أعتبر تعابير مثل العدالة والظُّلم محضَ تعابيرَ جمالية؛ إذا كنتُ عادلًا أو ظالمًا عندما أملأ بكتاباتي — وأنا بدون ساقَين وبذراعَين اصطناعيتَين — الجدار الصخري للمتاهة التي أعيش فيها،

فهو أمرٌ عديم الأهمية؛ فلا العدالة ولا الظلم قادران على تغيير وضعي. وأقصى ما يمكن أن يحدُث هو أن يُسليني التساؤل حول ذلك؛ فالمفهوم الرياضي لا يفسِّر إلا المستوى الفيسيولوجي، أو إنه يُشير، في النُّظم الهومانية، إلى مؤسسات؛ هنا فقط يحظى قانون العدد الكبير بأهمية. إن القانون الديناميكي الحراري لا يُطبَّق إلا عندما تتشارك «أعدادٌ كبيرةٌ جدًّا» من الجُزيئات، هكذا أيضًا تُطبَّق القوانين الطبيعية ذات الطابع المؤسسي — سواء في قطاع الاقتصاد أو في الدولة — على «عددٍ كبيرٍ جدًّا» من الناس، بغضِّ النَّظر عن القِيَم والأيديولوجيات التي يؤمنون بها؛ إنها تتطابق مع القوانين الطبيعية الديناميكية الحرارية. يا لها من جملة بشِعة! مسموحٌ لي بأنْ أنقُشها في الحائط على مساحةِ آلافِ الأمتار تحت جبل الجوساينتان. من أيام الدراسة — التي قطعتْها الحربُ العالمية الثالثة — لم يبقَ عالقًا في ذاكرتي إلا عددُ لوشميدت،[٢] رغم أنَّ العدد ليس له أدنى علاقة بمجال تخصُّصي، بل إنني لم أعُدْ أعرف أين الْتقطت هذا العدد؛ عند درجة الصفر وفي الظروف القياسية، فإنَّ ٢٢٤١٥ سم^3 من الغاز تحتوي على ٦,٠٢٣١٠ أس ٢٣ جزيء. بكلماتٍ أخرى، فإنَّ معادلة لوشميدت تعبِّر بدقة عن العلاقة بين كَم الغاز وحجمه وضغطه ودرجة حرارته: إذا زاد الكم بقي الحجم ثابتًا، وإذا زاد الضغط ودرجة الحرارة يتمدَّد الحجم. أمَّا إذا بقي الكَم ثابتًا؛ فإنَّ درجة الحرارة والضغط ينخفضان. ٦,٠٢٣١٠ أس ٢٣ «عدد كبير». ولكنه صغير مقارنة بعدد الذرَّات التي تشارك في تكوين نجم؛ إنني أقدِّر عددًا يبلغ ١٠ أس ٥٣. إن حركةَ الذرَّة لا يمكِن حسابها، أمَّا النجوم فيمكن حسابها؛ إنها منظومة من ذرات. هذه المنظومة تخضع لقوانين تقوم الذرات بتشويهها إذا اقتضت الضرورة. وكذلك فإنَّ النُّظم البشرية تشوِّه البَشَر إذا اقتضت الضرورة. الدولة هي أحد النُّظم البشرية. ولذلك، عندما أتأمَّل في أمرِ النجوم في قلب الهمالايا؛ فإنني أتأمَّل في أمر الدول. هذه هي الوسيلة الوحيدة في حالتي كي أتأمَّل في أمرِ البَشَر. وأعتقد أنه ليس هناك منطلَقٌ للتفكير سوى تلك المعلومات التي أنقذتُها من الحرب العالمية الثالثة، وأتيت بها إلى مغارتي، حتى لو كانت معلوماتي ليست إلا ذكرياتٍ تقريبيةً عن بعض الفَرْضيات التقريبية. ما أريد دحْضَه هو الرأي القائل بأنَّ نيران الحرب العالمية الثالثة قد اشتعلتْ لعدم وجودِ إدارةٍ تمنع اندلاعها.

[٢] عدد لوشميدت: عددُ الجزئيات في سم^3 من الغاز في الظروف القياسية، نسبةً إلى العالم الفيزيائي النمساوي يوزف لوشميدت (١٨٢١–١٨٩٥م). (المترجِم)

لقد اندلعتْ في الحقيقة لأنه لم يكُنْ من الممكن تشكيلُ إدارة. إنَّ الشمس الأصلية والنجم الأعظم يتبلورانِ ببطءٍ من ضبابِ الغازات المضطرِبة، كالضباب المحيط بالجوزاء مثلًا، ثم يتمدَّدان تمدُّدًا هائلًا؛ يبلُغ القُطر عندئذٍ سنةً ضوئية، الكثافةُ مضحِكة (ولكنَّها حاسمةٌ في تقرير مصيره اللاحق)، تقريبًا فراغ، تركيب الغازات: ٨٠٪ هيدروجين، ٢٪ عناصر ثقيلة، قُذِف بها بعد انفجارِ نجمٍ فائقِ التوهُّج (فإذا غابت العناصر الثقيلة لا تنشأ كواكب)، ١٪ كربون ونيتروجين وأكسجين ونيون، والبقيَّة هليوم، سرعة الدوران لا تتعدَّى ١٠ سم في الثانية، درجة الحرارة في أدنى المستويات؛ الغاز خليط من الغبار الكوني، بل وقد تظهر أيضًا الجزيئات «العضوية» النابعة من تكويناتٍ كربونية. تتسبَّب الجاذبيةُ في انكماش الشمس البدائية الهائلة، فتتحوَّل إلى عملاقٍ جبَّار أحمر، قُطره ساعة ضوئية، وسرعةُ دورانه في تزايُد مطَّرِد. وعندما تتضخم الشمس وتبلُغ حجم مدار عطارد، ويصل القُطر ثلاثَ دقائق ضوئية، تقذف الشمس — المتحوِّلة إلى قُرص عبْرَ سرعةِ دورانها حول محورِ خطِّ الاستواء التي تبلع ١٠٠ كم في الثانية — المادةَ في الفضاء. الجزء الأعظم من المواد المقذوفة، خاصَّة الهيدروجين، يُفلت من جاذبية الشمس إلى الأبد؛ الكربون والنيتروجين والأكسجين والنيون تكوِّن الكواكب الخارجية الكبيرة، أمَّا الحديد والمغنسيوم والسيلكون فتشكِّل الكواكب الداخلية الصغيرة؛ عندئذٍ لا تحتفظ الشمسُ إلا بواحدٍ على عشرة بلايين من حجمها الأصلي، وتُمسي قزمًا أصفر. قُطرها يبلغ الآن مليونًا من الكيلومترات، وسرعة دورانها حول محور الاستواء — وقد كبحها قذف المواد — تصل إلى كيلومترَين في الساعة، ثم تستقرُّ حالتها. صحيحٌ أنَّ الضغط على باطن الشمس قد نَمَا ووصَلَ إلى ١٠٠ مليار كيلو في كلِّ متر مكعَّب، وتحت هذا الثقل لا بد أن تنهار، ولكن درجة حرارة جوف الشمس تصِلُ إلى ١٣ مليون درجةٍ مئوية، ولذلك ينشأ ضغطٌ معادِل. عند درجة حرارةٍ داخليةٍ هائلة كهذه؛ تحدُث في النواة عمليةُ تحوُّلِ الهيدروجين إلى هليوم؛ وتَخرج الطاقة المتولِّدة في صورةِ فوتونات، غير أنَّ جوف الشمس يكون دامسَ الظلام. عند درجة الحرارة الهائلة لجوف الشمس فإنَّ الضوء يتمُّ امتصاصه في جزءٍ من السنتيمتر، وهكذا فإنَّ الفوتونات تولِّد طاقةً في مناطق الحَمْل الحراري الأقل حرارة، وذلك عبْرَ عملياتٍ دائمة من الإشعاع والامتصاص، محيطةً بجوف الشمس كالمِعطف؛ عملية النقل هذه تستغرق ١٠ ملايين سَنة. في مناطق الحَمْل الحراري تختلط كميَّاتٌ من الغاز الساخن بالبارد، ولكن الجزء الأعظم من الفوتونات يَعجَز عن اختراق مناطق الحَمْل الحراري، وهكذا يرتدُّ جزءٌ من الطاقة المشعَّة إلى النواة مرةً أخرى، غيرَ أنَّ الطاقة التي تنفذ إلى مناطق الحَمْل تجعلها

تصِلُ إلى درجة الغليان، تصبح المناطق الحرارية الخارجية غيرَ مستقرَّة، وتتكوَّن بُقَع شمسية، ويتصاعد الشُّواظ إلى المجال الشمسي، ثم يسقط مرةً أخرى على السطح، وتتحرَّر الفوتونات وتصلُ أخيرًا إلى الفضاء عبْرَ المجال الضوئي والزمني والنطاق الهالي. إلى جانب التوازُن في الضغط داخليًّا، يحدُث توازنٌ في السطح وفي الطاقة، الفضاءُ الضوئي يشعُّ طاقةً إلى الفضاء مساويةً لَمَا يصل إليه من منطقة الحَمْل الحراري، ثم تزداد سخونةُ سطحِ الشمس؛ تكاد الحياة على الأرض أن تستحيل. أمَّا إذا انتفخت الشمس إلى أن تصِلَ مدار عطارد فإنَّ الحياة على سطح الأرض تُمحى محوًا، ويتلاشى المجال الجويُّ وتتبخر البحار. يبرد سطح الشمس، ثم تنكمش الشمس، وبذلك تتزايد درجةُ حرارة السطح مرةً أخرى. تَكبُر الشمس وتتضخَّم إلى أن تصِلَ إلى حجمها الحالي، ولكنها أكثرُ سطوعًا وحرارةً بما لا يُقارن؛ فتتحول إلى نجمٍ أزرق. صحيحٌ أن الضغط يعود إلى التوازن من جديد، ولكن سرعان ما تُحرق الشمس الهليوم في جوفها، فيتمدَّد الهيدروجين الساخن، غيرَ أنَّ سرعته ليست كافيةً كي يُفلت من الشمس، وبذلك لا تُفلت سوى ٠٫٠٠١٪ من كتلة الشمس الإجمالية. في أثناء تمدُّدها يكون ضوء الشمس لأسابيع أكثرَ سطوعًا منه الآن بمائة ألف مرة، وبذلك تتحوَّل إلى نجمٍ مستعِر. بعد ألفِ تمدُّد مثل هذا، تكون الشمس قد تخلَّصت من الهيدروجين متحوِّلةً إلى قزمٍ أبيضَ، لا يزيد حجمه على الشمس؛ يفقد الغاز خواصَّه، ليس إلا بضعة إليكتروناتٍ تتحرَّك بحرية، لقد استنفدت الشمسُ مخزونها من الطاقة النووية وتحولتْ إلى جُزَيء. انتصرت الجاذبية على التمدَّد. تبرُد الشمس، وتتحوَّل إلى بلورة في حجم الكرة الأرضية، وأخيرًا إلى قزمٍ أسودَ غير مرئي، وإنْ كان الزمنُ الذي تحتاجه لذلك أكبرَ من عمر درب التَّبَّانة. ولكن، ليست هذه هي نهاية كلِّ الشموس، النجوم التي تصغُر كُتْلَتها عن الشمس، الأقزام الحمراء، قد لا تُطَوَّر أبدًا منطقةُ حَمْل حراريٍّ تستحقُّ الذِّكر، مبكرًا تتحوَّل إلى نجمٍ مستعِرٍ صغير، ولكن النواة المتبقية لا تحتوي إلا على كَم ضئيلٍ لا يسمح بتكوين قزمٍ أبيض. أمَّا النجوم التي تزيد كُتلتها على كتلة الشمس بمقدار ١٫٤٤ ضعف؛ فإنها تفقد توازُنها بسرعةٍ متناميةٍ بقَدْر تزايُدِ ثقلِ النجم، ولا تصِلُ على المدى البعيد إلى توازُنٍ في الضغط أو في السطح أو في الطاقة. إنها تُهدر طاقتها إهدارًا، مثل العمالقة الزُّرق؛ الضغط الفائق في الداخل يولِّد في النواة درجاتِ حرارةٍ تزيد على ثلاثة مليارات درجةٍ مئوية، في هذا الجحيم تتحوَّل جميعُ العناصر إلى هليوم. كلما اقتربت الكتلة من الشمس، زاد خطَرُ تحوُّلها إلى نجمٍ مستعرٍ أعظم؛ انفجار رهيب يكسح منطقة الحَمْل

الحراري المحيطة بالشمس ويرمي بها إلى الفضاء، فتُشِع ضوءًا أكثر من النظام المَجَرِّيِّ بشموسه التي تبلغ مئات المليارات، بينما لا تستطيع النواة، إذا زادتْ على ١,٤٤ من الكتلة الشمسية — أي فوق الحدِّ التشاندريسكاري[٣] المشهور — أن تصِلَ إلى حالةِ التوازن التي يصِلُ إليها نجمٌ أبيض؛ فتهوي النواةُ تحت ثقلها الذاتي، وتتحوَّل إلى شمسٍ فائقة الصغر ذات كثافةٍ غريبة، يبلغ قُطرها عشرة كيلومترات، تدور حول نَفْسها ثلاثين مرَّة في الثانية الواحدة. لا يُصبح هذا النجم النيوتروني قادرًا على الانفجار بعد ذلك، لقد تحطَّمتْ ذرَّاته، وبسبب تزاحُم الإليكترونات والبروتونات تتفتَّت نواه الذريَّة إلى نيوترونات، مكوِّنة غازًا نيوترونيًّا مشوَّهًا. فإذا أصبحت النواة أكثرَ ثقلًا، انعدمتْ قوة الجاذبية انعدامًا تامًّا؛ هذه النوى الشمسية ذات الكُتل الفائقة تَخرج عن إطارِ الزمان والمكان، وتغدو ثقوبًا سوداء تمتصُّ بقوةِ جاذبيتها ما حولها. ولا يخلو الأمر من المفارقة: أن أقوم بنقْشِ وصفِ نهاية الشمس هذا على جدران النَّفَق، وسط الظلام الدامِس الذي يحيط بي. [تنقطع الكتابات هنا، والبقيَّة في نفقٍ آخر.]

لم أعُدْ أعرف الطريق إلى المغارة الرئيسية. لا أعرف في أيِّ نفقٍ دخلتُ، وعلى أيِّ حائط نقشتُ كتاباتي. المواد الغذائية التي عثرتُ عليها بالمصادفة في الظُّلمة — معلَّبات تحتوي على شرابٍ مقوٍّ رخيص — هي من مخزن المغارة الأصغر كثيرًا من مغارة القائد. وجدت مصعدًا، هو أيضًا لم يعُدْ يعمل، الجدران خالية، لا أثر للوحةِ بوشيه. الصندوق الذي يحوي المعلَّبات ثبتُّه — بعد عملٍ استغرق أيامًا — بيدي الاصطناعية اليمنى على كرسيِّي المتحرِّك — من العسير البحث بالأطراف الاصطناعية عن شيءٍ في الظَّلام — أمَّا ذراعي اليسرى المنتهية بالرشَّاش فقَدْ أمستْ عديمة الجدوى. حاولتُ المرةَ تلوَ الأخرى أن أخلعها، ولكنَّ محاولاتي ذهبتْ حتى الآن أدراج الرياح. جررتُ صندوق الحساء خلفي، لا أعلم إلى أيِّ اتجاه. كنت أتوقَّف أحيانًا؛ حتى أنقش سطورًا على الحائط، ملاحظات لم أكُنْ أستطيع قراءتها، ولكن كان من الضروري نقشُها؛ لستُ عالِمًا فلكيًّا ولا فيزيائيًّا، معلوماتي عن النجم معلوماتٌ تقريبية فحسب. قبل الحرب العالمية الثالثة قرأتُ عددًا من الكتب عن ذلك، وهي كتبٌ تقادمتْ معلوماتها الآن بالتأكيد. حاولتُ أن أتذكَّرها وأن أستحضر صورةَ تطوُّر

[٣] Chandrasekhar عالمٌ فيزيائيٌّ أمريكيُّ الجنسية، هنديُّ الأصل، صاحبُ نظرية الانفجار العظيم. (المترجِم)

النجوم. ولهذا نقشتُ ملاحظاتي بثلاثِ صيغ مختلفة. [لم يتمَّ العثور حتى الآن إلا على صيغةٍ واحدة، هي تجميع للنقوش الموجودة في عدَّة أنفاق؛ ولكن ربما تكون أيضًا تجميعًا للصيغ الثلاث]. لا بد أنَّ عقلي تشوَّش نهائيًّا خلال كتابة الصيغة الأخيرة. لم أستطع العودة إلى المغارة الثانية أيضًا. لا بد أنَّ هناك مغاراتٍ أخرى. وهكذا رحتُ أتدحرج على كرسيِّي في هذا الاتجاه أو ذاك. أعتقد أنني ما زلتُ في أحد الأنفاق المحفورة في جبلِ كومو لونجما. الصخور هنا ملساء، أُواصل العمل بأقصى إتقانٍ ممكن. ليست فكرةُ الثقب الأسود وحدها هي التي تُدخل السرور إلى نَفْسي؛ كومو لونجما كان يُسمَّى في الماضي جاوريسنكار، وهكذا فإنني تحت جبلِ جاوريسنكار أتأمَّل في قانون تشاندريسكار. ربما تحتَّم عليَّ من أجل هذا السبب أن أشارك في الحرب الشَّتوية؛ لقد أغواني اسمه، ونحن إذا تمعَّنا في الأقدار لاحقًا وجدناها منطقيةً؛ فالحديد الذي صُنعتْ منه أطرافي الاصطناعية وجبل جاوريسنكار العملاق نشأتْ كلُّها من تلك الشمس التي لم تأبَه للحدِّ التشاندريسكاري وتحوَّلتْ إلى ذلك النجم المستعِر الأعظم الذي لطخ الشمس البروتونية قبل ستة مليارات من السنين، ثم جعَلَها قادرةً على أن تلِدَ كوكبنا الأرضي؛ معظم ما فيَّ أقدَمُ من الأرض. بشعورٍ غالب من المهابة نقشتُ اسم «تشاندريسكار» في الصخر. بعض الملاحظات تشير إلى حدوث تغييراتٍ في جوف الشمس ستجعل الأرض في غضون العشرة ملايين سنة القادمة غيرَ صالحةٍ للحياة البشرية، ولكنَّ هناك احتمالًا أن تظلَّ جبال الهمالايا راسخةً في هذا الجزء من الأرض الشبيهة بالقمر، كما ظلَّت الجبال راسخةً على سطح القمر. وهناك احتمالٌ — وإن كان ضئيلًا للغاية — أنَّ روَّاد فضاءٍ من عالَمٍ مستقبليٍّ سيطئُون الأرض خلال مليارات السنين التي ستدور فيها الأرض المحترِقة حول القزم الأبيض الذي نُطلق عليه الآن شمسنا، وخلال مليارات السنين التي لا تُحصى، حيث ستدور الأرضُ حول الشمس المتحوِّلة إلى قزمٍ أسود. وهناك احتمالٌ آخرُ ضئيلٌ إلى أبعد حدٍّ، احتمالٌ هو في الحقيقة مستبعَد، أن تكتشف هذه الكائنات الغريبة شبكةَ المغارات والكهوف في الهمالايا، وتقوم بفحصها. عندئذٍ لن يعرفوا شيئًا عن البشرية سوى كتاباتي. استعدادًا لهذه الحالة غير المحتمَلة قمتُ بالكتابة. ليس هناك، في وضعي، مهمَّةٌ أخرى. كان عليَّ أن أعثر على نقشٍ يمكن أن يُستشفَّ منه مصيرُ البشرية؛ ليس لهذا النقش أن يكون شيئًا خاصًّا، شيئًا لا يهمُّ أحدًا سواي، حتى وإن كنتُ واحدًا من البشر. نعم، ليس لهذا النقش أن يكون له أيُّ علاقةٍ بالبشرية. الكائنات الغريبة التي ستقرأ النقش يومًا بعد مليارات لا تُعدُّ من السنين؛ لن يفهموا شيئًا، فالأكيد — إذا حدثتْ هذه الاحتمالية وقرأ أحدٌ النقش — أنَّ القارئ لن

يكون من البَشَر. إنَّ الطبيعة، مَهمَا كان عِنادها، لن تكرِّر حماقةَ خلْقِ الأولويات إلا فيما ندر؛ إنَّ الصدفة — وهي، في نهاية الأمر، المسئولة عن خلْقِ جنسنا — لن تَحدُث مرةً ثانية إلا فيما ندر. لا يمكن أن نتحدَّث مع تلك المخلوقات عن شئوننا، لا يمكننا سوى التحدُّث عن شيءٍ يُثير اهتمامنا معًا: عن النجوم. لن يعرفوا من نقوشي شيئًا عن الأديان أو الأيديولوجيات أو الثقافات والفنون والعواطف وما يُشبه ذلك، هذا صحيح، كما لن يعرفوا شيئًا عن أمور تغذيتنا وتكاثرنا، ولكنَّهم سيستنبطون من كتاباتي طريقةَ تفكيرنا، حتى إذا كانت النقوش فجَّة وغيرَ متقَنة. سيحدسون عبْرَها المستوى الذي وصلنا إليه في العِلم، كما سيعرفون أننا كنَّا نمتلك قنابلَ ذرِّية وهيدروجينية، وأنَّ نُشوب الحرب العالمية الثالثة كان أمرًا لا مفرَّ منه. سيفكُّون شفرةَ كتاباتي؛ لأن الإنسانَ لا يصِفُ — أيًّا كان ما يصِفُه — إلا ذاته. ستستنتج الكائنات الغريبة من نقوشي أنَّ على الكوكب الحجري العاري واللافح الذي وَطِئتْه أقدامُهم كانت تعيش كائناتٌ تتميَّز بالذكاء والفطنة، تجاوزت — في مجموعها — حدَّ تشاندريسكار. هل الشمس تجمُّعٌ للهيدروجين؟ هل الدولة تجمُّعٌ للبَشَر؟ كلاهما يخضع للقانون نَفْسه. كلاهما يكون مستقِرًّا عندما ينشأ توازُن في الضغط والطاقة والسطح. كلاهما خاضعٌ للجاذبية التي تبدأ في تكوين نواةٍ وحولها منطقة حَمْل حراري. في البداية، على نحوٍ غير ملحوظٍ، النواةُ ومنطقة الحَمْل الحراري للشمس البروتونية لم تكَدْ تتشكَّل بعدُ. إنَّ الشروط مهيَّأة لذلك فحسب. فإذا طبَّقنا ذلك على الدولة، فإنَّ منطقة الحَمْل الحراري هي الدوائر الحكومية، والنواة هي الشعب. ذات مرةٍ استقلَّ أحد القياصرة مع مستشاره عرَبَة تجرُّها الثيران، وتنقَّلوا من دير إلى دير، ومن مدينةٍ إلى أخرى حتى يتسوَّلوا الطعام. كان القيصر ومستشاره هما الدائرة الحكومية آنذاك. أمَّا الأمة الألمانية في الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة فيُمكن تشبيهُهَا بالشمس البروتونية. ولم تكَدْ تمضي خمسمائة عامٍ حتى غدتْ هذه الشمس البروتونية شمسًا قلِقةً غيرَ مستقرَّة: الرايخ الثالث. ولكننا لا نحتاج إلى إعطاء أمثلةٍ أخرى تاريخية، أي مُبهَمة ومُلتبِسة. كانت وظيفةُ الدولة في الأساس توفير الحماية في الخارج والداخل، وحماية المواطنين من الذين يقومون بالحماية، أولئك الذين من أجلهم تخلَّى الفرد عن سُلطته ومنْحِها للدولة. فإذا شبَّهنا هذه الوظيفة بالتوازُن بين الضغط والطاقة والسطح، الناشئ عن شمسٍ مستقرَّة؛ فإننا نستطيع أن نتخيَّل العلاقة بين الدولة وكلِّ فرد، وبين الأفراد فيما بينهم. ينشأ التوازن في الضغط داخل الدولة المستقرَّة من قُدرة الفرد على التحرك بأقصى قَدْر من الحرية، أيْ بقَدْر من الحرية لا يتعارض مع الأفراد الآخرين؛ وكلَّما زاد عددُ الجماهير، تقلَّصتْ حرية الفرد.

يرتفع الضغط على الفرد، وترتفع درجة الحرارة بين الجماهير التي تبدأ في الشعور بوجود الدولة، وهو ما يُطلق المشاعر تجاه الدولة، إلخ. أمَّا التوازُن في الطاقة داخل الشمس فيتمثَّل في ألَّا يزيد ما تحوِّله من مادة إلى طاقة عمَّا تستطيع إشعاعه، ويعني ذلك لدى الدول ألَّا تُنتج أكثر ممَّا تُنفق. وينهار التوازُن في الطاقة عندما يضعُف الضغط أو عندما يزداد. وفي حالة العملاق الأزرق، مثل س-دورادوس الذي يشعُّ ثمانين ضِعفَ إشعاع الشمس، فإنَّ منطقة الحَمْل الحراري تتَّسم بالضَّعف البالغ؛ وبالتالي فإنَّ الضغط في الداخل لا يكون كافيًا، ولذلك يقوم النجم دون عائقٍ بتحويل مادة نواته إلى طاقة، وبذلك يستنفد نَفْسه بالإشعاع. مثل هذه الدول كانت موجودةً أيضًا. وقد انتصرتْ لدى الأغلبية بالطبع — قبل الحرب العالمية الثالثة — منطقةُ الحَمْل الحراري: الدوائر الحكومية. ثم تنامتْ سُلطة الدولة. وبدأت الدول، خصوصًا ذات الثقل البالغ، في بثِّ إشعاعٍ أقلَّ ممَّا تحوله. لقد أصبحتْ أسيرةَ دوائرها الحكومية. يحدُث التوازن في الطاقة عندما يكون العَرض متماشيًا مع الطلب. لدى العملاق الأزرق، أي الشمس ذات منطقة الحَمْل الحراري الضعيف — مع أن هذه المنطقة، قياسًا بمنطقة الحَمْل الحراري لشمسنا، أقوى بكثير — فإنَّ العَرض يفوق الطَّلب؛ في باطن مثلِ هذا النجم يحدُث صراعٌ تنافسيٌّ لا مثيل له. مثل هذه العملية أمكَنَ ملاحظتُها لفترةٍ في الدول الصناعية قبل الحرب العالمية الثالثة. أمَّا في الشمس الفائقة الثقل؛ فإنَّ الطلب يزيد على العرض. صحيحٌ أنَّها تحوِّل المادة إلى طاقة، إلا أنَّها تُمتَصُّ في منطقة الحَمْل الحراري. الدوائر الحكومية تستغلُّ مثلَ هذه الدولة. تلك الدوائر تحتاج إلى أسلحةٍ كي تؤمِّن نَفْسها ضدَّ الداخل والخارج. وهي لا تحتاج إلى أسلحةٍ فحسب، إنها تحتاج إلى أيديولوجية أيضًا، إنها تكوِّن في الوقت نَفْسه حقلًا فكريًّا هائلًا. فمنطقة الحَمْل الحراري لا تتحمَّل أيديولوجيات أخرى سوى أيديولوجيتها، مَن يخالف الفكرَ السائد يوصمْ بالانعزالية أو الجنون، بل قد يُعامل على أنَّه خائنٌ للوطن. بذلك تزيد دولةٌ مثلُ هذه من كثافتها، أيْ من ضغطها نحو الداخل. وهكذا فإن العملية الجوهرية، التي تحدُث لدى الجزء الأعظم من الشعب، لا تصبُّ إلا في مصلحة الدولة، أو بكلماتٍ أدقَّ: في مصلحة الدوائر الحكومية التي تتزايد إمكاناتُ سُلطتها على نحوٍ مطَّرِد، ليس لأنها شريرةٌ وخبيثة، بل لأنها عاجزة. إنَّ الدول البالغة الثقل دولٌ يحكمها التخطيط الشامل. ولهذا فإنَّ التوازن في الطاقة — في حدِّ ذاته — مستحيل؛ فالضغط في تلك الدول لا يمكن أن ينقُص، إنَّه يزداد على الدوام إلى أن ينهار نظام الجاذبية. هكذا كانت الظروف السياسية قبل الحرب العالمية الثالثة. النجوم الفائقة الثقل لم تكُن تنوي غزوَ العالَم، لكنَّها ابتزَّتْه بفضل ثقلها. وفي

الوقت نَفْسه امتصَّتْ جاذبيتُها المادة المشِعَّة المنبعثة من العملاق الأزرق. وبهذا انكمشتْ وتزايد ضغطها؛ ولأنها أُخرجت عن توازُنها الاقتصادي؛ فإنها «تتأقلم اجتماعيًّا»، وتصبح هي أيضًا شموسًا فائقةَ الثقل — بغضِّ النظر عن تركيبتها الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية — فحتى الدول «الحرَّة» بدأتْ في ممارسة الضغوط الداخلية عبْرَ إصدار القوانين ضدَّ الذين يفكِّرون تفكيرًا مغايرًا للسائد. وتمضي العملية في مصيرها المحتوم، ويبدأ سِباق التسلُّح. كلُّ دولة تُنتج الآن أكثرَ ممَّا تشعُّه من طاقة. يرتفع الضغط الداخلي في كلِّ دولةٍ إلى درجة لا تُحتمَل. يغيِّر الضغط الهائل معالمَ كلِّ مجتمعٍ في جوف الشمس؛ العائلات الكبيرة تنكمش إلى عائلاتٍ صغيرة، وحتى هذه تغلبها الاضطرابات، وتنحدر إلى بلديات وتجمُّعاتٍ سَكَنية، تتفتتُ هي الأخرى، ويسود قلقٌ عظيم، جنونٌ هائل، صراعٌ لا يَرحم من أجل البقاء على قيد الحياة، مقترِنًا بنَهَمٍ لا يُشبع إلى الحياة. يزداد انقسام المجتمع إلى طبقتَين: الأولى مستقرة في منطقة الحَمْل الحراري وقد أمَّنتْ نَفْسها، والثانية لا حولَ لها ولا قوة أمام الضغط الهائل والحرارة الهائلة المتولِّدَين من باطن الشمس، واللَّتَين نشأتا من هذا القلَقِ، ثم امتصَّتْهما منطقةُ الحَمْل الحراري، أي الدوائر الحكومية، التي تحتاج إلى ضرائبَ تزداد ارتفاعًا يومًا بعد يوم حتى تستطيع مسايرة جوف الشمس. ولهذا فإنَّ السياسة لم تعُدْ تقوم بدورها إلا على سطح الشمس، دون تأثيرٍ على العمليات النووية في جوف الشمس، لقد أصبحت محضَ مرحلة، وهكذا تخرج التفاعلاتُ في جوف الشمس عن السيطرة، يتعاظم الضغط وتُثقب مناطق الحَمْل الحراري من الداخل على نحوٍ متزايد، تصعد إمبراطوريات اقتصاديةٌ كبيرةُ النفوذ، ثم تسقط ثانيةً، الأزمات تعيث فسادًا في الأرض، حالات تضخُّم، تدافُعٌ ودهسٌ واكتساحٌ لا يُصدَّق، أعمالٌ إرهابيةٌ جنونية، الجريمة والكوارث الطبيعية تتزايد على نحوٍ انفجاري؛ يسود الاضطراب في الدول. ولأنَّ السياسة تشعُر بالعجز أمام هذا الشُّواظِ الشمسيِّ الرهيب؛ فإنَّها تسقط في التهكُّم والاستهزاء، وتُمسي مثلَ الكنيسة الميتة غيبيةً ومتمسِّكةً بالطقوس ومؤمنةً بامتلاك الحقيقة النهائية. القسُسُ يعِظون الناس عن صراعِ الطبقات أو الليبرالية، غيرَ عالِمين أنَّ كلَّ شيءٍ يتوقَّف على تحوُّل الكتلة إلى طاقة؛ دون التفكير في سلوك الشعب إذا تحوَّل إلى كتلةٍ من الجماهير، سلوك خارج عن السيطرة. يدعون إلى الدولة التي تقدِّم ضماناتٍ اجتماعية، إلى الدولة الليبرالية، دولة الرفاهية، الدولة المسيحية أو اليهودية أو الإسلامية أو البوذية أو الشيوعية أو الماوية ... إلخ، بدون أن يَنتَابهم أدنى ارتيابٍ في أنَّ الدولة المثقَلة بالمهامِّ والواجبات قد تُمسي كِيانًا خطيرًا مثلَ النجم البالغ الثقل. وهو ما حدَثَ بالفعل عندما اندلعت الحرب

العالمية الثالثة. التأثير الذي لم يتوقَّعْه أحدٌ للقنابل الهيدروجينية على حقول البترول لم يكُنْ سوى إشارةٍ رمزية إلى تولُّدِ نجمٍ مستعِرٍ أعظم، ناهيك عن تأثير القنابل الأخرى. الضغطُ الداخلي، وبالتالي الحرارةُ الداخلية؛ بلَغَا حدًّا هائلًا لم يتحمَّله التوازن السطحي؛ فاختلَّ. مناطقُ الحَمْل الحراري العملاقة — أي الجيوش التي سلَّحتْها الدوائر الحكومية تسليحًا يفوق الاحتياج، ورغم أنها جزءٌ من الدوائر الحكومية، فإنَّها هي التي تتحكَّم في الحكومة الآن — كسَحَت المكان، وهو ما يزيد من الكارثة؛ لأنَّ الشموس هنا تتلاصق، بينما يبتعد كلُّ نجمٍ في الفضاء عن الآخر بمسافةٍ طولها في المتوسط ثلاث سنواتٍ ونصف السنة الضوئية. وبعد النجم المتوهِّج الأعظم ندخل في المرحلة النهائية: البشرية كنجمٍ نيوتروني. بقيَّة البشرية المحشورة في الأجزاء القليلة القابلة للحياة أو المهيَّأة للحياة — تُرى كمْ يبلغ عدد الذين قضَوا في مشروعِ الصحراء وحده! — هذه البقيَّة أصبحتْ كتلةً واحدة من مناطق الحَمْل الحراري، يمكن تشبيهها فلكيًّا بالغاز النيوتروني الذي فقَدَ خواصَّه، كتلة تتحكَّم فيها الإدارة بشكلٍ تام، بل إلى «إدارة»، ولكن لا يمكن التفرقة هنا بين المدير والمُدَار. وكما حدَثَ للنجم النيوتروني، هكذا احتفظت البشرية بعزمِ دورانها السابق، أيْ بعدوانيتها. الزمنُ كفيلٌ بالتغلُّب على هذا العزم لدى النجوم، أمَّا عند البَشَر فإنَّ الحرب الشَّتوية في جاوريسنكار تقوم بذلك؛ خلال الحرب تندلع مذابحُ بين أولئك الذين تحتاج عدوانيتهم إلى عدوٍّ ملموس، أمَّا الذريعة فليست مهمَّة. (قبل الحرب العالمية الثالثة كانت ذرائع الإرهابيين أغربَ ما تكون، نوعًا من التنويم المغناطيسي للذات. كانوا يتوهَّمون حقًّا أنهم يكافحون لتأسيس نظامٍ عالميٍّ قائمٍ على الإخاء، لكنهم لو كانوا عاشوا في ذلك النظام، لماتوا ضجرًا). لقد أثبتتْ معادلةُ تشاندريسكار صحتها.

ولكن، قبل أن أُواصل، لا بد أنْ أردَّ هنا على اعتراضٍ قد تتفوَّه به القوى الغريبة عندما تقرأ يومًا نُقوشي: إنَّ المادة خاضعةٌ للقصور الحراري، وهي تطمح للوصول إلى أقصى حالته المتاحة. لقد بدأ هذا القُصور إثرَ اصطدامِ كلِّ المواد في مكانٍ يبلغ حجمه مسارَ نبتون، هذا المكان الضخم كانت تحتلُّه جزيئاتُ عناصر الكون، وذلك عندما تكون متلاصِقةً بعضها ببعض. كانت هذه الحالة هي أكثر الحالات بُعدًا عن الاحتمال بالنسبة للمادة. أمَّا أكثر الحالات احتمالًا، فهي نهايتها: بالإشعاع تستنفد المادة نَفْسها بنسبة ٩٥٪، حُطامُ النجوم يظهَرُ كأقزامٍ حمراءَ مسودَّة، أو أقزامٍ بيضاءَ وسوداء، أو ثقوبٍ سوداء، أكوامٌ من الكواكب الميتة والكُويكبات السيَّارة والنيازك، إلخ. وفي المقابل الحياة، إنَّ الظروف التي

نشأتْ فيها كانت أيضًا بعيدةً عن الاحتمال، غيرَ أنَّ استبعاد الاحتمالات أنتَجَ أكثرَ الأشياء احتمالًا؛ الفيروس، ثم الخلية الأحادية. وإذا انطلقنا منها، فإنَّ الحياة تبعُد شيئًا فشيئًا عن الاحتمالية، الكائن المفكِّر هو أكثر الأشياء بُعدًا عن الاحتمال؛ لأنَّه أكثرَ كائنات الكون تعقيدًا. يعارض هذا الكائن ظاهريًّا قانونَ العالم، قانونَ القصور الحراري؛ ولا سيما لأنَّه عبْرَ ثلاثة ملايين من السنين قد تطوَّر من نوعٍ نادر إلى كُتلةٍ من الجماهير تبلغ ستةَ مليارات نَسَمة. لكنَّ المظاهر خدَّاعة؛ كلَّما أصبحت الحياةُ بعيدةً عن الاحتمال، زاد احتمال الوصول إلى حالتها النهائية: الموت. قد يعيش فيروس، أو خليةٌ أحادية، إلى «الأبد»، صحيحٌ أنَّ الحيوانات تَنفُق، ولكنَّها لا تعلم ذلك. ولكنْ، لأنَّ الإنسان يعلم أنَّ الموت قادمٌ لا محالة، فإنَّ موته يصبح أكثر من مجرد حالةٍ نهائية هي الأكثر احتمالًا، ويُمسي الموت هو حالته النهائية الأكيدة. إنَّ الموت والقصور الحراري وجهان للقانون العالمي الواحد، إنهما مشتركان في هويةٍ واحدة؛ ولذلك فإنَّنا — نحن «البَشَر» — (هذه الكلمة لن تعني لكم أيَّ شيء)، وأنتم، يا مَن تقرءُون نُقوشي، مشترِكون في هُويةٍ واحدة؛ فالموت هو مصيركم أنتم أيضًا.

[النقش التالي في نفَقٍ آخر]. الإدارة قائمة على القانون القائل: homo homini lupus: الإنسان ذئبٌ بالنسبة لأخيه الإنسان. الغريب أنني فكَّرت في الأصمِّ الأبكم أثناء نقشي لهذه الجملة في الصخور، ثم لَمَعَت خاطرةٌ في رأسي: ربما كان يوناتان أصمَّ وأبكم. ارتيابٌ لا معنى له، ربما يكون خامَرَني لأنني لم أتذكَّر يوناتان إلا عندما فكَّرتُ في الأصمِّ الأبكم. كان يوناتان قد اختفى عندما دخلتُ على كرسيِّي المتحرِّك مغارة القائد. ربما هو الآن يخربِش — مثلي — على جدران أحد الأنفاق.

قابلتُ الأصمَّ الأبكم في مدينتي بالوطن القديم بعد الحرب العالمية الثالثة، حتى قبل اندلاعها كان أعضاء الحكومة ودوائر الدولة وكلا البرلمانَين قد اختبَئُوا في المخابئ الكبيرة تحت جبل البلوموليسالب؛ إذ بدا أنَّ حماية السلطتَين التشريعية والتنفيذية ضدَّ أيِّ هجومٍ خارجي هي الشرط الأول لحماية البلاد. تمَّ إنشاء مبنًى للبرلمان تحت البلوموليسالب وفْقَ التصميم نَفْسه لمبنى البرلمان في العاصمة، بكلِّ أنظمته السرِّية، ومن بينها نظام اللاسلكي. بل حتى نَفْس المنظر الخارجي الذي أعدَّه مصمِّمو الديكور في مسرح المدينة، مستخدمين صورًا مكبَّرة وكشافات ضوئية. وحول المبنى شيَّدوا في قلب البلوموليسالب المساكن ودُور العَرض السينمائية والكنيسة والبارات وساحات لعبِ البولينج والمستشفى ومركز اللياقة البدنية. وحولها كانت «الحلقات» الثلاث: الحلقة التموينية التي تضمُّ المواد الغذائية وأقبية النبيذ (لا سيما الفاتلندر)، أمَّا الحلقتان الداخلية والخارجية؛ فكانتا للأغراض الدفاعية.

وتحت هذه المنشأة الضخمة شيَّدوا الخزائن التي تحتوي على نصف ما في العالم من سبائكَ ذهبية، وتحتها مُفاعل نووي. اجتماعات الحكومة والبرلمان لم تكُنْ تنقطع. الدوائر الحكومية تبذل قُصارى جهدها. عندما حصلتُ على التكليف السري وأعلنتُ تغيُّبي عن أرض الوطن، حتى أستلم رسميًّا وظيفتي كضابطِ اتصالٍ لدى القائد؛ كانوا قد قرَّروا تطبيقَ نظامٍ جديد للدفاع عن البلاد خلال السنوات العشر القادمة، يقضي بشراء مائةِ دبابة «فهد ٩» وخمسين قاذفة «مصاص الدماء ٣». أدَّيتُ التحية العسكرية، كان أعضاء الحكومة والبرلمان قد نهضوا، وشرعوا في الغناء: «أيها الآتي من الفجر الوردي». كانت الحالة النفسية كئيبة. صحيحٌ أنَّ أحدًا لم يظنَّ أنَّ الحرب العالمية الثالثة ستندلع، حتى وإن كانوا قد بدءُوا يحشدون القوات، فالجميع كان يأمل في أن تحُول القنابل دون نشوبِ الحرب، والجميع كانت بحوزتهم قنابل، حتى نحن. رغم المعارضة المستميتة التي أبداها التقدُّميون ومعارضو الطاقة النووية والممتنِعون عن تأدية الخدمة العسكرية والقساوسة ودوائر أخرى قميئة، قُمنا بتصنيع القنبلة، ولكن بعد إمارةِ ليشتنشتاين، وبعد أن كانت كلُّ دولة أفريقية قد امتلكتها! وهكذا كنَّا على قناعةٍ بأنَّ الحرب — إذا اندلعتْ — ستكون تقليدية، ولكننا لم نكُنْ نعتقد باندلاعها، لأنَّ تصنيع القنابل، من ناحيةٍ، مكلِّفٌ للغاية؛ ولذلك لم يكُنْ تسليحنا كافيًا لشنِّ حربٍ تقليدية. ومن ناحيةٍ أخرى، لأننا صنعنا القنبلة تحديدًا للحيلولة دون قيام حربٍ تقليدية. لم نكُنْ نملُّ من التأكيد على وجهة نظرنا في الحياد السياسي المسلَّح، ولكنَّ الحدسَ كان يخامرنا على نحوٍ مهدِّد بأنْ لا أحد من الجانبَين يصدِّق قسَمَنا السياسي المقدَّس. فبالنسبة إلى الطرف الأول كنا ننتمي إلى معسكرهم السياسي وبالتالي إلى معسكرهم الحربي، أمَّا بالنسبة إلى الطرف الثاني فقَدْ كنا أعداءً محتمَلين من الناحية العسكرية. وهكذا كنا مرغَمين على نقل قواتِ الجيش المحتشِدة — وعددها لا يقلُّ عن ٨٠٠٠٠٠ رَجُل — إلى الحدود الشرقية؛ فلو لم نفعل ذلك لَما كنا نستطيع أن نأمن شرَّ القوات الغربية، وكانت ستخمِّن وجود موطنِ ضَعْف في جبهتها. كما لا بد أن نذكُر أن الشعب كان يرتاب في أمر الحكومة، أمَّا الجنود فكانوا مسايرين، لأنهم أُجبروا على ذلك، من فترةٍ تحتِّم علينا أن نحكُم على الممتنعين عن تأدية الخدمة العسكرية بالسَّجن مدى الحياة، ولم يُنقذهم من الإعدام رميًا بالرصاص — كما طالب البرلمان العسكري — إلا قرارُ العفو الذي صدَرَ لصالحهم. كاد موقف الشعب تجاه الحكومة أن يتَّسم بالعدوانية. كان الشعب يعلم أنَّ الحكومة ودوائرها والبرلمان، خمسة آلاف فرد، يقبعون في أمانٍ تحت البلوموليسالب، أمَّا الشعب نَفْسه فليس في مأمن. لحُسن الحظِّ تم نشْرُ الجنود قبل الانتخابات العامة.

بدأت الحرب العالمية الثالثة على نحوٍ تقليدي في يومَيها الأولين، وكانت الحرب الأولى التي يخوضها جيشنا منذ عام ١٥١٢م عندما غزونا ميلانو. أحرزنا انتصاراتٍ مشرِّفة، وعندما سقطت القنبلة العظيمة على البلوموليسالب والقنابل العظيمة الأخرى على المخابئ الحكومية في البلاد الأخرى — سلسلة متصلة من التفاعلات، من الضربات والضربات المضادَّة — كنا قد أوقفنا زحفَ الجيش الروسي عند لاندبيك في أثناء هجومه على إيطاليا العليا. الخبر القائل إنَّ الجيوش الحليفة والمتعادية قد استسلمت، وصَلَ إلى القائد في فندق «كور» في الإنجادين العليا. كنا نجلس في القاعة الكبيرة على مقاعدَ وثيرةٍ عالية تصِلُ إلى الأذن، وحولنا قيادة أركان الجيش. المشروبات كانت متوافرة بغزارة. حالة نشوةٍ عارمة. أذعَنَ القائد لميوله الموسيقية، وراحتْ فرقة موسيقية تعزف رباعيةَ شوبرت «الموت والفتاة». ثم سلَّمه الضابط الخاصُّ البرقية. «صغيري هانز، اقرأ هذا الهُراء بصوتٍ عال»، قال مبتسمًا ابتسامةً صفراء بعد أن ألقى عليها نظرةً سريعة. في الخارج صيحاتُ فرَحٍ؛ إذ إنَّ عامِلَ اللاسلكي كان قد أذاع فحوى البرقية. أمسك القائد برشَّاشه الآلي، فنهضتُ، وران الصمت على الرباعي. قرأتُ البرقية بصوتٍ عالٍ. كان التأثير رهيبًا. راح الرباعي يعزف ببهجةٍ الرابسودي المَجَري لفرانتس لِيست. هلَّل الضباط وأخذ كلٌّ منهم يعانق الآخر، فحصدهم القائد جميعًا برشَّاشه الآلي مفرِغًا خِزانته ثلاثَ مرَّات. ساد هرجٌ لا يُوصف في القاعة، فوضى من الجثث والمقاعد المحطَّمة والشظايا الزجاجية والزجاجات المهشَّمة التي كانت تحوي الشمبانيا والويسكي والكونياك والجِن والنبيذ الأحمر. عزَفَ الرباعيُّ — مدرِكًا أن عزفه قد يُبقيه على قيد الحياة أو يحيله إلى الموت — الحركةَ الهادئة من رباعية شوبرت، تنويعات على «كنْ شجاعًا. لستُ همجيًّا، فلْتنامي بوَدَاعةٍ بين أحضاني». في السيارة الجيب قال القائد: «كلُّهم جبناءُ يَبُولون في سراويلهم، وخوَنَةٌ الوطن». ثم عاد مرةً أخرى، وقتَلَ الرباعيَّ رميًا بالرصاص. افترقنا عند سكول، وواصل القائد طريقه في اتجاه إنسبروك، وسافرتُ أنا إلى الإنجادين العليا. قبل تسرنتس، أحصيتُ على حافة الطريق ما يزيد على ثلاثمائة ضابط، وقد صُفُّوا صفًّا جميلًا، من قائدِ أركانٍ نزولًا إلى مُلازم، كلُّهم لاقَوا حتْفَهم برصاصِ جنودهم. أدَّيتُ التحية العسكرية في أثناء مرور السيارة بهم. في سان موريتس ساد السلب والنهب، الفنادق الفاخرة تحوَّلت إلى شعلةٍ من النيران، إلى السحاب وصلتْ ألسنة اللهب المتصاعِدة من شاليه المايسترو النجم. ارتديتُ ملابسَ مدَنِيةً في محلٍ أرستقراطي لملابس الرجال لا يتردَّد عليه إلا الأثرياء، اخترتُ بدلةً من الجينز، ما زال السِّعر مُلصَقًا عليها: ٣٠٠٠؛ في محلاتِ التنزيلات لن تكلِّف أكثرَ من ٣٠٠، لم أرَ أيًّا من العاملين

في المحل. لم يعُدْ بالإمكان الحصول على وقودٍ للسيارات، فتركتُ الجِيب وفيها الرشَّاشان الآليان، ثم عمَّرتُ مسدسي. وجدتُ درَّاجةً عبرتُ بها مَعبَر مالويا. بعد أن وصلتُ إلى المعبر قضيتُ أول ليلة أرى فيها السماء ساطعةَ النجوم، وقد أحاط بالجانب المظلِم من الهلال لونٌ أحمرُ شرِّير، لا بد أنَّ الحرائق الهائلة على الأرض تلتهم الأخضر واليابس. قبل أن أَصِلَ إلى ما كان يُسمى حدودًا، بحثتُ عن مبيتٍ في إحدى القرى الصغيرة. كادت الظِّلال تخيِّم على القرية، أمَّا الوادي فكان يتوهَّج بلونٍ أحمرَ برتقالي. تسللتُ إلى بنايةٍ اعتقدتُ أنها مخزنٌ للغِلال غير مسكون. خلْفَ البناية وجدتُ درَجًا صعد بي إلى الأعلى. انفتح الباب بسهولة. كان الظَّلام يسود في الداخل، بكشَّاف الجَيب رحتُ أستكشف المكان. وجدتُ نَفْسي في أتيليه أحد الرسَّامين. على الحائط عُلِّقتْ لوحةٌ: عدَّة أشخاص، كأنَّ أحدًا طرَحَهم أرضًا. خَواءُ اللوحة شبحيٌّ. أمَّا قماش اللوحة الكتَّاني المثبَّت بلا إطار والذي لم تمسَّه الألوان إلا مسًّا خفيفًا؛ فبدا كالشَّبكة التي أُحكمتْ حول بعض الأشخاص. على الحائط الآخر لوحةٌ لأحد المدافن: أضرحةٌ رخاميةٌ بيضاء، عليها نقْشٌ، بورتريه إنسان مشوَّه، بالحجم فوق الطبيعي، هذيان. وكأنَّ الرسَّام أراد باعتراضه المبهَم أن يدمِّر لوحته؛ يبدو أنَّ هذا المرسم قد شهِدَ بالفعل نهايةَ العالم. وسط المرسم رأيتُ سريرًا حديديًّا بشِعًا، وعليه حشيةٌ مخطَّطة، تفجَّرتْ أحشاؤها عن شَعر خَيل، وبجانب السرير فوتيه عتيق، مُهترئ، كِسوته الجلدية ممزَّقة، وحائل الألوان. في الخلف، تحت النافذة، عُلِّقتْ لوحةٌ لكلبةٍ ميتة، ضائعة وسط بحرٍ من اللون البنيِّ المصفر، ثم ظهَرَ بورتريه إنسان يُشبه القائد. كان يرقد عاريًا وبدينًا على فِراش، لحيته منفوشةٌ شعثاءُ تصِلُ حتى صدره المضغوط بسبب بطنه المنتفِخ، الكبد متورِّم، القدمان مفرشحتان، نظرته توحي بالفخر والجنون معًا. سرى البرد في أوصالي. فصلتُ اللوحةَ من إطارها، تمدَّدتُ على الفِراش والْتحفت بقماش اللوحة الذي فاحتْ منه رائحة زيت الرسم. على ضوء الصباح العكِر استيقظتُ. امتدَّت يدي إلى المسدس. أمام الإطار الخشبي الفارغ الذي اقتطعتُ قماشه، كانت تقف عجوزٌ بأنفٍ حادٍّ وشعرٍ أشيبَ مربوطٍ إلى الوراء، ترتدي ملابسَ سوداءَ وحذاءً غليظًا. حملتْ يداها فنجانًا كبيرًا منتفِخ البطن. بعيونٍ محمرَّة راحتْ ترمقني بنظراتٍ جامدة. «مَن أنتِ؟» سألتُها. لم تُجِب. فسألتُها بالإيطالية: Chi sei?[٤] «أنطونيا»، أجابت العجوز. سارت ناحيتي على نحوٍ

[٤] أي: مَن أنتِ؟ (المترجِم)

احتفالي، وناولتْني الفنجان. كان مليئًا بالحليب. شربتُ وانتزعت نَفْسي من الكتَّان الملفوف حولي. حملقتْ فيَّ، ثم ضحكتْ، l'attore[٥]، وعندما مررتُ بها قالت بنبرةٍ احتفالية:

Non andare nelle montagne. Tu sei il nemico.[٦]

فقدتْ عقلها مثل كثيرين. خرجتُ من المرسم. درَّاجتي سُرقتْ، القرية هُجرتْ، والحدود بدون حراسة. كان الضباط الأتراك قد نَهَبوا مدينةَ كيافنا الصغيرة في محاولةٍ منهم لإنقاذ أنفسهم من جنودهم. أخذتُ درَّاجةً نارية من أحد الجراجات، نظَرَ إليَّ صاحبُها غيرَ عابئ، كانوا قد اغتصبوا زوجته وابنتَيه ثم ضربوهنَّ حتى الموت. في الشبلوجن رميتُ بضابطٍ روسيٍّ في بحيرةِ السدِّ، الدرَّاجة النارية غرقتْ أيضًا. كان قد هجَمَ عليَّ عندما توقَّفتُ مُعجَبًا بشكلِ السحابة النووية التي تُشبه عيشَ الغراب في السماء الغربية. كنتُ أرى هذه السحابة للمرة الأولى. بعد ذلك بقليلٍ عثرتُ على هليكوبتر محطَّمة. فتَّشتُها؛ فوجدتُ أوراقًا للضابط. نسيتُ اسمه، أتذكَّر فقط أنه يتحدَّر من الإيركوتسك. الخراب والدمار يعمَّان مدينةَ توسيس. بدأتُ أدرك ما يحدُث في بلادنا. ستفهمون كلَّ شيء عندما أقول إنني احتجتُ عامَين حتى أَصِل إلى هدفي. ولهذا لستُ بحاجةٍ سوى إلى أن أُشير، مجرَّد إشارة، إلى جحيمِ تلك الفترة. الناس الذين ظلُّوا على قيد الحياة بعد القنبلة — إذا كانت هذه تُسمَّى حياةً أساسًا — وجَّهوا أصابع الاتهام إلى التقنية والتعليم، باعتبارهما سببَ الحرب العالمية الثالثة. لم يدمِّروا المفاعلات النووية فحسب، بل أيضًا السدود ومحطات الكهرباء، ٨٠٠٠٠٠ إنسان لقُوا مصرَعَهم في الفيضان وفي السحابة السامَّة التي انتشرتْ بعد احتراقِ المصانع الكيميائية التي طالها أيضًا غضَبُ العامة. في كلِّ مكانٍ كانت محطات الوقود تنفجر والسيارات تحترق، كما حُطِّمت أجهزة الراديو والتلفزيون والأسطوانات والغسَّالات الكهربائية والآلات الكاتبة وأجهزة الكمبيوتر التي أضحتْ عديمةَ الجدوى، ودُمِّرت المتاحف والمكتبات العامة والمستشفيات. كان الأمر شبيهًا بانتحارِ بلدٍ بكامله. مدينة كور، مثلًا، أضحتْ مستشفى مجانين. في جلاروس حرقوا «الساحرات»، أيْ عاملات الاختزال والعاملات في المختبرات. نهَبَ سكَّان منطقة أبنتسلر ديرَ سانت جالن ودمَّروه بحجَّة أنَّ المسيحية هي التي ابتدعت العلم. احترقت المكتبة الثمينة التي تضمُّ على رفوفها

---

[٥] أي: الممثل. (المترجِم)

[٦] أي: لا تذهبْ إلى الجبال. إنك أنت العدو. (المترجِم)

نشيد النيبلوجن التاريخي. في كومة الأنقاض الهائلة — التي كانت يومًا مدينةَ زيورخ — كانت اليد الطُّولى لعصابات الشَّبيبة. في نهر الليمات أغرقوا التقدُّميين والاشتراكيين، وأساتذة الجامعتَين ومساعديهم. بين أنقاض المسرح تجمَّعتْ إحدى الطوائف الدينية التي تؤمن بنظرية العالَم الأجوف. كانت كاهناتُ الطائفة حواملَ. وعلى خشبة المسرح ولَدنَ ولاداتٍ شائهةً وبشِعَة، وعلى الخشبة ذُبح الأطفال. القُدَّاس الإلهي حفلٌ ماجن. انقضَّ المؤمنون بعضهم على بعض على أملِ أن يُنجِبوا ولاداتٍ أكثرَ تشوُّهًا وبشاعة. في مدينة أولتن شَنَقوا على سقالاتٍ كبيرة آلافًا من معلمي المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. ساقوهم من جميع ربوع البلاد. أمَّا «الموت الكبير» فقد بدأ في إقليم جراوبوندن. إذا كان الناس قد انغمسوا في البداية بلا رادع في الشهوات التي لا توصف، ونهبوا وسلبوا وحطَّموا ودمَّروا كلَّ ما تقع عليه أياديهم، مشعِلين الحرائق الهائلة التي شلَّتْ حركة المواصلات تمامًا؛ فإنهم سرعان ما أمسَوا متبلِّدي الشعور. أصابهم إجهادٌ ثقيل، فجلسوا أمام أطلالِ منازلهم التي دمَّروها بأنفسهم، محملِقين أمامهم، ثم ظلُّوا راقدين في أماكنهم لافظين أنفاسهم الأخيرة. شيئًا فشيئًا قلَّت أعمال التدمير. لم تعُدْ هناك سيارات، ولا سكك حديدية، ليس إلا الأنقاض في كلِّ مكان، أكوامٌ عملاقة من موادِّ التغذية التي جمعوها، تمَّ تخزينها لشعبٍ يبلغ تعداده ثمانية ملايين، لم يعُدْ يضمُّ الآن أكثر من مائة ألف. مع البَشَر نفَقَت الحيوانات أيضًا. في الحقول تكدَّست الجيف. الطيور وحدها تكاثرتْ تكاثُرًا مُفرِطًا. دفَنَ الناس موتاهم بمهابة. صنعوا التوابيت، ولكنَّهم لم يستطيعوا صُنع عددٍ كافٍ، فنهبوا المدافن القديمة، وأفرغوا التوابيت ممَّا كانت تحتويه، أو دفنوا الجثث في الخزائن. جنازاتٌ مَهيبة لا تُحصى؛ في الحرارة الفظيعة التي لم تنخفض حتى في الخريف، كان لابِسُو السَّواد يخطُون وراء التابوت، أو يجرُّون بحبالٍ طويلةٍ عرَبةً تكومتْ فوقها التوابيت. ولائمُ عظيمةٌ بعد الجنازات، كانت بالنسبة للأغلبية وجبتَهُم الأخيرة، وبعدها يُدفنون هم أيضًا، وتتقدَّم الجنازات — مع تناقص عدد المشيِّعين — ناحيةَ حقول الموتى مرةً أخرى. وكأنَّ الشعب يدفن نَفْسه بنَفْسه. بعد ذلك، لا بد أنَّ مخزن القنابل النيوترونية في شراتن روه، قد انفجَرَ من تِلقاء نَفْسه. في منطقة الإيمنتال تمشَّيتُ في دروبٍ قريةٍ بها مصنعٌ كبيرٌ لمنتجات الألبان. كانت القرية نظيفةً، مُعتنًى بها، زهور الجيرانيوم أمام النوافذ ناريَّةُ الحمرة، ولكنَّ الشوارع تخلو من البَشَر. دخلتُ مطعم «إلى الصليب». غرفة الاستقبال خالية. في المطبخ تمدَّد صاحب المطعم الميت، جثَّةٌ ضخمةٌ مسالِمة، ووجهه في صحنٍ به آيس كريم. دخلتُ قاعة الطعام. حوالي مائة شخصٍ كانوا يجلسون حول وليمة، رجال ونساء من

كلِّ الأعمار، وأيضًا بناتٌ وصبيان. على مائدةٍ طويلة في المنتصف جلَسَ عروسٌ وعريس. العروس في فستانِ زفافٍ أبيض، وبجانب العريس امرأةٌ ضخمةٌ ترتدي زيَّ مدينة برن التقليدي. كلُّهم موتى، وفي سلامٍ تامٍّ بملابسهم التي لا يرتدونها إلا أيام الآحاد. الصحون نصف ممتلِئة، لا بد أنهم أخذوا لتوِّهم المزيد من الطعام. بين الموائد تمدَّدتْ جثثُ خادمات المطعم. على الموائد صينيةٌ ضخمةٌ تحتوي على أطعمة برن التقليدية: جامبون على الطريقة الفلَّاحية، وضلوع خنازير، ولحم مطهوٌّ، وشحم الخنزير، ونقانق من اللسان، وفاصوليا، وكرنب مخلل، وبطاطس مسلوقة. بجوار العروس كان هناك مقعدٌ مزحزح إلى الجانب، على الأرض تمدَّد رَجلٌ طاعنٌ في السنِّ، لحيته العظيمة غطَّتْ صدره كأنَّها حجاب. في يده اليمنى يُمسك بورقة، تطلَّعتُ إليها، قصيدة. أمسكتُ بمقعده، وجلستُ بجانب العروس، وأخذتُ من الصينية بعضَ الأصناف ووضعتُها على صحني. كان الطعام لا يزال ساخنًا.

لم أنقش هذه الذكريات على جدرانِ الأنفاق إلا بتردُّد؛ إنها تَظهَر لي في عديدٍ من النقاط غيرَ جديرةٍ بالتصديق، خصوصًا النقطة التالية: أَلَمْ تنخفض الحرارة عبْرَ الشتاء كله؟ عندما أفكِّر فيما حدَثَ، أرى أمامي دومًا فيضاناتٍ هائلة. عبْرَ الطريق الخالي وصلتُ إلى مدينتي بعد تَجوالٍ طويل. كلما اقتربتُ منها، كانت المدن تُقفِر وتخلو من البَشَر. طوالَ كيلومتراتٍ كان الطريق السريع مغطًّى بالعُشب الكثيف الذي شقَّ طريقه في الطبقة الخرسانية، مررتُ أيضًا بطوابيرَ من السيارات التي الْتفَّتْ عليها بكثافة نباتات اللَّبْلاب. ذاتَ مرة اعتقدتُ أنني لمحتُ طائرةً في السماء، كانت تطير عاليًا جدًّا بحيث أنني لم أسمعها. عندما وصلتُ إلى المدينة كانت الضواحي أطلالًا، مراكزُ تسوُّق فقدتْ معناها. أبراجٌ سكنيةٌ متفحِّمة. تركتُ الطريق السريع. في شمس المغيب، رأيتُ المدينة القديمة أمامي. وكأنَّها لم تُمسِ في موقعها على ظَهْر الصخرة فوق النهر. تخلَّل الضوءُ الأسوارَ مثلَ ذهَبٍ دافئ. بَدَت المدينةُ رائعةَ الجمال، أمام ذِكراها تبهتُ ذكرى الماكالو والكومو لونجما. ولكنَّ الجسورَ التي تصِلُ إلى المدينة كانت محطَّمة. رجعتُ إلى الطريق السريع، فوق أنقاضه كان يمكن عبور النهر. السحابة الذرِّية الشبيهة بالفِطر في الناحية الجنوبية الآن. أمستْ ناقوسًا مشِعًا يجثِم على جبال الألب، مُضيئًا السماءَ الليلية في أثناء توغُّلي في الغابة. بقيت المخابئُ سليمةً دون ضرر، الأَسِرَّةُ مفروشة بمُلاءاتٍ نظيفة. انتظرتُ. لم يأتِ بوركي. غفوتُ. وفي الصباح تحرَّكتُ في اتجاه وسط المدينة. الجامعة تحوَّلتْ إلى أنقاض، مبنَى قِسم الفلسفة متفحِّم، الجدار الأمامي منهار، كُتبُ المكتبة كتلةٌ واحدة من الورق الأسود. الطاولة التي كنا نجلس خلفها انكسرتْ. السبورة وحدها ظلَّت سليمة. أمامها وقَفَ رجُلٌ أعطاني ظهْرَه دافئًا يده

في مِعطفٍ عسكريٍّ مهترئ. ألقيتُ عليه التحية، فلَمْ يردَّ. «أنت!» صِحتُ. يبدو أنَّ الرجلَ لم يسمعْني. فذهبتُ إليه ولمستُ كتفَه. أدار وجهه ناحيتي. كان محترِقًا من الأشعة وجامدًا بلا تعابير. تناوَلَ قطعةَ طباشيرَ كانت ساقطةً أسفل السبورة، وكتَبَ: «إصابةٌ في الرأس. أصمُّ وأبْكَم. أقرأُ الشفاه. تكلَّمْ ببطءٍ». ثم الْتفتَ إليَّ. «مَن أنت؟» سألتُه ببطء. هزَّ كتفَيه. «أين قِسم رعاية الجنود؟» سألتُه. تناوَلَ الطباشير وكتَبَ على السبورة. «تيبت. حرب». نظَرَ إليَّ. «رعاية الجنود»، قلتُ ببطءٍ مؤكِّدًا على كلِّ مَقطَع، «أين؟» كتب ٦٠٢٣١٠٢٣، رقم لا معنى له، احتفظتُ به في ذاكرتي، لا لشيءٍ سوى لأنني كضابطٍ معتادٌ على حفظ الأرقام: ستون، ثلاثة وعشرون، عشرة، ثلاثة وعشرون. تطلَّع إليَّ. تقلَّصَ فمُه المحترِق. لم أستطعْ أن أتبيَّن ما إذا كان يبتسم لي، أم يَشمت بي. نقرتُ على جبهتي. فكتَبَ الأصمُّ الأخرس: «التفكير يكفي»، ونظَرَ إليَّ مرةً أخرى متأمِّلًا. أخذتُ الطباشيرَ من يده، وشطبتُ ما كتبه، وكتبت تحته: «هُراء»، ثم ألقيتُ الطباشير على الأرض، وسحقتُه بقدمي وغادرتُ أطلال الجامعة. أمام مطعم الطلاب المحترِق قابلتُ رجلًا قصيرًا. على خدِّه الأيمن دُمَّل أسودُ كبيرٌ. كان يدفع أمامه عربةَ يدٍ مليئةً بالكتب. إنه يأتي من قِسم اللغة الألمانية، قال لي مُشيرًا باتجاه حقول الأنقاض خلْفَ الجامعة. وجدتُ هذه الكتب هناك. تناولتُ كتابًا من العربة، «إيميليا جالوتي». «أنا أجلِّد الكتب»، قال الرَّجُل مفسِّرًا: «ويعمل معي أيضًا طبَّاعُ كتب. نحن الآن بصدد نشْرِ كتاب، مائة نسخة، تليها مائة نسخة. لقد بدأ الناس يقرءُون من جديد، وسيصبحون مع الأيام قارئين نهِمين. تجارةٌ مربِحة للغاية». أشرَقَ وجهه. «لن أموت. لقد نجوتُ. في خدِّي ورمٌ خبيث». قلتُ له إنني كنتُ أعتقد أن كتابات ليسنج صعبةٌ، فسألني الرَّجُل عمَّن يكون ليسنج. أشرتُ على الكتاب. «هذا؟!» قال متعجِّبًا، «هذا طعامٌ للنيران. إنني أطبع «هايدي». بقلم يوهانا شبيري. خذْ بالك من الاسم: يوهانا شبيري. كتابٌ من الكلاسيكيات». ثم ارتاب في أمري. «هل كنتَ جنديًّا؟» أومأتُ برأسي. «ضابط؟» سألني بنبرةِ تهديد. هززتُ رأسي نافيًا. «وقبل ذلك؟» أجبتُه: «طالب». وألقيتُ نظرةً على العربة التي يدفعها. «هل قرأتَ مثل هذه الكتب؟» سألني متجهِّمًا. «أيضًا»، رددتُ. فزمجَرَ قائلًا: «لقد ارتكبتم أخطاءً فظيعة في أثناء فترة التعليم. أنتم وكتبكم الهباب هذه». سألتُه عن مكتب رعايةِ الجنود. «عند البلدية»، أجابني. «ربما كنتَ ضابطًا أيضًا». وبخطواتٍ ثقيلة دفَعَ عربةَ اليد إلى الأمام.

عدتُ إلى الأطلال مرةً أخرى. كانت قد تزايدتْ وغطَّت الأنحاء. الغابة التي تقع إلى شمال المدينة أصبحتْ أشجارها تنمو وسط الأنقاض. في القِسم المدمَّر وجدتُ أجزاءً من

«تاريخ الأدب التراجيدي»، وبضعَ صفحاتٍ من مقدمةٍ تتناول «أساسيات فنِّ الشعر». المحطة أسفل الجامعة ليست سوى كومةٍ من الأنقاض. امتدَّ الخراب والدمار إلى البيوت وشارع المستشفى والسوق. واجهاتُ عَرض المحلات مهشَّمة. الكاتدرائية ما زالتْ قائمةً. سرتُ إلى المدخل الرئيسي، لوحة «يوم الحساب» كانت حُطامًا. عندما سرتُ بحذاء صحن الكنيسة، تساقطتْ من المزاريب قطراتُ المياه على أحجار الشارع. في مدخل «شارع الصليب» استنَدَ رَجلٌ رثُّ الثياب إلى حائطِ منزل. «هل الخطر المهدِّد للحياة يسبب المتعة للإنسان؟» سألني. فاستفسرتُ منه عمَّن حطَّم «يوم الحساب». «أنا»، قال الرَّجُل. «لم نعُدْ بحاجة إلى يوم حساب». مكتب رعاية الجنود لم يكُنْ بعيدًا عن دار البلدية، لا بد أنَّه كان يومًا كنيسةً صغيرة، إذا لم تخُنِّي الذاكرة. على امتداد الأسوار وضِعتْ حشياتٌ وكومةٌ من البطاطين. حول جُرن المعمودية ثلاثة كراسيٍّ، وفوقه طبقٌ عليه قطعةُ تورتة. على الجدران بقايا باهتةٌ من إحدى صور الفريسكو، لم يعُدْ من الممكن تبيُّن ملامحها. كانت الكنيسة خاليةً. دخلتُها وخرجتُ منها مراتٍ عدَّة. لم يأتِ أحدٌ. فتحتُ بابًا بجانب جُرن المعمودية. دخلتُ غرفةَ الكَهَنة. خلْفَ طاولة جلستْ عجوزٌ بدينةٌ بنظَّارة من النيكل وراحتْ تأكل من التورتة. على سؤالي — إذا كان مكتب رعاية الجنود هنا — أجابتْ والطعام يملأ فمَها: «أنا رعايةُ الجنود»، وبعد أن ابتلعت القضمةَ سألتْني: «ومَن أنت؟» ذكرتُ لها اسمي الحركي: «روكارت». استغرقت البدينةُ في التفكير. «والدي كان يمتلك كتابًا لروكارت»، قالت بعد بُرهة، «حكمة إبراهيم». «حكمة البراهما، لفريدريش روكرت»، قلتُ مصحِّحًا. «جائز»، قالت البدينةُ واقتطعتْ لنَفْسها من التورتة. «تورتة روبلي»، قالت شارحة. «أين قائد المدينة؟» سألتُها. استمرتْ في المضغ، ثم قالت: «الجيش استسلم. لم يعُدْ هناك قائدٌ للمدينة. لم يعُدْ إلا الإدارة». كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها عن الإدارة، فسألتُها: «ماذا تعنين بذلك؟»، لحَسَت المرأةُ أصابعها متسائلةً: «بأيِّ شيء؟» «بالإدارة؟» «الإدارة هي الإدارة» أجابتْ عندئذٍ. رحتُ أتفرَّج عليها وهي تلتهم التورتة. سألتُها عن عدد الجنود الذين ترعاهم، فأجابتْ: «جنديًّا أعمى». فسألتُها بحذرٍ: «بوركي؟» استغرقت المرأة في الأكل والبلع، ثم أجابت أخيرًا: «شتاوفر. الأعمى يُدعى شتاوفر. قبل ذلك كنتُ أرعى عددًا من الجنود. لكنهم لقُوا كلُّهم مصرعهم. كلهم كانوا عميانًا. يمكنك أن تسكن هنا، لقد كنتَ جنديًّا، وإلا ما كنتَ ستجيء إلى هنا». «أسكن في مكان آخر». «هذا شأنك» ردَّتْ وهي تحشر آخر قطعة من التورتة في فمها. «نتناول الغداء في تمام الثانية عشرة ظهرًا، وفي تمام الثامنة مساءً تورتة روبلي». انصرفت. في الكنيسة الصغيرة جلَسَ رَجلٌ مسنٌّ عند

جُرن المعمودية. جلستُ مقابله، فقال: «أنا أعمى». سألتُه: «كيف أُصبتَ؟» «رأيتُ البرق. الآخرون رأوا البرق أيضًا. كلُّهم ماتوا». ثم دفَعَ الصحن عنه، قائلًا: «أنا لا أحبُّ تورتة روبلي. العواجيز فقط هم الذين يحبُّون هذه التورتة». فسألتُه: «شتاوفر؟» «لا»، أجابني، «هادورن. اسمي هادورن. شتاوفر مات. هل اسمك روجر؟»

– «اسمي روكارت.»

– «خسارة. لو كان اسمك روجر، كنت أعطيتُك شيئًا.»

– «ماذا؟»

– «شيئًا من شتاوفر.»

– «إنَّه ميِّت.»

– «وهو حصَل عليه أيضًا من شخصٍ ميِّت.»

– «من أيِّ ميِّت؟»

– «من فون تساوك.»

– «لا أعرفه.»

– «وهو أيضًا حصَلَ عليه من ميت.»

فكَّرت قليلًا، ثم سألته: «من بوركي؟»

أخذ يفكِّر، ثم قال: «لا، بورجر.»

لم أستسلم، وسألتُه: «ربما بوركي.»

راح يفكِّر من جديد، ثم قال: «ذكراتي لا تحتفظ بالأسماء. لقد قلتَ إنَّك لستَ روجر. ولكن، سيَّان بالنسبة لي مَن تكون». ثم دفَعَ إليَّ بشيء. مفتاح بوركي. سألتُه: «مَن هي الإدارة؟»

فأجاب الأعمى: «إدينجر.»

– «ومَن هو إدينجر؟» سألتُه.

فأجاب الأعمى: «لا أعرف.»

نهضتُ ووضعتُ المفتاح في جيب مِعطفي. قلتُ له: «سأنصرف.»

– «وأنا سأبقى. سأموت وشيكًا على كلِّ حال.»

كان «شارع الجزارين» كومة من الأنقاض، برج «تستجلوجه» حُطام. عندما وصلتُ إلى مقرِّ الحكومة كان الليل قد هبط، ولكن العتمة لم تكُنْ مسيطِرة، وكأنَّ القمر بدر. التمثالان بجانب المدخل الرئيسي كانا من غير رأس. القبَّة مكسورة، الدرَج الكبير لا يمكن

استخدامه إلا بمخاطَرة. من المدهِش أن صالة البرلمان الكبيرة لم يُصِبها أيُّ ضرر، حتى الفريسكو الضخم الشنيع لم يمسسه سوء، ولكنَّ صفوف مقاعد النُّواب لم تكُنْ موجودة. بدلًا منها وضعوا في الصالة أرائكَ متهالِكة، وعليها جلستْ نساءٌ يرتدينَ أَرْوابًا صباحيةً مهترِئة أيضًا، بعضهنَّ عاريات الأثداء، ولا ينير وجوههن إلا ضوءٌ شاحب من مصابيح الكيروسين. أماكن الجمهور كانت مغطاةً بالستائر. منصة المتحدثين ما زالتْ قائمة. في مكان رئيس البرلمان جلست امرأةٌ ذات وجهٍ مستدير يشِي بالعزم. كانت ترتدي زِي ضباط جيش الخلاص، وتفوح منها رائحة البصل. بقيتُ واقفًا عند باب الدخول دون أن أحزم أمري.

– «تعالَ هنا»، قالت الضابطة آمرةً، «ابحثْ لك عن واحدة.»

– «ليس معي نقود»، أجبتُها.

حدَّقت المرأة فيَّ: «من أين تأتي يا بُنيَّ؟»

– «من الجبهة.»

اندهشتْ. «لا بد أنك تجوَّلتَ كثيرًا إذن. هل معك ممحاة؟»

– «لماذا؟»

– «لإحدى الفتيات بالطبع»، أجابتْني. «نحن نأخُذ ما نحتاجه. والأفضل لو كان معك مبراة.»

– «ليس معي إلا مسدس.»

فقالت المرأة: «إليَّ به يا بُنيَّ، وإلا تحتَّمَ عليَّ إبلاغ الإدارة.»

فتساءلتُ: «إدينجر؟»

– «ومَن غيره؟» أجابت المرأة.

فسألتها: «وأين الإدارة؟»

– «في ميدان أيجر»، ردَّت المرأة.

– «هذا الماخور ...»

فاعترَضَت المرأةُ قائلةً: «هذا البيت ... البيت، يا بُنيَّ!»

– «... هذا البيت، هل كان إدينجر هو الذي أمر بتجهيزه؟»

– «بالطبع. نحن مصابون بأشعة القنبلة يا بُنيَّ. سنموت حتمًا. وكل متعةٍ يقدِّمها الإنسان للإنسان هي من أعمال الحبِّ الإلهي. رُتبتي رائد. وأنا فخورةٌ أن لوائي قد فهِمَ ذلك»، وأشارت إلى النسوة على الكنبة المتهالِكة. «منذوراتٌ للموت، مستعدَّاتٌ للحب.»

قلتُ لها: «أنا أبحث عن نورا.»

تناولت الرائدة ناقوسًا وقرَعَتْه، ثم صاحت: «نورا.»

في الطابق العلوي، في أماكن الدبلوماسيين، فُتح ستارٌ. ثم ظهَرَ رأسُ نورا. «ماذا هناك؟» سألتْ نورا.

– «زبون»، قالت الرائدة.

– «ما زلتُ مشغولة»، ثم اختفت.

فقالت الرائدة بنبرةٍ تقريرية: «ما زالت تعمل.»

– «سأنتظر.»

ذكرتْ لي الرائدة السِّعر: «مقابل المسدس». أعطيتُها المسدس. «اجلس يا بُنيَّ، وانتظر». جلستُ بين امرأتَين على إحدى الكنبات المتهالكة. أخذت الرائدة جيتارًا من خَلْف مقعد الرئيس، وضبطتْه، ثم غنَّينَ معًا:

«لا شيء سيدنِّس طُهرنا،
ما دام الحُب يسكن قلبنا.
عندما يقترب الموت بمِنجله،
تصبح كلُّ العذاباتِ أوهامًا.
لم يكُنْ صعبًا على الربِّ
أن يُعلِّق على الصليب.
ولكنَّ وضعَنا
منذ أن انفجرت القنبلة،
أسوأ بكثير.»

جاءت نورا. في البداية اعتقدتُ أنها تحمل صبيًّا، ولكنه كان رجلًا في الستين من عمره، مقطوع الساقَين وبوجهٍ طفوليٍّ مجعَّد. «وصلنا، أيها النطَّاط»، قالت نورا ووضعتْه على الكنبة. «سوف تتحسَّن الآن حالتك النفسية». «نورا»، نادتْ عليها الرائدة. «زبونك التالي». تطلَّعتْ إليَّ نورا، وتصرفتْ كأنَّها لا تعرفني. لم تكُنْ ترتدي شيئًا تحت الروب. «إذن، فلْنصعد يا عزيزي»، قالت. ومشت عبْرَ الباب المؤدِّي إلى البهو. تبعتُها. شرعت الرائدةُ تعزف على الجيتار من جديد، وغنَّى اللواء:

«أيتها الأخوات، افتحنَ مشدَّات الصدور،
انغمسنَ في المتعة، وامنحنَ البهجة.

إنَّ مَن يسقُط عميقًا يضطجع،
ويريد أن يقطف لذة الأبدية.»

«هل معك المفتاح؟» سألتْني نورا. أومأتُ، فقالت: «فلْنذهب». سِرنا بحذر عبْرَ القاعة ذات القبَّة المدمَّرة، ثم عبرنا البَهو إلى الجناح الشرقي. توغَّلنا في الممرِّ، ورغمًا عنَّا بقينا واقفين. قلتُ لها: «أنا لا أرى شيئًا». فأجابت: «لا بد أن نتعوَّد على الظُّلمة. وهناك دائمًا ما يُرى». بقينا بلا حَراك. قلتُ لها: «كيف تجرَّأتِ، وفعلتِ ذلك؟!» «ماذا؟» «أنتِ تعرفينَ ما أقصد». لزمت الصَّمت. كانت الظُّلمة أمامنا لا تُقهر. «كان لا بد أن ندافع عن موقعنا هذا»، أجابت. «هل أرغمكِ إدينجر؟» ضحكتْ. «طبعًا لا. ولكنْ، لولا ذلك لَمَا كان هناك سببٌ كي أسكُن هنا. هل ترى الآن شيئًا؟». كذبتُ: «بعضَ الشيء» «فلْنواصل السَّير». توغَّلنا بحذَرٍ في الممرِّ. شعرتُ أنني كالأعمى. «لماذا كنتَ ثائرًا عليَّ؟» سألتْني نورا، «حتى فيما سبَقَ كنتُ أتفاني في خدمتكم جميعًا». واصلتُ تحسُّسَ طريقي في الظُّلمة. «نعم، في خدمتنا نحن»، قلتُ غاضبًا. «يا عزيزي»، ردَّتْ نورا، «أعتقد أنَّ زمنكم مضى ولن يعود». نزلنا درَجَ القبو. «هنا»، قالت، «انتبه، الدرَجُ ٢٢ درجةً». أحصيتُها في أثناء النزول. بقيتْ واقفةً. سمعتُ أنفاسها. «الآن، يمينًا»، قالت، «في هذا السُّور». تحسَّستُ الحائط المبطَّن بألواح، ووجدتُ المكان، الذي استجاب لي. مررتُ بأناملي باحثًا عن ثُقب الباب، كان المفتاح ملائِمًا. «أغلقي عينَيكِ»، قلت لها. ثم انفتحتْ أبواب المخبأ. شعرنا أنَّ المكان مُضاء. تحسَّسْنا طريقنا إلى الداخل، وانغلق الباب خلْفَنا. فتحنا أعيُنَنا، فوجدنا أنفُسَنا نقِفُ في غرفة الكمبيوتر. تفحَّصت نورا الأجهزة. «مولدات الطاقة على ما يُرام»، قالت. سِرنا إلى جهاز اللاسلكي. شغلتْه نورا، ولدهشتنا سَمِعنا «أيها الآتي من الفجر الوردي»، بصوتٍ بالِغ الارتفاع حتى إنَّ الرجفة قد اعترتْنا. «أهالي البلوموليسالب»، صرختْ نورا. فقلتُ مهدِّئًا: «إنَّه اللاسلكي الأوتوماتيكي. من المستحيل أنْ يكون أحدٌ منهم لا يزال على قيد الحياة». ولكننا عندئذٍ سمعنا صوتًا. كان صوتَ هوسمان، المذيع المحبوب الذي يقدِّم برنامجًا ليليًّا به موسيقى ونوادر ومقابلات. «حان وقتُ الاسترخاء، الآن يأتيكم هوسمان. عزيزتي المُستمِعة، عزيزي المستمع»، قال الصوت، «الساعة الآن العاشرة مساءً». ثم ذكَرَ هوسمان التاريخ وأعلن تَكرار بثِّ حلقةٍ وطنية. «ما زالوا يعيشون»، صرختْ نورا، «ما زالوا يعيشون. التاريخ تاريخ اليوم». ثم ارتفع من السمَّاعات صوتُ رئيس القِسم العسكري. «رئيسي!» وخرجتْ نورا عن طَورها. ألقى الرئيس بصوته الجهوري خطابًا إلى الشعب، أعلن فيه أنَّهم كلَّهم — الحكومة والبرلمان وأجهزة الدولة، إجمالًا أربعة آلافٍ من

النساء والرجال، وإنْ كانت الأغلبية من الرجال، إضافةً إلى عاملات الاختزال — كلُّهم نجَوا بسلامٍ من الكارثة تحت البلوموليسالب، دون أن يُصابوا بأضرارٍ من جرَّاء الأشعة، ومعهم موادُّ غذائية تكفي لجيلَين أو ثلاثة أجيال، وأنَّ المفاعِل النوويَّ لا يزال يعمل، ويمنحهم الضوء والهواء — وهو ما يجب أن يُخرس نهائيًّا كلَّ معارضي الطاقة النووية — وأنَّ الحكومة والبرلمان وأجهزة الدولة تستطيع أنْ تواصل حُكمها للبلاد وخدمة الشعب، وإنْ كان من المستحيل مغادرة البلوموليسالب؛ لأنَّ العدوَّ يتَّسم بالخسَّة والغدر، وقد يَرمي قنبلةً فوق البلوموليسالب تحديدًا، ولكن ليس عليهم أن يخشَوا شيئًا. إنَّ على السُّلطة التنفيذية والسُّلطة التشريعية وجهاز إدارة الدولة أنْ يضحُّوا بأنفُسهم من أجل الشَّعب، وهو ما فعلوه. وفيما واصَلَ رئيس الجهاز العسكري خطابه، سدَّدتُ بصري إلى نورا. كانت تقِفُ مرتديةً الرُّوب الصباحيَّ الذي انفتح، مستغرِقة في الإنصات إلى رئيسها. انقضضتُ عليها وطرحتُها أرضًا ورفعتُ فخذها، منذ مدَّةٍ طويلةٍ لم أنَم مع امرأة. واصَلَ الرئيس حديثَه قائلًا إنَّه سمِعَ ببهجةٍ عظيمة عن النصر الذي تحقَّقَ على العدوِّ الغادر في لاندك، وإنَّه مقتنِعٌ بأنَّ الجيش والحلفاء الشُّجعان قد اقتربوا من النصر النهائي في أعماق البراري الآسيوية، وربما حقَّقوه بالفعل، ولكنه — وجميع أعضاء الحكومة — لم يسمعوا الأخبار بعدُ من العالَم الخارجي للأسف الشديد؛ لأنَّ الإشعاع القوي للغاية في البلوموليسالب يمنع، على ما يبدو، استقبالَ الإشارات اللاسلكية. راح يتكلَّم ويتكلَّم، ونورا تُصغي إليه. أخذتُ ألهث وأتأوَّه، وهي تضغط بكفِّها اليمنى على فمي حتى تسمع رئيسها ولا يفوتها كلمةٌ منه. كنتُ أرقد فوقها، أصعد وأهبط، نهِمًا لا أشبع، وهي لا تُصغي إلا إلى الصوت الآتي من السمَّاعة، تاركةً جسدها حرْثًا مستباحًا. من الممكن بالطبع، قال الرئيس شارحًا بصوتٍ يشفُّ عن القلَق، بالطبع ليس من المستبعَد، وإنْ كان من غير المحتمَل، أن تكون الحرب قد اتَّخذت مسارًا مختلِفًا عن المتوقَّع، وأن يكون التفوُّق العدديُّ الهائل والتفوُّق في أنظمة التسلُّح التقليدية للعدوِّ قد مكَّناه من الانتصار، وأنه قد غزا البلاد. ولكنه — كما حدَثَ أيام المورجارتن وسيباخ والمورتن — سيكون قد غزا الأرض فحسب، لا الشَّعب الذي لا يُقهر. جُن جنوني على جسد نورا، وازداد الغضب في صدري اشتعالًا؛ لأنَّها كانت لا تزال تُصغي إلى ما يُقال، ولأنَّها ما زالت لا تُعيرني أدنى اهتمام. لا بد أنَّ العدوَّ قد أدرك الآن شيئًا فشيئًا هذه الحقيقة، ليس فقط من خلال المقاومة البطولية التي ما زال الشعب يُبديها — وهل يشكُّ في ذلك أحدٌ؟ — بل لأنَّ الحكومة الشرعية المنتخَبة من الشَّعب، ومعها البرلمان

وأجهزة الدولة، تقوم بواجباتها بكلِّ حرية تحت البلومليسالب، نهارًا وليلًا؛ إنَّها تحكُم، وتشرِّع، وتسنُّ القوانين، إنَّها تمثِّل الشعب الحقيقيَّ وليس هناك سواها، ومن صلاحياتها التفاوض مع العدوِّ، ليس من وضْعِ المهزوم، بل من وضْعِ المنتصِر. فحتَّى لو كانت البلاد في دمارٍ وخراب — لو افترضنا حدوثَ ما ليس محتمَلًا — وحتى إذا لم تَعُد البلاد تقاوم المعتدي، أو — وهذا شيء للأسف ليس مستبعَدًا — إذا لم تقُمْ لها قائمة؛ فإنَّ حكومته ما زالت تقوم بواجباتها، والبرلمان الذي انتَخَبه الشعبُ ما زال قائمًا، وما زالت أجهزةُ الدولة تضطلع بمهامِّها على أكملِ وجه. إنَّ هذه الجهات لن تستسلم أبدًا. على العكس، إنَّها مستعدَّة لتعزيز استقلاليتها في خدمة السلام العالمي، وبالارتكاز على حياديَّتها الدائمة المسلَّحة.

ما أتذكَّره لا يتعدَّى أشلاءَ كلماتٍ أحاول الآن لمَلَمتها، لقد شعرتُ بما لم أشعُرْ به يومًا، شعرتُ وكأنَّ الخطاب لن ينتهي أبدًا، وعندما نزلتُ من فوق نورا، سمعتُ «أيها الآتي من الفجر الوردي» من مكبِّر الصوت مرةً أخرى. نهضنا. كنتُ أعوم في عَرَقي. سِرنا إلى المخبر عاريَين، ثم أخذَتْ عينةً من دمي وقامَتْ بتحليلها. «ستظلُّ حيًّا»، قالت. «وأنتِ؟» «لقد حلَّلت الإدارة دمي. كنتُ محظوظةً. مثلَك». انقضضتُ عليها من جديد، وطرحتُها أرضًا بجانب طاولةِ التحاليل، ولكنَّ الغضب تملَّكني مرةً أخرى، لأنَّها قالت لي بصوتٍ هادئٍ وموضوعيٍّ في أثناء محاولتي استمالتَها: «حكومةٌ بكامل هيئتها بلا شعبٍ؛ أمرٌ مثاليٌّ للحكومة»، ثم ضحكتْ ولم تتوقَّف عن الضحك، فتركتُها. «كَم شخصًا يعملون في الإدارة؟» سألتُها بعد أن هدأتُ. «عشرون، ثلاثون، لا أكثر»، أجابتْ وقامت، وظلَّتْ واقفةً أمامي. «وأين يسكُن إدينجر؟» سألتُها وأنا ما زلت قاعدًا على الأرض، عاريًا، خائر القُوى. نظرتْ إليَّ متأمِّلة:

– «لماذا تريد معرفةَ ذلك؟»

– «هكذا.»

بعد فترةِ صمتٍ قالت أخيرًا: «في بيت لحم.[٧] في شقَّةٍ على سطح أحدِ الأبراج السكنية.»

– «هل تعرفين اسمه الأول؟»

[٧] المقصود هنا ليست المدينةَ الفلسطينية، بل ضاحيةٌ على أطراف مدينة برن السويسرية مشهورةٌ بأبراجها السَّكَنية. (المترجِم)

تردَّدتْ ثم أجابت: «أرميا.»

سِرتُ إلى الكمبيوتر. لم يَرِد اسمُ إدينجر كثيرًا، ومن ضمن الأسماء وجدتُ أيضًا أرميا إدينجر. قرأتُ البيانات بسرعة: درَسَ الفلسفة، لكنه لم يُتمَّ الدراسة. من حُماة البيئة. امتنع عن الخدمة العسكرية، حُكم عليه بالإعدام، ثم حصَلَ على عفوٍ من البرلمان، وحُوِّلت العقوبةُ إلى سجن مدى الحياة. ذهبتُ مرةً أخرى إلى غرفة اللاسلكي، وأغلقتُ الباب، كانت الشفرة في الخِزانة السرِّية. عُدت إلى نورا، وغيرتُ ملابسي. كانت قد ارتدت الرُّوب مرةً أخرى. ذهبتُ إلى مخزن السلاح، واخترتُ مسدسًا كاتمًا للصوت، وقلتُ لها أنْ تحتفظ بالمفتاح وأن تقفل الباب، فأنا أنوي أن أفعل شيئًا يتَّسم بالخطورة. اعتصمتْ نورا بالصمت، ثم غادرتُ مبنى الحكومة عبْرَ أحدِ أبواب الجناح الشرقي.

في بيت لحم لم يكُنْ هناك سوى برجٍ سكنيٍّ واحد، وإنْ كان بالأحرى شبيهًا بهيكلٍ شبحيٍّ من الخرسانة. دخلتُ البناية، الطوابق السفلى محترقة عن آخرها، وبئر المصعد خالية. أخيرًا عثرتُ على دَرَج. الطوابق لم تعُدْ سوى حواملَ حديديةٍ تحمل السقف الخرساني. الطابق الأعلى كان خاويًا، ليس هناك إلا الإضاءة الساطعة الصادرة عن السماء الليلية. اعتقدتُ أنني أخطأتُ عندما ظننتُ المنزل خاليًا من السُّكان؛ إذ إنني وجدتُ سلَّمًا. تسلقتُه إلى الأعلى، ووقفتُ على سطح المنزل، مباشرةً أمام شقةٍ غارقة في الظَّلام، وعبْرَ شقِّ الباب نفَذَ ضوء. قرعتُ الباب. سمعتُ خطواتٍ بالداخل، ثم انفتح الباب، وفي المساحة المضاءة المائلة للزُّرقة وقَفَ شخصٌ لم أتبيَّن ملامحه. سألتُ: «هل أرميا إدينجر موجود هنا؟»

– «أبي ما زال في المكتب»، أجاب صوتُ فتاة.

– «سأنتظره تحت.»

– «انتظرْهُ عندي»، قالت الفتاة، «ادخُلْ. أمي أيضًا لم تأتِ بعدُ.»

دخلت الفتاة الشقَّة، فتبعتُها واضعًا يدي في جيب الجاكيت. الباب المقابل لم يكُنْ سوى حائطٍ زجاجيٍّ ضخم، وأدركتُ عندئذٍ لمَ بَدَت الشقَّة من الداخل مُضاءة. خلْفَ اللوح الزجاجي كان الليل ساطعًا، ولكنَّه لم يكُنْ مشعًّا بلونٍ فضيٍّ أزرق بسبب ظهور القمر، بل لأنَّ الجبال كانت تضيء كالفسفور؛ لقد توهَّج جبل البلوموليسالب توهُّجًا شديدًا حتى إنه خلَّفَ ظِلالًا. تطلَّعتُ إلى الفتاة. بدتْ في الضوء كالشبح. كانت نحيفةً، عيناها واسعتان للغاية، وبياضُ شَعرها يشبه بياض البلوموليسالب الذي أضاء الغرفة. على أحد الجدران رفَّان، وفي منتصف الغرفة مائدة وثلاثة كراسيٍّ. على المائدة كتابان، «هايدي»،

و«مختصر تاريخ الفلسفة – دليلك إلى نظرةٍ عامة» لشفجلر. بجانب الجدار الآخر مَوقِد، وبجوار الحائط الزجاجي كرسي هزَّاز. أشعلت الفتاة شمعدانًا عليه ثلاث شمعات. غيَّر الضوء الدافئ ملامحَ الغرفة. رأيتُ على الجدران رسوماتِ أطفال ملوَّنة. كانت الفتاة ترتدي بدلةً رياضيةً حمراء، عيناها متَّسعتان وبشوشتان، شَعرها أشقر يميل إلى اللون الأبيض، لا بد أنها في العاشرة من عمرها. «أنت مذعور»، قالت البنت، «لأنَّ البلوموليسالب يُضيء.»

– «يعني ... أنا فعلًا مذعورٌ قليلًا.»

– «لقد زادت الإضاءة في الأسابيع الأخيرة. أبي يعتقد أنَّ عليَّ الرحيل مع أمي بعيدًا عن هنا.»

تطلَّعتُ إلى الرسوم، فقالت البنت: «هايدي. لقد رسمتُ كتاب هايدي كلَّه. هذا هو «أوهي» الذي يعيش في الألب وهذا هو الماعز بيتر. ألَا تريد أن تجلس؟ على الكرسيِّ الهزَّاز، إنَّه للضيوف.»

سِرتُ نحو الحائط الزجاجي، ونظرتُ إلى البلوموليسالب، وجلستُ على الكرسيِّ الهزَّاز. راحت الفتاة تقرأ «هايدي» على المائدة. لا بد أنَّ الساعة كانت نحو الثالثة صباحًا عندما سمعتُ خطواتٍ تقترب. في إطار الباب بدا رجُلٌ طويلٌ وبدين. ألقى عليَّ نظرةً خاطفة، ثم اتَّجه إلى الفتاة. «كان عليكِ أن تكوني في الفِراش منذ وقتٍ طويل يا جلوريا. هيا، انهضي». أغلقت البنتُ الكتابَ، قائلةً: «لا أستطيع النوم قبل أن تجيء يا بابا. كما أنَّ ماما لم تأتِ هي الأخرى». «ماما ستأتي قريبًا»، قال الرَّجل الطويل الثقيل الحركة، ثم سار ناحيتي، وقال: «مكتبي في ميدان أيجر.»

– «أريد أن أتحدَّث معك على انفرادٍ يا إدينجر.»

– «ألَا تريد أن تعرِّفني بك؟»

هززتُ كتفي، وأجبتُ: «اسمي لن يغيِّر في الأمر شيئًا.»

– «طيب. فلْنشرب كأسًا من الكونياك.»

وسار إلى رُكن المطبخ، وانحنى، ثم أحضَرَ زجاجةً وكأسَي كونياك. عاد إلى الغرفة، ومسَحَ على شَعر الفتاة التي كانت قد رقدتْ في الفِراش، ثم نفَخَ الشموعَ مُطفِئًا إيَّاها، وفتَحَ الباب مشيرًا لي. خرجنا إلى السطح الذي امتدَّ أمامنا في الضوء الشبحيِّ للجبال الفسفورية مثل سهلٍ تفترشه الأطلال والأدغال. جلسنا على أنقاض مَدخَنة، وتحتَنا بيتُ لحم الخراب. خلْفَ أحدِ الأبراج السكنية المقصوفة يحدس المرء المدينة من بعيد حيث ينهض شبحُ الكاتدرائية. «كنتَ جنديًّا؟» «ما زلتُ جنديًّا»، أجبتُه. أعطاني كأسًا، ثم صبَّ

فيه، ثم لنَفْسه، قائلًا: «من السِّفارة الفرنسية. الكنُوس أيضًا. كريستال». سألتُه عمَّا إذا كانت لا تزال قائمة، فأجاب: «القبو فقط، فالإدارة لها أسراها أيضًا». احتسينا الكونياك. سألني: «وماذا كنتَ قبل ذلك؟»

– «طالب، لدى كاتسباخ العجوز. كنتُ على وشك كتابة رسالة دكتوراه.»

– «أهكذا؟»

– «عن أفلاطون.»

–«وعن أيِّ شيء في أفلاطون؟»

– «عن الدولة. الكتاب السابع.»

قال لي إنَّه درس أيضًا لدى كاتسباخ، فقلتُ له: «أعرف». فردَّ بنبرةٍ تقريرية، ولكن دون تعجُّب، أنني إذن أعرف عنه كلَّ شيء. واصَلَ احتساءه. فسألتُه: «وما أخبار كاتسباخ؟» أخبرني وهو يحرِّك كأسَ الكونياك في يده أن النيران اشتعلتْ في شقته عندما سقطت القنبلة، «كانت بالشقة مخطوطاتٌ أكثر من اللازم». «هذا هو قَدَر الفلاسفة التعيس»، أجبتُه، مُضيفًا أنَّ القِسم احترَقَ بكامله، لم يبقَ منه شيءٌ. فقال لي إنَّه لم يَجِد سوى شفجلر، هذا هو ما استطاع إنقاذه. «لقد رأيتُه على المائدة». لزمنا الصمت محملِقين في البلوموليسالب. «هل ستأتي غدًا إلى الفحص الطبي؟» سألني إدينجر، «في ميدان أيجر». فأجبتُه: «سأعيش. لقد أجريتُ فحصًا». لم يسألني عمَّن أجرى لي الفحص، وصبَّ لي ولنَفْسه الكونياك من جديد. «أين الجيش يا إدينجر؟ لقد حشدنا ثمانمائة ألف جنديٍّ». «الجيش»، قال، «الجيش». وشرِبَ. «سقطت قنبلةٌ على إنسبروك». واصَلَ الشراب. «قنبلة تأخَّر انفجارها. أنت من الجيش. إذن أنت محظوظ». لزمنا الصمت محدِّقين في المدينة، وواصلنا الشراب. من المرجَّح أن نسلِّم هذا البلد، قال إدينجر. أوروبا عمومًا. إن ما حدَثَ في وسط أفريقيا وجنوبها لا يمكن وصفه. ناهيك عن القارات الأخرى. لم تأتِنا من الولايات المتحدة حتى الآن إشارةُ حياة. لم يعُدْ يعيش على الأرض حاليًّا إلا أقلُّ من مائة مليون. كانوا عشرة مليارات. أرسلتُ النظر إلى البلوموليسالب. أمسى أكثر إشعاعًا من البدر. «لقد أسَّسنا إدارةً عالمية»، قال. أخذتُ أهزُّ الكونياك في الكأس، ثم سألتُه: «نحن؟» لم يُجِب على الفور. «أنت امتنعت عن الخدمة العسكرية يا إدينجر»، قلتُ مادًّا كأسي ناحية البلوموليسالب. توهُّجه كان شبحيًّا. «أنت مدينٌ بالحياة لأسوار السِّجن التي حمتْك. يا لَلسخرية. لو كان لدى البرلمان بعض الشجاعة، لكنتَ لقيت مصرعك رميًا بالرصاص منذ وقتٍ طويل». «يبدو أن الشجاعة كانت لديك أنت»، قال. أومأتُ برأسي. «كنْ متأكِّدًا من ذلك يا إدينجر».

واحتسيتُ جرعةً مستمتِعًا بها. من ناحية المدينة سمعتُ انفجارًا مكتومًا. اقترب شبحُ الكاتدرائية، ثم سمعتُ رعدًا بعيدًا، وارتفعتْ في السماء سحابةٌ من الغبار الأزرق، ثم هبطتْ، ولم أعُدْ أرى شيئًا من الكاتدرائية. قال غيرَ مبالٍ: «لقد سقطتْ شُرفة الكاتدرائية، وانهارتْ معها الكاتدرائية كلُّها. كنَّا ننتظر حدوث ذلك منذ فترة. وبالمناسبة، أنت محقٌّ، حضرةَ العقيد»، ثم أضاف: «نحن الممتنعين عن تأدية الخدمة العسكرية أسَّسنا الإدارة هنا، في الأماكن الأخرى قام بذلك المنشقُّون أو ضحايا القوانين الراديكالية». فضَحَ إدينجر نَفْسه. كان يعرف مَن أنا. ولكنَّ ذلك لم يكُنْ — بدايةً — ذا أهمية. الأهمُّ هو معرفة بعض المعلومات عن الإدارة. قلتُ له: «هناك إذن فروع لإدارتكم في الأماكن الأخرى. لديك معلوماتٌ حول ذلك يا إدينجر». «باللاسلكي». فاعترضتُ قائلًا: «لم يعُدْ هناك تيارٌ كهربائي». فأجابني: «بعض الرِّفاق يتصرَّفون باستخدام المتاح». كان وجهه شبحيًّا في ضوء الليل، ينبعث منه شيءٌ لا يُفسَّر، شيءٌ غريب، جامد. «ذات مرة اعتقدتُ أنني رأيتُ طائرة»، قلت له. شرِبَ جرعةً من كأسه، ثم قال: «من الإدارة المركزية في نيبال». لديها طائرة لقياس الإشعاع النووي. تمعنتُ فيما يقول. ثمَّة شيءٌ غير صحيح في هذه الحكاية. «أنت تعرف من أنا يا إدينجر»، قلتُ بنبرةٍ تقريرية. «كنتُ أعرف أنَّك ستجيء، حضرة العقيد. بوركي هيأني». اعتصمنا بالصمت. سألتُه: «وهل أعطاك المفتاح؟» «أيضًا». «ونورا؟» فأجاب أنَّها لا تعرف شيئًا عن الأمر. كان من السهل العثور على المخبأ تحت الجناح الشرقي. لقد سمِعَ بعض خطابات الحكومة، ثم أرجع المفتاح إلى بوركي الذي تُوفِّيَ، وعن طريق تساوج وشتاوفر وروجر وهادورن وصَلَ المفتاح إليَّ. قلتُ له: «أنت إذن في الصورة». شرِبَ من كأس الكونياك، ثم ردَّ: «الإدارة في الصورة». أشرتُ إلى البلوموليسالب المتوهِّج. «الإدارة هناك يا إدينجر»، قلتُ له، «حكومةٌ كاملة، برلمان كامل، وأجهزةُ الدولة الكاملة. إذا حرَّرناها، ستكون لدينا إدارةٌ أفضلُ من إدارتكم العالمية بأعضائها من الممتنِعين عن الخدمة والمنشقِّين. لا بد أنَّ إدارتَك ترتجل ارتجالًا عظيمًا. صُب لي جرعةً أخرى يا إدينجر». صبَّ في كأسي، فواصلتُ: «لا بد أنَّك تُدرك الآن على الأقلِّ شيئًا واحدًا يا إدينجر. أنا الأقوى بيننا نحن الاثنَين». فتساءل وهو يشرب: «أنت تقصد، لأنَّ لديك سلاحًا؟» فرددتُ عليه: «مسدسي سلَّمته للقوَّادة التي عيَّنتْها إدارتُك في مبنى الحكومة». فضحِكَ. «حضرة العقيد، كان مخزن السلاح تحت تصرُّفك في المخبأ تحت الجناح الشرقي. والشفرة أيضًا». تعجَّبتُ. «ماذا تعرف عن الشفرة؟» لم يُجب مباشرةً. راح يحدِّق في البلوموليسالب، واكتسب وجهه الكبير ذو الحضور الطاغي جمودًا غريبًا مرةً أخرى. ثم حكى أنَّ بوركي أطلَعَه على الشفرة في الخِزانة السرِّية تحت

الجناح الشرقي، ومعًا قاما بفكِّ شفرة بعض الرسائل السرِّية التي بعثتْ بها الحكومة من البلومليسالب. وبالمناسبة، لم يكُنْ ذلك ممكنًا إلا لأنَّ الكابل الممتدَّ تحت الأرض سليمٌ، أمَّا محطةُ الإرسال الإذاعي في البلومليسالب فقَدْ تعطَّلتْ بسبب الإشعاع النووي، ولا يمكن الوصول إلى الحكومة إلا عن طريق الجناح الشرقيِّ للمبنى الحكومي. إنَّ الحكومة تشعُر باليأس. لقد حاولتْ عبثًا الاتصال بي، والآن تخلَّت عن محاولاتها. كانت تأمل في أنْ أحرِّرها، والآن توجَّه هذا الرجاء إلى الطرف الذي تعتقد أنَّه قد انتصر، إلى الأعداء، دون أن تُدرك أنه ليس هناك منتصرون، ليس هناك إلا المهزومون؛ لا تُدرك أنَّ جنود كلِّ الجيوش قد امتنعوا عن مواصلة القتال بعد أنْ قَتَلوا ضباطهم رميًا بالرَّصاص، أنَّ الإدارة تولَّت السُّلطة، وأنَّ الجنود الذين عاشوا بعد الكارثة يحاولون الآن استصلاح الصحراء، ربما تتمكَّن البشرية أن تنجو رغم كلِّ ما حدَثَ. لزم الصمتَ. استمعتُ إلى ما قاله وتمعَّنتُ فيه، ثم سألتُه: «وماذا تقترح؟» أفرَغَ الكأسَ في جوفه، ثم قال: «الناس في الصحراء يعملون كي يواصلوا الحياة». وأضاف أنه ليس من المستبعَد أن تتوغَّل الإشعاعات النووية وتَصِل إلى هناك. الناس يحاولون ريَّ الصحراء بوسائل بدائية على نحوٍ لا يُصدَّق. إنهم يعملون كما عمِلَ الإنسانُ الأول. يكرهون التكنولوجيا. يكرهون كلَّ ما يذكِّرهم بالعالم القديم. إنَّهم يعيشون تحت صدمة، وهذه الصدمة لا بد من التغلُّب عليها. لقد درستُ مثلَه الفلسفة. ما زال يقتني شفجلر. في الماضي كنا نسخر من «مختصر تاريخ الفلسفة»، ولكن ربما استطعتُ أنْ أعلِّم الناس في الصحراء أنَّ التفكير ليس أمرًا خطِرًا فحسب، ثم صمَتَ. كان الاقتراح شاذًّا. قلتُ مُقهقِهًا: «تعلِّم التفكير بمعونة شفجلر.»

– «ليس لدينا إمكانيةٌ أخرى.»

– «ليس لديك فعلًا إمكانيةٌ أخرى تَعرِضها عليَّ غير ذلك؟»

تردَّد. ثم أجاب أخيرًا: «بلى؛ ولكنني أعرضها عليك كارهًا.»

– «وهي؟»

– «السُّلطة.»

نظرتُ إليه متمعِّنًا، إنَّه يُخفي عنِّي شيئًا ما. «أنت تريد قَبولي في الإدارة يا إدينجر؟»

– «لا؛ لا يمكن قبولك في الإدارة يا حضرةَ العقيد». ثم الْتفَتَ إليَّ بوجهه الثقيل مواصِلًا: «ليست الإدارةُ إلا محكمةً. على كلِّ إنسانٍ أن يقرِّر إذا كان يريد الوعيَ أم فقدان الوعي، إذا كان يريد أن يكون مواطِنًا أم مرتزِقًا. أنت أيضًا لديك الاختيار، وعلى الإدارة أن تقبل اختيارَك.»

تأمَّلتُ فيما قال، ثم سألتُه متشكِّكًا: «وما هي سُلطة المرتزِق؟»

– «مثلها مثل أيِّ سُلطة أخرى: السُّلطة على الناس.»

– «أيُّ ناس؟» سألتُه مواصِلًا تمحيص ما يقول. فأجاب إجابةً غائمة: «على الناس الذين يتحكَّم في أقدارهم.»

– «أجِبْني بلا لفٍّ أو دوران يا إدينجر.»

– «إنَّك لا ترى الصورةَ كلَّها، حضرةَ العقيد. والحرب العالمية الثالثة لم تنتهِ بعدُ.»

– «هه، وإلى أين تسير الحربُ إذن؟»

تردَّد مرةً أخرى، وحملَقَ من جديدٍ في كأسه، ثم أجاب في النهاية: «في التيبت. هناك يواصلون القتال.»

– «مَنْ؟»

– «المرتزِقة.»

بدا لي الأمر بعيدًا عن التصديق، فسألتُه: «ومَن يهاجم المرتزِقة؟»

– «العدوُّ»، أجاب إدينجر. فأردتُ أن أعرف: «ومنْ هو العدو؟» فأجاب مراوِغًا: «هذا شأن المرتزِقة. الإدارة لا تتدخَّل في شئونكم». كان حديثنا يدور في حلقةٍ مُفرَغة. إمَّا أنَّ العدوَّ أقوى ممَّا يريد إدينجر أن يعترف، وإمَّا أنَّ الحرب في التيبت فخٌّ. عليَّ أن أحذر المخاطرة. «إدينجر. لقد كنتُ ضابط الاتصال في قيادة جيشنا. عندما استسلم الحلفاءُ واحتفلت القيادة بهذا الاستسلام؛ أطلَقَ القائدُ رصاص مسدسه على أركان الحرب.»

– «ثم؟» تساءل إدينجر. تطلَّعتُ إليه، ثم قلتُ: «إدينجر. على حافة الطريق أمام تسنيتس لقي ما يزيد على ثلاثمائة ضابطٍ حتفهم. رميًا برصاص جنودنا». أفرغ إدينجر كأسه، ثم قال: «لم يعُدْ جنودنا يريدون القتال». سحبتُ المسدس الكاتم للصوت، وقلتُ له: «صب لنفسك كأسًا أخرى يا إدينجر. إنَّ المرتزِقة في التيبت لا يَعنُونني في شيء، ولا إدارتك تَعنيني في شيء. الحكومةُ وحدها هي ما تهمُّني، البلوموليسالب. البلد يعجُّ بالمحتضرين. وبهم — وهم سيموتون على كلِّ حال — سأُنقذ الحكومة». ملأ إدينجر كأسه، ثم راح يؤرجِحها. «رغم ذلك ستذهب إلى التيبت، حضرةَ العقيد»، قال بهدوءٍ، ثم وضَعَ الزجاجة بجانبه على السطح، وتذوَّق الكونياك. «قِف»، أمرتُه، «وسرْ إلى حافة السطح. أنت ممتنِعٌ عن الخدمة وخائنٌ للبلد». أطاع إدينجر، وعندما وصَلَ إلى حافة السطح الْتفَتَ إليَّ مرةً أخرى، شبحًا يقِفُ أمام البلوموليسالب المضيء. «البلوموليسالب»، قال ضاحكًا، ثم سألني: «هل تعرف، حضرةَ العقيد، فيمَ أفكِّر عندما أرى البلوموليسالب مضيئًا هكذا؟» هززتُ

رأسي. «إنني اقترحت آنذاك في أثناء محاكمتي، عندما حكموا عليَّ بالإعدام، أنَّ بإمكانهم القيام بشيءٍ مجنون بالأموال التي سيوفِّرونها لو ألغَوا الجيش: إنشاء أكبرِ مَرصَد للنجوم في العالم فوق البلوموليسالب». قَهقَه، ولوَّح لي، ثم أفرغ كأسه، وألقى بها خلْفَه في الأنقاض، وأعطاني ظَهْره. «باسم حكومتي»، قلتُ ثم صوَّبتُ ثلاثًا على الشَّبح. سقَطَ. وخَلَت السماء الليلية المضيئة أمامي من الأشباح. سمعتُه يصطدم بالأرض. بدأتُ أفتقد شيئًا. تناولتُ الزجاجة، ورميتُها في إثره.

شعرتُ أنَّ أحدًا يقِفُ خلفي. استدرتُ والمسدس في يدي. كانت نورا. كانت ترتدي «أوفرول» كالذي يرتديه العُمَّال. سقَطَ شَعرُها على الكتفَين. بدا في الليل المنير أبيضَ مثل شَعر البنت في شقة السطح. هتفتُ: «نورا. لقد قتلتُ الخائنَ إدينجر. لم يكُنْ ضروريًّا أن تتبعيني». لم تقُلْ شيئًا. سارتْ عدَّة خطواتٍ إلى حافة السطح، ثم عادت. «نورا»، قلتُ مضطرِبَ المشاعر، «ينقُصُني شيء، ولا أعرف ما هو.»

– «أنا هنا منذ فترة. لقد أصغيتُ لكما. جلوريا طفلتي، وإدينجر زوجي.»

حملقتُ فيها: «لم يكُنْ شيء من هذا مكتوبًا في الكمبيوتر.»

– «لو كان مكتوبًا، لَمَا كنتُ سأعمل في خدمة الحكومة»، قالت ثم مرَّتْ بي في طريقها إلى حافة السطح، وهناك ألقتْ نظرةً إلى أسفل. «أنا سعيدةٌ لأنَّك قتلتَه. عندما سقَطَت القنبلة، كان يعمل مع المعتقَلين الآخرين في منطقة الأحراش الكبيرة. كان من المستحيل إنقاذُه. آلامُه كانت فظيعة، بعد أن مرَّ بأهوال جهنم». استدارت وسارت باتجاهي. «أعرف فيما تفكِّر الآن، لأنَّك لا تفكِّر إلا على نمطٍ واحد». بقيتْ واقفةً أمامي، هيئة مظلِمة أمام السماء التي تزداد استضاءة. «ولكنني لستُ خائنة. إدينجر كان رَجُلي، ليس أكثر. رَجُل. ولكنني كنتُ أعتقد أنَّه مخبول. كنتُ أؤمن بالدفاع عن البلد وكل هذا الهُراء. كنت حاملًا عندما حكموا عليه، لامتناعه عن الخدمة، بالإعدام ثم بالسَّجن مدى الحياة. كان ذلك قبل بدء الحرب بثمانية أعوام. مكَّنتُه من الدراسة الجامعية. كان يمزح ويدعوني إكسانتيبه. هذه المرأة — قال لي — أسدتْ للفلسفة خدماتٍ أكثر من أيِّ امرأةٍ أخرى. امتنع عن الخدمة لأنَّ هذا ما يقتضيه صدقُ الفكر: على الإنسان أنْ يفعل ما يفكِّر فيه. ليس الضمير هو الذي يُملي على الإنسان أفعاله، بل الفكر. كان يقول إنَّ الضمير والفكر صنوان متَّحدان. كان يحبُّ البلد، غير أنه كان يتَّهمه بأنَّه يتملَّص من التفكير. لم يكره أحدًا. ولكنني شعرتُ أنَّه تخلَّى عنِّي. كنتُ خائفة. غريزتي قالتْ لي إننا بحاجة إلى الدفاع عن البلد. أمَّا هو فكان يقول لي إنَّ الحكومة والبرلمان وأجهزة الدولة ستُنقذ نَفْسها فقط. تنبَّأ بكلِّ ما

حدَثَ فيما بعد. لم أصدِّقه. عندما دخَلَ السِّجن، بدأتُ أثأر لنَفْسي: كنت أنام مع كلِّ واحدٍ منكم». انتشر الضياء إلى حدٍّ أنني استطعتُ أن أتعرَّف على ملامح وجهها. كان متحجِّرًا، ويَسُوده سلامٌ كامِل. «ولأنني ثأرت من الرَّجُل الذي أحببتُه، ولأنني كنتُ أنام مع كلِّ أعضاء الإدارة العسكرية العليا، أصبحتُ وطنية. وظللتُ وطنية، حتى عندما حدَثَ كلُّ ما تنبَّأ به إدينجر». ابتسمَتْ، وفجأةً اكتسب وجهُها رِقة لم أكُنْ أتوقَّعها منها قَط. «ظللتُ وطنيةً جدًّا لدرجة أنني عملت في الماخور الذي أمَرَ ببنائه في مبنى الحكومة، أيضًا من مُنطلَق إيمانه بالمنطق الخالص؛ لأن المحتضرين يحتاجون إلى ماخور. هو أيضًا الذي أقنَعَ جمعية «جيش الخلاص» الخيرية بذلك». وضحكتْ. «وهكذا أصبحتُ مُومِسًا، كي أنتظرك، وأنتظر ما تُكلِّفني به. كنتُ أعتقد أنَّ إدينجر لا يدري شيئًا عن ذلك، ولكنني الآن أعرف أنَّه كان يعرف». قلتُ لها: «لم يكُنْ يهتمُّ بأمرك». سدَّدتْ بصرها إليَّ. «كلَّ ليلة، في مثل هذا الوقت، كنتُ آتي إلى هنا. لم يكُنْ يستطيع النوم من شدَّة الألم، ولكنني لم أقضِ يومًا وقتًا جميلًا مع إنسان، مثل تلك الساعات التي تسبق الفجر. كنا نتبادل الحديث، وعندما كان يُمسك بالكتاب الذي وجَدَه بين أنقاض الجامعة، كنتُ أعرف أنَّه يريد أن يواصل التفكير، فكنتُ أستغرق في النوم. لقد شيَّد صرحَ الفلسفة كلِّها في داخله، قال لي ذاتَ مرة، بذلك الكتاب التعليمي السخيف. في بعض الأحيان كان يأتيه في الليل أصمُّ أخرس. كانا يبنيان معًا صروح الرياضيات والفيزياء والفلك. كان يقول: كلُّ شيء يمكن إعادةُ بنائه، ليس هناك فكرةٌ واحدةٌ تضيع». سِرتُ إلى حافة السطح، وألقيتُ نظرةً إلى أسفل. كان إدينجر مُلقى هناك في الهوَّة، لم يعُدْ ممكنًا معرفة ما إذا كان يرقُد على ظَهْره أو على بطنه، ذراعاه مفتوحتان، والساقان متباعدتان. الأمرُ سواء، قلتُ عندما عُدتُ إلى نورا، ليس المهم الآن إذا كان إدينجر عبقريًّا أم لا، فردَّت: «أنت تريد تنظيم أمرِ المحتضرين». فأجبتُها أنَّ عليَّ أن أنفِّذ ما كُلِّفتُ به، ولذلك فإنني أريد إطلاع الحكومة في البلوموليسالب على الأمر بأسرع ما يمكن، قبل أن تُعيقني الإدارة عن ذلك. «لن تستطيع ذلك»، قالت بهدوء. «بعد أن غادرتَ أنت المخبأ تحت الجناح الشرقي، ضبطتُ جهاز التفجير الآلي وتبعتُك. رأيتُك وأنت تسير في اتجاه البرج السكنيِّ. انتظرتُ خارج الشقة على السطح. حتى إدينجر لم يرَني. كنتُ أقِفُ خلْفَكما عندما وقَعَ الانفجار. ما زالت بقيَّةُ القبَّة قائمة. ولكنَّ الكاتدرائية انهارت. لم يعُدْ هناك اتصالٌ مع الحكومة». حملقتُ فيها مذهولًا. لم أعُدْ أفهم شيئًا. لقد جُنَّت نورا. راحتْ تنظُر إلى البلوموليسالب. «لمَّا كنَّا في غرفة اللاسلكي، وسمعنا فجأةً صوتَ المذيع، ثم خطاب ذلك الرئيس، أدركتُ فجأةً أنَّ إدينجر كان على حقٍّ». «لقد كنتُ أضاجعكِ»، صحتُ. اقتربتْ

مني وبقيتْ واقفة أمامي، ثم قالت بهدوء: «حضرةَ العقيد، أَلَمْ تفهم ما قاله الرئيس؟» «لقد كنتُ أضاجعكِ»، صحتُ في وجهها. «ربما»، أجابتْ، «لا يهمُّني ما فعلتَه بي. لكنني كنتُ أُصغي إلى الخطاب وأدركتُ فجأةً ما سيفعلونه بنا، حكومةٌ وبرلمان وأجهزةُ دولة تَعتبر نَفْسها تعمل من أجل الشعب، بينما الشعب في الحقيقة ليس إلا ذريعةً بالنسبة لها حتى تنجو بنَفْسها وتعيش في أمان، ما أغربَ كلَّ ذلك يا حضرة العقيد! فلْيجلسوا إلى الأبد إذن في حضن الجبل! والآن تأتي أنت بفكرتك الحمقاء وتحاول أن تجعل المحتضرين يحفرون بأظافرهم طريقًا كي تخرُج هذه الحكومة التي بلا شعب من قبرها الذي حفرتْه بنَفْسها. أَلا تفهم حتى الآن أنَّ الوطنية بجميع أشكالها ليست إلا هُراء؟ لأيِّ غرض ما زالت هذه الحكومة موجودةً على الإطلاق؟ وهل تعتقد أنَّها الحكومة الوحيدة التي تجلس في قلب البلوموليسالب؟ إنَّ كلَّ حكومات العالَم تقبع سجينةَ المخابئ، يقول إدينجر، حكومات مثل حكومتنا، بلا شعب، وبلا عدوٍّ». وفجأةً أدركتُ ما ينقُصني منذ أن قتلتُ إدينجر. «العدوُّ»، قلتُ ببطء، «لم يعُدْ لديَّ عدوٌّ». فجأةً شعرتُ بتعبٍ هائلٍ وبيأس. غاب البلوموليسالب في الضوء المتزايد. لقد أقبل الصباح. مرَّت الفتاة بجواري، والْتجأتْ إلى حضن أمِّها التي وقفتْ أمامي، فخورةً وجميلة. «اذهبْ إلى التيبت»، قالت لي، «إلى الحرب الشَّتوية ...»

[هنا ينقطع النَّقش. وقد عُثر على أجزاءٍ من بقيَّة النصِّ في نفقٍ بعيد.] ... أنا مشوَّش منذ فترة (شهور، سنين؟) ليس لأنني أعيش في ظلامٍ دامس، فأنا أعرف المكان، وأستطيع الوصول دائمًا إلى الذخيرة والمعلَّبات. يستطيع العدوُّ، بالتأكيد، أن يتوغَّل في نظام الأنفاق الذي كنتُ أسيطر عليه عندما كانت الإضاءة تعمل، بل لعلَّه توغَّل بالفعل، ولكنَّ العثور عليَّ بات أصعب. الكتابة أيضًا تُرهقني؛ إذ يتحتَّم عليَّ أن أتحسَّس الحائط الصخريَّ بالجزء الضئيل المتبقي في عضدي الأيمن الذي ما زال سليمًا، أو أحيانًا بوَجنتي، كي أعرف ما إذا كنتُ قد نقشتُه فيما قبل. إنني أكتب أسطرًا بطول كيلومترَين، هذا هو تقديري بحساب لفَّات كرسيِّي المتحرِّك، ولا أكتب سوى سطرَين، الواحد تحت الآخر. ولكنْ لا شيءَ يُقلقني، لا الهجوم المحتمَل للعدوِّ، ولا آلامي الشخصية. لقد استسلمتُ وتكيَّفتُ مع وضعي؛ بل إنَّ وضعي يَملؤني فخرًا؛ فأنا الآن مكان إدينجر، إنني في هذه المتاهة تحت جبل الكومو لونجما المدافِع الوحيد عن الإدارة. إنني أكفِّر عن مقتل إدينجر، حتى وإن لم تَكُن الرصاصةُ التي أطلقتُها سوى رصاصةِ الرحمة. إنَّ اقتراحه، بأنْ يتعلَّم أولئك الذين يقومون بريِّ الصحراء الفلسفةَ، اقتراحٌ مفهوم. كان يحاول أن يُعيد بناء الفلسفة. ولكنَّ نورا كانت محقَّةً؛ إنني أُسدي للإدارة في الحرب الشَّتوية خدمات أكثر، من خلال

وظيفتي ومن خلال مصيري. ربما يكون ذلك شنيعًا، ولكنه ذو مغزًى. إنني أتذكَّر تلك الليلة تحت قمَّة جبل الجوساينتان في قيادة الأركان، عندما سمعنا «أيها الآتي من الفجر الوردي». على الموجات القصيرة. بالصدفة تسبَّبَ الإشعاع النووي في قطْعِ الإرسال الإذاعي في البلومليسالب. استمعنا أيضًا إلى خطاب رئيس الحكومة: إنه على استعدادٍ للتفاوض مع العدوِّ تفاوضَ الشُّرفاء. إنني أشعُر بالخزي عندما أفكِّر أنني خدمتُ هذه الحكومة. في بعض الأحيان كنَّا نستمع إلى النشيد الوطني لبلدان أخرى، كما أنَّ رؤساء حكومات آخرين أعلنوا هم أيضًا استعدادهم للسَّلام. ذاتَ مرة تحدَّث أحدهم باللغة الروسية ونبرات صوته تشفُّ يأسًا، ولكننا لم نفهم الروسية، وفي الختام عرَضَ استسلامه بكلِّ اللغات. الإدارة التي أعمل الآن في خدمتها لا تعرف مثل هذه الأفكار. لن تستسلم للعدوِّ أبدًا. ولكن ثمَّة حدَثًا يُصيب تفكيري بالاضطراب، لأنني لا أفهمه. إنَّ من المستبعَد أن تكون الحرب الشَّتوية قد شهِدتْ تحوُّلًا مصيريًّا بالنسبة للإدارة. أنا أُومن بالنصر النهائي. هذا بديهيٌّ. ولكنْ، عندما وصلتُ بنقوشي مؤخَّرًا إلى مكانٍ لا يمكن أن يكون بعيدًا عن الماخور الذي أغلَقَ أبوابه منذ زمنٍ بعيد، لمحتُ ضوءًا ينبعث من بعيد. من الممكن أنْ يكون العدوُّ الذي لزم الصمتَ والحذَرَ طيلةَ سنوات؛ ربما يكون قد بدأ هجومًا شاملًا. حرَّكتُ كرسيِّي إلى الأمام بحذَرٍ وحيطة، فوجدتُ صالةَ الماخور مضاءةً كالنهار، وتكتظُّ بالبَشَر، رجال ونساء وعائلات بأكملها، كثيرون الْتقطوا الصُّور، آخرون — رجال بالزيِّ الرسمي — كانوا يشرحون عمَلَ الأجهزة. سيطرتْ عليَّ الصدمةُ لدرجة أنني حرَّكتُ كرسيِّي في اتجاه الجَمْع، أعماني الضوءُ، فكِدتُ أُطلق النار، ولكنني أدركتُ أنني لستُ موجودًا وسطَ مرتزِقة من الأعداء، بل وسطَ مجموعةٍ سياحية. أطلقتُ دفعةً من الرصاص التحذيري من الرشَّاش الآلي، كان السُّياح في خطَرٍ؛ فمن الممكن أن يهاجمهم العدوُّ. كان أمرًا طائشًا أن يسمحوا بزيارة الماخور القديم وأن ينظِّموا هذه الزيارة. صرَخَ السُّياح مرتاعين، وركضوا هاربين عبْرَ أحد الأنفاق الكبيرة. حرَّكتُ كرسيِّي وراءهم، كان من الممكن أن يكونوا من الأعداء الذين تخفَّوا في شكل سُيَّاح. كان النَّفق مضاءً كالماخور، الأرضيَّة مسفلَتة. وفجأةً وجدتُ نَفْسي في الهواء الطَّلق. من إحدى المغارات الجليدية حملَقَ فيَّ مرتزِقة بأقنعةِ أكسجين ورشَّاشاتٍ آلية. أطلقتُ الرصاص. تهشَّم زجاجٌ، كان المرتزِقة أشكالًا شمعيةً معروضةً خلْفَ لوحٍ زجاجيٍّ ومسلَّط عليها ضوءٌ اصطناعي. وجدتُ نَفْسي وسطَ قاعةِ معارضَ كبيرةٍ، خلْفَ

ألواحٍ زجاجية أخرى كانت مناظرُ مختلفةٌ من الحرب الشَّتوية معروضةً بأشكالٍ شمعية. ارتعبتُ عندما تعرَّفتُ خلْفَ أحد الألواح الزجاجية على قائدي؛ أمَّا مركز القيادة على قمَّة الجوساينتان فكان صورةً خادعةً طِبقَ الأصل. لقد دخلتُ متحفًا. حانقًا رحتُ أُطلق النارَ على خِزانات العَرض الزجاجية. لمحتُ ظلالَ أشخاص بالزيِّ الرسمي يهربون، كانوا من العاملين في المتحف. حرَّكتُ كرسيِّي في اتجاههم، فوجدتُ نَفْسي فجأةً أمام بوابةِ الخروج. في الخارج حديقةٌ عامةٌ مليئةٌ بالأزهار، سماءٌ صَحْو زرقاء، رجُلٌ في مِعطف أبيضَ، أصلعُ، بنظَّارةٍ، يلوِّح بمنديلٍ أبيضَ، كأنَّه طبيب. أرديتُه قتيلًا، ودفعتُ كرسيِّي في اتجاه المتحف عائدًا إلى النَّفق وإلى الماخور المهجور. بالكمَّاشة المثبتة في يدي اليمنى الاصطناعية الْتقطتُ كُتيبًا من الأرض. كان بعنوان «دليلك إلى ماخورِ المرتزِقة في الجازهربروم ٣»، «الحائط المضيء». الْتقطتُ كتيباتٍ أخرى، كلُّها بالعنوان نَفْسه. لم أَصِلْ إلى المغارة القديمة إلا بعد أيام.

وسط ظلامٍ لا يُقهر رُحتُ أنقشُ هذه الكتابات في نفقٍ جديد. لستُ مضطرِبًا بسبب اقتحام العدوِّ. إنني مشوَّش الفكر لأنَّني كنتُ دائمًا أعتقد أنَّ الماخور تحت الكانجشند تسونجا، في تلك «المغارات الخمس الملأى بالكنوز وسط الجليد العظيم»، في شرق الهمالايا. أمَّا الجازهربروم — الذي تدَّعي الكتيبات أنَّ الماخور تحته — فإنَّه يقع في سلسلة جبال الكاراكوروم، على بُعد ألف كيلومتر في اتجاه الشمال الغربي. من الممكن طبعًا أن يكون العدوُّ قد كتَبَ عمدًا معلوماتٍ خاطئةً. أيًّا كان الأمر، لم يعُدْ مكانُ إقامتي القديم آمنًا. أتذكَّر مغارةً شكَّلتُ فيها — وأنا ضابط برتبة ملازم — أولَ فرقة اقتحام، كان اختيارًا فظيعًا؛ لم ينجح في الاختبارات أكثرُ من الثلث. قرَّرتُ أن أبحث عن معسكرِ التدريب ذلك، ربما أجِدُ فرقتي مرةً أخرى، وإنْ كان الخطَرُ ماثلًا: أنْ يكون العدوُّ قد احتلَّ المعسكر، وهو احتمالٌ يجبُ أن أحسب حسابه الآن. صحيحٌ أنَّ زيارة السُّياح للماخور — مثلما كان المرءُ يزور قديمًا الحفريات الأثريَّة — يدلُّ على أنَّ أعمالَ القتال قد ابتعدتْ إلى الجبهة الغربية، ولكنْ من الممكن أيضًا أن يكون العدوُّ قد غزا قطاعاتٍ واسعةً من المناطق التي تسيطر عليها الإدارة، وهو ما لا أعتقده بالطبع. ومع ذلك، لقد قتلتُ الرَّجُل المرتديَ المِعطف الأبيض، رغم احتمال انتمائه للإدارة. وربما كان عدوًّا. سأنهي الكتابة في هذا النفق. [نهاية الكتابة.] دفعتُ كرسيِّي بحذَرٍ إلى شَبَكة الأنفاق التي تؤدِّي إلى معسكر التدريب بعد أن تزوَّدتُ بزادٍ يكفيني عدَّة أيام. ما زلتُ أتذكَّر الطريق جيدًا، بدون ذاكرةٍ سليمة لا يمكن البقاء على قيد الحياة في هذه الحرب. عند تقاطُع نفقَين — وهو ما شعرتُ به عبْرَ تيار

الهواء الذي لا يكاد يُلاحظ والذي ينشأ عند كلِّ تقاطُع — بدا لي أنني أسمعُ خربشةً في أحد الأنفاق الجانبية. كان الصوت شبيهًا بمَن ينقش على الجدار الصخري. حرَّكتُ كرسيِّي ببطء في اتجاه النفق، سنتيمترًا بعد الآخر، توقَّفْتُ، وتوقَّفَت الخربشات. ولكنْ، كأنني سمعتُ شيئًا يتدحرج ناحيتي. ثم سكون. دفعتُ الكرسي بحذَرٍ إلى الأمام مرةً أخرى سنتيمترًا بعد الآخر، توقَّفتُ، أرهفتُ السمعَ؛ ثانيةً سمعتُ شيئًا يتدحرج ناحيتي، سكونٌ من جديد. واصلتُ تحرُّكي، توقفتُ، أرهفتُ السمع. لساعاتٍ استمرَّ التدحرُج والتقارُب. وفجأةً تنفَّسَ شخصٌ أمامي تمامًا، لم أحرِّك ساكنًا. حبستُ أنفاسي. سمعتُ التنفُّس مرةً أخرى. كان من الأفضل ألَّا أستخدم الرشَّاش الآلي، فمن الممكن أن يكون أكثر من عدوٍّ بالقرب مني. مددتُ ذراعي اليمنى على اتِّساعها، وضربتُ بها الفراغ، تحرَّكتُ إلى الأمام، وضربتُ بذراعي، الصوت الصادر كان يشبه ارتطام الحديد بالحديد. واصلتُ الضرب، سقطتُ من كرسيِّي المتحرِّك، تقلَّبتُ مع شيءٍ آخر على الأرضية، واصلتُ الضرب، مرةً في المعدن، ومرةً في شيءٍ ليِّن. عندئذٍ أضحى الشيءُ الآخر ساكنًا. بحثتُ عن كرسيِّي. فوضى من الحديد. زحفتُ على بقيَّة أعضائي المبتورة، بحثتُ عن أيِّ شيء، سقطت في بئر، ثم اصطدم وجهي بشيء ما، تدحرجت، ووقعت في بئر أخرى. لا بد أنني ظللتُ وقتًا طويلًا راقدًا فاقدَ الوعي. عندما أفقتُ كنت ممدَّدًا في شيءٍ لزجٍ غطَّى وجهي. أردتُ أنْ أُطلق الرصاص فربما أكون سقطتُ وسط الأعداء، ولكنَّ ذراعي الاصطناعية اليسرى لم تكُن موجودة. لقد فقدتُ سلاحي.

إنه أنا مرةً أخرى. يبدو أنني في مغارة. أحسستُ أنَّ وجهي كتلةٌ دامية. الأرضية من الحصى. تدحرجتُ بصعوبة بحذاءِ حائط المغارة، لا بد أنَّ المغارة هائلةُ الاتساع. تيارُ الهواء ثلجيٌّ حينًا، وقيظٌ غيرُ محتمَل أحيانًا؛ قد تكون الورشُ العملاقة التي يتمُّ تصنيع الأسلحة فيها؛ بالقرب منِّي. هل هي ورشتُنا أم ورشة الأعداء؟ لا أعرف. أنا في حالةٍ ميئُوسٍ منها. ليس لي الآن مَن أعتمد عليه سوى نَفْسي. رحتُ أزحف بحذاء المغارة الهائلة التي كثيرًا ما تنعطف انعطافاتٍ غريبةً. والآن يمكنني أن أسأل نَفْسي السؤال الذي لم أسمح به طوال القتال: مَن هو العدو؟ لم يَعُد السؤال يُصيبني بالشلل، ولا الإجابة أيضًا. لم يعُدْ لديَّ ما أخسره. هذا هو سرُّ قوَّتي. أصبحتُ لا أُقهر. لقد حللتُ لغز الحرب الشَّتوية. صحيحٌ أنني فقدتُ كرسيِّي المتحرِّك، وذراعي الاصطناعية المنتهية بالرشَّاش ملقاةٌ في مكانٍ ما ورائي بأحد الأنفاق، ولكنني أنقش المعارفَ التي حصلتُ عليها في الصخر بالمقبض الحديدي

بخطٍّ مُنَمنَم، لا لكي تُقرأ، بل حتى أصوغَ أفكاري صياغةً أفضل. ففي أثناء حفري لها في الصَّخر، أحفرها في عقلي؛ إن الطريق إلى المعرفة وَعْر، أكثر وعورة من الطرق التي سِرتُ فيها منذ أن سقطتُ عاريًا في مدينةٍ نيباليةٍ صغيرة من فوق دَرَج زَلِق. لا يمكن السَّير على طريق المعرفة دون مخاطرةِ التخيُّل. وهكذا أتخيَّل ضوءًا وسطَ الظَّلام المطلَق المحيط بي؛ ليس الضوءَ المطلَق، ولكنْ ضوءًا يتناسب مع وضعي؛ إنني أتخيَّل بشَرًا في مغارتي، أشخاصًا مقيَّدين منذ شبابهم بالسلاسل المحكَمة حول الأفخاذ والأعناق، لا يستطيعون حَراكًا، فيظَلُّون جالسين مسدِّدين البصر إلى الأمام، إلى حائط المغارة. في الأيدي رشَّاشات آلية. فوقهم تَظهَر نيران. بين النيران والمقيَّدين هناك طريقٌ عرضي. وعلى طوله أتخيَّل سورًا صغيرًا. أمام هذا السُّور يسحب حرَّاس السِّجن المرهوبو الجانب أشخاصًا، مقيَّدين هم أيضًا، وأيضًا في أيديهم رشَّاشات آلية. ثم عندئذٍ، متزحلِقًا فوق حصى أرضيَّة المغارة، ومواصِلًا حفْرَ كتاباتي، سألتُ نَفْسي عمَّا إذا كنتُ سأرى يومًا شيئًا آخر غير ظِلالي أو ظلال الآخرين، تلك الظلال التي ترسمها النيران على حائط المغارة المقابل لوجهي، وعمَّا إذا كانت تلك الظلال هي الشيء الحقيقي الوحيد بالنسبة لي. نعم، وإذا ناداني صوتٌ من مكان ما، فإن هذه الظِّلال — ومعها تظهر ظلال الرشَّاشات الآلية — هي عدوِّي؛ هل أُطلق النار على الظلال الملقاة على حائط المغارة أمامي، وبذلك — لأنَّ الرصاص سيرتدُّ من الحائط — أقتل أولئك المقيَّدين مثلي بالسلاسل في الأفخاذ والأعناق؟ أم أنَّ هؤلاء — لأنهم يعتقدون ويتصرَّفون مثلي — سيقتلونني؟ ولكن إذا كنتُ مقيَّدًا وأُكرهت على الوقوف فجأةً وأن أدير رأسي، وأن أسيرَ في المكان، وأن أحدِّق في الضوء، وإذا شعرتُ بالألم في أثناء ذلك بسبب الضوء الباهر، ولذلك لا أستطيع أن أنظُر في وجوه أولئك الذين اعتدتُ أن أرى ظِلالهم، الذين يُشبه وضعُهم وضعي؛ ألن أعتقد عندئذٍ أنَّ تلك الأشكال الظِّلالية، التي كنت أراها، أكثر واقعيةً من تلك التي أظهروها لي؟ وإذا أرغموني على أنْ أنظُر في الضوء نَفْسه؛ فسوف أهرب ألَمًا، متوجِّهًا إلى أولئك الناس الظِّلاليين الذين رأيتُهم من قبل؛ وسأبقى على قناعتي بأنَّ أولئك أكثر وضوحًا من هؤلاء الذين يظهرون أمامي؛ لأن أولئك هم أعدائي؛ ألن أبدأ عندئذٍ في إطلاق النار حتى أقتلهم مرةً أخرى، وأَدَعهم يقتلونني المرةَ تلوَ الأخرى؟ لم أَعُدْ بحاجةٍ إلى الإجابة عن أسئلتي. ذاتَ مرةٍ رحتُ أتصارع مع هذا التشبيه، ولعلِّي قرأتُه في مكانٍ ما، أو استنبطته في أثناء التفكير، لم أَعُدْ أعرف. من المحتمَل أن أكون اخترعتُه في أثناء نقشي إيَّاه على الصَّخر. إنَّ النيران التي تُلقي بالظِّلال لا بد أن تكون من العصور السحيقة، ليس عبثًا أنَّ كلَّ حيوان يخشى النار؛ النار عدوانية، وعدوُّ الإنسان هو

ظِلُّه. ولهذا أطلقتُ الرصاص على إدينجر والرَّجل المعلَّق في المغارة، وقتلتُ القائد؛ لأنهم لم يعودوا يعتقدون أنَّ الظِّلال مُعادية، كانوا يعتقدون أنها أشخاصٌ مقيَّدون مثلي. والآن، لأنني أفكِّر هكذا، وجدتُ نَفْسي أتفهَّم فجأةً سلوكَ الإدارة؛ لأنها خرجتْ منتصِرةً من حروبٍ عالمية ثلاث، فإنها تتحكَّم في إنسانيةٍ فقَدَت معنى إنسانيتها لأنَّها قبلتْ أن تُحكم؛ ليس للإنسان-الحيوان أيُّ معنًى، إنَّ وجوده على الأرض لم يعُدْ له أيُّ هدف. ولماذا الإنسان أصلًا؟ هذا سؤالٌ بلا جواب. الإنسان والأرض تنقُصهما الإرادة. كما أنَّ الإنسان يُعاني، إنَّه عمومًا حيوانٌ مريض، ولكنَّ مشكلته ليست المعاناة في حدِّ ذاتها، بل لأنَّه لا يعرف إجابةً عمَّن يقول صارخًا: لِمَ المعاناة؟ الإنسان، أكثر الحيوانات شجاعةً وتعوُّدًا على المعاناة. لا ينفي المعاناة في حدِّ ذاتها؛ إنه يريدها، ويبحث عنها، على افتراضِ أن يرى معنًى، معنًى للمعاناة. ليست المعاناة نَفْسها هي اللعنة التي لا تستطيع الإدارةُ أن تُبعدها عن الإنسان، بل خلوُّ المعاناة من المعنى؛ إلا إذا منحتْه الإدارةُ المعنى القديم الذي — وهذا هو العبثي في الأمر — حررتْه منه: العدوُّ. لا وجود للإنسان إلا كحيوانٍ مفترِس. حتى لو لم يكُنْ هناك ما هو أصعبُ من قَدَر الحيوان المفترِس الذي يعذِّبه الألمُ ويطارده في شبكة الأنفاق تحت الكومو لونجما أو الكويو أو الماكالو والماناسلو أو الجوساينتان، ونادرًا ما تشبع غرائزه، وإذا حدَثَ ذلك فإنَّ الإشباع يتحوَّل ألمًا، في الصراع الدموي الساحق مع الحيوانات الضارية الأخرى، أو من خلال النَّهَم المُقرِف والتُّخمة في المواخير تحت الأرض. أن تكون أعمى وتتعلَّق بالحياة كالمجنون حتى لا تدفع ثمنًا أغلى، ودون أن تعرف أنَّك تعاقَب، ولمَ تعاقَب هكذا، بل أن تتحرَّق شوقًا إلى العقوبة كما يتشوَّق الإنسان إلى السعادة، هذا يعني أنْ تكون حيوانًا مفترِسًا، فإذا كانت الطبيعة كلُّها تَدفَع إلى الافتراس، فإننا نفهم ضرورةَ ذلك كي ننال الخلاصَ من لعنة الحياة، ونفهم أنَّ الوجود يُرينا أخيرًا مرآة، عندما ننظُر فيها لا نجِدُ الحياة عديمةَ المعنى، بل تُظهر لنا أهميَّتها الميتافيزيقيَّة. ولكنْ فلْيتمعَّن المرءُ جيدًا: أين ينتهي الحيوانُ المفترس — هذا القِرد الدمويُّ الضاري المتوحِّش الذي يسمِّي نَفْسه إنسانًا — وأين يبدأ الإنسانُ الأرقى؟ هل يحدُث ذلك عند الذي يتجاهل جهنمَ المغارة المنفيِّ فيها؛ الذي لا يقع صريعًا لوَهْم الاعتقاد بأنَّ الظِّلال ظِلال أعدائه، لا ظِلاله هو؟ ذلك الذي يمزِّق الحجاب الرقيق الذي تختفي الحقيقة خلْفَه؟ إنَّ هدف الإنسان هو أن يكون عدوًّا لذاته؛ الإنسان وظلُّه شيءٌ واحد. مَن يدرك هذه الحقيقة، يربح العالَم، إنَّه يُعيد للإدارة المعنى. سيِّد العالَم أنا. في الضوء الساطع الباهر أرى نَفْسي على كرسيِّي المتحرِّك

أترك نفقًا لأدخل في مغارة، ومن النفق المواجِه لي أُقابلني، كلانا له يدانِ اصطناعيَّتان تنتهيان برشَّاشَين آليَّين، لم يعُدْ هناك إمكانيةٌ للنقش على الجدار، كلٌّ يصوِّب الرشَّاش على الآخر، ونُطلق النار معًا في آنٍ واحد.

[عثر عمَّال المناجم على جثَّة المرتزِق في سفح جبل الجازهربروم ٣، ٧٩٥٢م، في منطقة كاراهوروم، على أحد المُنحدَرات. كان المرتزِق قد تدحرج مسافةً قدرها حوالي ١٥٠ مترًا على طول الصَّخر، وبيده الاصطناعية اليمنى نقَشَ كتاباته على الجدار وعلى الصخور الكبيرة التي — كما يبدو — اعتقدَ أنها جدار جبل الجازهربروم ٣ الذي ينحدر بشدَّة في المنطقة، أو جدران جبلٍ آخر. وجهه كُتلةٌ دموية. لا بد أنَّه كان أعمى. كما أنَّ أحد الجوارح (نسر، ابن آوى؟) افترس جزءًا من الجثَّة، ثم تركها. كان من الصعب فكُّ شفرة النُّقوش، لا سيما أنَّ اتجاه كلِّ النقوش تقريبًا — حتى في أنفاق الجازهربروم ٣ — سرعان ما أصبح من اليمين إلى الشمال بدلًا من الشمال إلى اليمين، أيضًا على الحائط المقابِل، ربما بسبب الكرسي المتحرِّك؛ ففي الظَّلام كان أسهل على المرتزِق أن يكتب هكذا. لا بد أنه واصَلَ النقش في الخارج، على المُنحدَر المليء بالدَّبش، على سفح الجازهربروم ٣، فهناك شريطٌ طوله ١٥٠ مترًا، من اليمين إلى اليسار، بحروف دقيقة، لا تكاد تُقرأ، بلا فراغ بين الكلمات، وبلا نقطة أو فاصلة. الجزء الختامي يؤكِّد دراساته الفلسفية السابقة، ويبدو أنَّه ذكرياته خلال فترة الدراسة، كولاج من أقوال أفلاطون (الدولة، مثال المغارة) ونيتشه (علم جينات الأخلاق، وشوبنهور مربيًا). بعد أن فقَدَ القدرةَ على التفكير، لم تبقَ له سوى الأقوال المأثورة. دون أن يريد شيَّد بناءً، ليس بناء الفلسفة، ولكنْ فلسفته هو. على كل حال، هذا هو ما نفترضه منذ أن عثرنا في جيمس تاون (أستراليا) بالصدفة على مكتبة، على ما يبدو مكتبة فيلسوف، وهي أهمُّ ما يكمل عمل شفجلر. (عدا دولة أفلاطون وأعمال نيتشه الكاملة ضمَّت المكتبة أساطير القرن العشرين لروزنبرج. ولأنَّ نيتشه وروزنبرج لا يأتي ذكرهما لدى شفجلر؛ فإنَّ البحث العلمي الحديث ينظُر إليهما باعتبارهما نثرًا فلسفيًّا مخترَعًا) ولكنَّ النقوش متناقِضة. إنَّ الوضع الصَّعب الذي ما زالت الإنسانية تعيش فيه بعد الحرب العالمية الثالثة لا يَسمح للإدارة أنْ تموِّل أكثر من فريقِ باحثين واحدٍ في منطقة صخور الجازهربروم. بعد فترةٍ قصيرة من انتهائها من عملها انهَارَ الجبلُ الصخري، لا بد أن المرتزِقة حفروا المغارات في معظم أجزائه؛ فانهَارَ. أمَّا لماذا كانوا يعتقدون أنَّهم في جبال الهمالايا؛ فهذا أمرٌ غير مفهوم. ليس لدينا من النقوش سوى نسخة. ويعتقد علماءُ مختلفون أنَّ النقوش كتبتها «نفسان». رقم ٦٠٢٣ ١٠ أس ٢٣ — الذي دوَّنه الأصمُّ الأخرس على الحائط — يمكن

اعتبارُه عددَ لوشميدت، ٦,٠٢٣١٠ أس ٢٣. وبالمناسبة، فإنَّ الفضل في إعادة اكتشاف هذا الرقم يرجع إلى النُّقوش. «النفس» الأخرى ستكون عندئذٍ الأصمَّ الأخرس. ويعتقد كنورهول وهوبلر وأرتور بول أنَّ هذا الأصمَّ الأخرس هو يوناتان. فهذا حفَرَ نقوشه أيضًا على الصَّخر. من اللافت أن ذِكره لا يأتي فيما بعد. حكتْ نورا «للعقيد» أنَّ إدينجر قد أعاد تشييدَ الرياضيات والفيزياء والفلك مع الأصمِّ الأخرس. «العقيد» كان يشغله سؤالُ العدو. ولكنَّ جزءًا من الكتابات تهتمُّ بمصير الإنسانية، وتربط هذه القضية بـ «الشموس»؛ من المستحيل أن يكون «العقيد» قد دوَّن هذا الجزءَ أيضًا. باحثون آخرون، مثل شتيرنكنال ودو لا بودر وتايلهارد فون تسيل، يُشيرون إلى أنَّ «إدينجر» لا يُذكر في أرشيف الإدارة، وأنَّ الكتابات نوعٌ من الحلم الذي اخترعه العقيد؛ فهو — في وضعه اليائس — قام بعملية انقسامٍ للذَّات، إلى مرتزِقٍ فاعل وآخرَ مفكِّر. بالإضافة إلى كلِّ ذلك، علينا أنْ نلاحظ أننا لا نعلم شيئًا ملموسًا عن أوروبا الزائلة؛ إذ لم تبقَ منها سوى الموسيقى. إنَّها إنجاز تلك القارَّة. كما أنَّ لحنَ «أيها الآتي من الفجر الوردي» ما زال محفوظًا. ولكننا نشكُّ في أنَّهم استمعوا إلى هذا اللحن على الموجة القصيرة من راديو قام أحدُهم بصُنعه عشوائيًّا؛ لقد كان الرَّجُل معروفًا بسُكرِه المُزمِن.].

تعقيب

فريدريش دورنمات: القضايا الكبرى بأسلوبٍ مشوِّق

يحتلُّ الكاتب السويسري فريدريش دورنمات (١٩٢١–١٩٩٠م) مكانةً مرموقة في الأدب الألماني المعاصر، بل في الأدب العالمي كلِّه. وليس من قبيل المبالغة أنْ نقول إنَّه أكثرُ أهميةً وعُمقًا وإمتاعًا مِن بعض مَن نالوا جائزة نوبل.

دورنمات أديبٌ «كلاسيكي» كونيٌّ، يتناول بشكلٍ مشوِّق القضايا الكبرى التي شغلت الإنسان على مرِّ العصور، حتى إذا كان ما يكتُبه «ليس إلا» قصةً بوليسية. في أعماله يبتعد دورنمات ابتعادًا تامًّا عن السيرة الذاتية وعن التناوُل المباشِر للأحداث التاريخية، وهو بذلك يختلف عن معظم أدباء جيله، سواءٌ من موطنه سويسرا، مثل ماكس فريش، أو في ألمانيا، مثل جونتر جراس وهاينريش بُل وكريستا فولف.

دورنمات — وكما نرى بوضوحٍ في القِصص الثلاث التي تضمُّها هذه المجموعة — هو شاعرُ الكوارث البشرية، الكاشف عن الأعماق الإنسانية المظلِمة، والمتنبِّئ بالجنون العالمي المدمِّر. لا تمنح قصص دورنمات ومسرحياته الأمل الكاذب، بل تفتح عينَ القارئ على اتِّساعها ليرى العالم كما هو، أو ربما أبشعَ ممَّا هو.

تحتوي قصص هذه المجموعة على كلِّ ملامح أدب دورنمات النثري. في القصة الأولى يعود الكاتب إلى مسرحية «زيارة السيدة العجوز»، وهي المسرحية التي ارتبط اسمه بها طويلًا. وربما ظلَّت فكرة هذه المسرحية تشغله حتى وفاته، فكتَبَ لها عدَّة صياغاتٍ نثرية، نُشرت آخرها عام ١٩٩٠م تحت عنوان «الخسوف». في المسرحية تعود امرأةٌ ثريَّة إلى قريتها لتنتقم من خطيبها السابق الذي تخلَّى عنها، أمَّا في «الخسوف» فيرجع «السيد العجوز» إلى

قريته ومسقط رأسه لينتقم من الجميع. في «الخسوف» يتناول دورنمات، مرةً أخرى، أحدَ موضوعاته الأثيرة متأمِّلًا في ماهية العدالة، ومسلِّطًا الضوء على غرائزَ إنسانيةٍ أزليَّة، مثل الرغبة في الانتقام والتشفِّي وكذلك النَّهم والطمع الذي لا يعرف شبعًا. وفي قصة «السقوط» (١٩٧١م) يرسم دورنمات «بورتريهًا» بارعًا لمجموعةٍ من المتعطِّشين إلى السُّلطة والمتشبِّثين بها، وهي مجموعةٌ يسيطر عليها رعبُ فقدان السُّلطة. أمَّا قصته الكابوسية «حرب التيبت الشَّتوية» فيُصوِّر فيها نهايةَ العالم، أو العالمَ بعد نهايته، بعد الحرب العالمية الثالثة، الحرب الذرِّية التي ستبيد الجميع، وهي أُمثولةٌ عن الطبيعة البشرية وشهوةِ السُّلطة والقوة، والمتاهة البشرية التي نعيش فيها. الإنسان هنا ذئبٌ بالنسبة لأخيه الإنسان وعدوُّه، وهو ضائعٌ في «متاهة» السُّلطة الأبدية، نظرته محدودةٌ بمنظور النفق الذي لا يجِدُ مخرجًا منه، أمَّا وسيلته الوحيدة لإثبات وجوده فهي القتل. في هذا النصِّ يقدِّم دورنمات رؤيته لفترة الحرب الباردة، لكنه — كمعظم نصوص الأديب السويسري — نصٌّ متعدِّد الطبقات، يحتاج إلى أكثر من قراءةٍ لكي يُبصر القارئ طريقَه في هذه المتاهة القصصية الجميلة.

سمير جريس
برلين – يناير ٢٠١٥م

هنـــداوي